

الرّحْلَةُ إِلَى الْأَذَّاتِ

٢

رِجَالُ الْوَكِيعِ

بِقَلْبِهِ
أ. د. عبد الـكـرـيم بـكار

ولـالـفـاعـ

دمـشـقـ

میرزا اسحاق خاں

.....

تجدد الاعیان

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢١

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ٤٥٢ - ت ٤٥٢ - ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت ٦٥٣٦٥٥ - ٦٥٣٦٦٦ /
ص ٦٥١ - ١١٣

توزيع جميع كتبنا في السعودية عن طريقه
دار البشائر - جدة : ٢١٤٦١ - ص ٤٨٩٥
ت ٦٦٥٢٦٣١ / ٦٦٠٨٩٤

الرِّحْلَةُ إِلَى الْذَّاتِ
(٢)

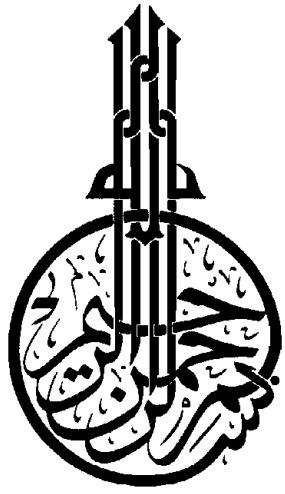
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

أ.د. عبد الله الكرمي بكار

الدَّارُ الشَّامِيَّةُ
١٣٦٢ هـ

دار القلم



www.alkottob.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد إمام المرسلين وعلى آله وأصحابه، ومن سلك طريقهم، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من السلسلة التي أطلقت عليها اسم (الرحلة إلى الذات)، وكنت قد نشرت الجزء الأول منها منذ ما يزيد على ست سنوات تحت اسم (أصول في التفكير الموضوعي). وقد شغلت خلال المدة الماضية بكتابة سلسلة (المسلمون بين التحدي والمواجهة). وخلال تلك المدة كان يطالبني بعض الإخوة والأصدقاء بآراء أميت السلسلة الأولى، وأن أعمل على إخراج بعض الأجزاء حتى يتم لنا ما كنا نوّهنا عنه. وقد أجبتهم إلى طلفهم ذاك، ولم أجده موضوعاً ينسجم مع التفكير الموضوعي كموضوع (تجديد الوعي)؛ فبعد أن يعرف المرء وضع الأمور في نصابها الصحيح بتجربه عن مغريات الهوى، وتهويمات الظنون يضحي لزاماً عليه أن ينظر في آليات استيعابه للواقع، وفي تنظيم ردود فعله عليه.

إن تجديد الوعي يعني السعي المستمر إلى اكتشاف توازنات جديدة داخل فكرنا وثقافتنا بما يدعم وجودنا القيمي، وبما يعزّز فاعليتنا وأداءنا في طريق النهوض الشامل.

تجديد الوعي يعني من وجه آخر محاولة فهم الظروف الجديدة التي أوجدها التقدم العلمي والتقني، وفهم التحديات الجديدة الناشئة عنه، والاستجابة الراسدة إليها.

الوعي نفسه مصاب بالقصور الذاتي، ولديه استعداد كبير للحيرة والارتباك، ولا سيما حين يتعامل مع معطيات معقدة.

لا يعني تجديد الوعي الذي حاولنا الاقتراب منه في هذا الكتاب نهاية الطريق؛ فوغرينا بحاجة ماسة إلى تجديد مستمر ورعاية دائمة؛ وكلما تسارع إيقاع المتغيرات صارت عمليات التجديد والمراجعة أكثر إلحاحاً وأشد خطراً.

ونسأل الله التسديد في القول والعمل، والتوفيق لما هو خير وأبقى.

د. عبد الكريم بكار

١٤٢٠ / ٣ / ٢٧

حول
شُؤُوف الوعي

www.alkottob.com

حول شؤون الوعي

تعريف الوعي :

يبدو أن الكلمة (الوعي) أخذت حظها من التطور في الاستعمال على نحو مواكب لارتفاع حيائنا الفكرية والثقافية؛ فقد كانت هذه الكلمة تستخدم للجمع والحفظ، على نحو ما نجد في قوله - سبحانه - : «وَتَعِيَّهَا أُذُنٌ وَّعِيَّةٌ»^(١) قوله : «وَجَعَ فَأَوْعَنَ»^(٢).

وفي مرحلة لاحقة صارت الكلمة تستخدم بمعنى الفهم وسلامة الإدراك. وكان علماء النفس في الماضي يعرفون الوعي بأنه : «شعور الكائن الحي بنفسه، وما يحيط به». ومع تقدم العلم، وتعقد المصطلحات والمفاهيم أخذ مدلول (الوعي) ينحو نحو العمق والتفرع والتوسع، ليدخل العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والفكرية، وصار هناك كلام كثير عن تنمية الوعي وتجلياته، إلى جانب الحديث عن تشته وانقساماته، وعلاقته بالخبرة والثقافة والنظام العقلي؛ كما كثرت المجالات التي يضاف إليها الوعي؛ فهناك وعي الذات والوعي الاجتماعي والوعي الطبيعي والسياسي... وكثير الحديث عما يسمى (اللاوعي). ولعلنا نلمس بعض هذه المسائل عبر الحروف الصغيرة التالية :

١ - تستخدم الكلمة (الفكر) وكلمة (العقل) وكلمة (الثقافة) وكلمة (الخبرة) في المجالات الحضارية المختلفة. وفي بعض الأحيان تلتبس

(١) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٢) سورة المعارج: الآية ١٨.

مدلولات هذه الكلمات، وتتدخل وتنقاطع، وهذا أمر طبيعي نظراً لرمزية معانيها، والعلاقات التي تربط بينها. والذي يهمنا هو إبراز علاقة مدلول (الوعي) بمدلولات هذه الألفاظ.

إن علماء النفس كثيراً ما يشيرون إلى أن الوعي يعني مجموع ما يحصل من الشعور والإدراك والتزوع؛ لكننا في الكتابات الثقافية العامة، قد نطلق كلمة (الوعي) على ما تدل عليه كلمة (الإدراك) أو كلمة (الشعور) منفردين. ونجاوز في أكثر الأحيان مصطلح علم النفس هنا إلى مدلول أكثر عمقاً وتنظيمأً.

إن الوعي محصلة عمليات ذهنية وشعرية معقدة؛ فالتفكير وحده لا ينفرد بتشكيل الوعي، فهناك الحدس والخيال والأحساس والمشاعر والإرادة والضمير؛ وهناك المبادئ والقيم ومرتكزات الفطرة وحوادث الحياة والنظم الاجتماعية، والظروف التي تكتنف حياة المرء. وهذا الخلط الهائل من مكونات الوعي، يعمل على نحو معقد جداً، ويسمى كل مكون بنسبة تختلف من شخص إلى آخر، مما يجعل لكل شخص نوعاً من الوعي يختلف عن وعي الآخرين.

هذه المكونات في مجموعها تشكل لدى الفرد - كما تشكل لدى المجتمع - ما يمكن أن نسميه بـ (الخبرة)؛ لكن مفردات خبرات الواحد منا لا تطفو على السطح، ولا تكون في متناول العقل دائمًا وعلى درجة واحدة. إمكاناتنا العقلية التي وهبنا إياها الخالق - جل وعلا - ومبادئ التفكير والمحاكمة والروز الثقافي، تعمل في خبراتنا على نحو غير مرئي، حيث تلتقي فيها أنظمة العقل مع أنظمة الواقع، مع المزاج والميل؛ مما يستدعي إيجاد نوع من الدمج والملاءمة بينها.

ويمكن القول: إن حصيلة ذلك اللقاء السعيد بينها هو (الوعي)؛ فهو من وجه منعكس لتنظيم الخبرة، والخبرة من وجه آخر هي الأداة التي يستخدمها الوعي للتعرف على الوجود الطبيعي والاجتماعي، وإدراك موضوعاتها وظواهرها، واستقصائها وتفسيرها... لكن لا بد من القول:

إن وعينا لا يستطيع تنظيم كل خبراتنا، ووضعها في خدمة قراراتنا، بل إنه في الحقيقة لا ينظم سوى جزء يسير منها.

٢ - إن عمل العقل يتم في سياق أقرب إلى الثبات والاستمرار، إنه نوع من الإشراق الدائم. أما (الوعي) فيشبه عمله سلسلة من الومضات واللمحات التي تتفاوت شدة وقوة، إنه أشبه بمرجل يغلي، فهو لا يكاد يعرف الاستقرار؛ ولذا فإن المحافظة على توتره وبيقه تحتاج إلى رعاية دائمة، وإنما أسهل تزييفه أو تخفييه!

الإنسان نتاج الثقافة، فهو عند مولده كائن خام، ولا تبلور إمكاناته إلا في بيئة مادية ووجودانية وثقافية ملائمة، وبعد جهد متواصل؛ ولذا يمكن القول: إن الوعي معطى اجتماعي.

ومع أن الوعي يقيم علاقة جدلية بالمجتمع والوجود عامه، يؤثر فيه، ويتأثر به، إلا أن الصحيح أن وعي الفرد يظل مسؤولاً إلى حد بعيد بمستوى الوعي السائد في مجتمعه.

/ ولا ريب أن في كل مجتمع عبارة ونوابع، قد يتتجاوزون السقف الثقافي لمجتمعهم، إلا أنهم يمثلون الشذوذ الذي يؤكد القاعدة؛ فالمجتمع ذو قدرة فائقة على برمجة الوعي وتوجيهه، وتنظيم ردود أفعاله.

إن الجماعة تفرض على الوعي قيودها وشروطها المؤدية إلى التماهي مع ثقافتها، وطريقة استيعابها للتاريخ والواقع؛ لكن الثابت أن الكائنات الحية بدءاً بالفيروس وانتهاء بالإنسان تسعى بإصرار إلى الاستقلال المتزايد، والحرية المتنامية من أجل سمو الذات. ولذا فإن الوعي الإنساني يحاول دائماً النفاذ إلى الواقع على نحو منفرد، ومتفلت من رؤية المجتمع وأسلوبه في التعامل مع معطيات الوجود؛ وهذا يشكل في الحقيقة أكبر مصدر للتجدد الاجتماعي، وهو على ما فيه من تعكير لصفو التضامن الأهلي يظل أفضل أداة تحول بين المجتمع وبين التأسن الذي لا يقود في النهاية إلا إلى التحلل الذاتي.

٣ - الصورة الذهنية وسيلة من أهم الوسائل التي يستخدمها (الوعي)

في تنظيم الخبرة والتعامل مع الوجود الخارجي؛ وذلك لأن الوعي لا يستطيع الإحاطة بالعالم الذي نعيش فيه عن طريق الحواس وحدها؛ لذلك يحتاج إلى القياس، إلى جانب الحدس والخيال؛ وهو كثيراً ما يرضي بالاستقراء الناقص، ويلجأ إلى التعميم الذي قد لا يستند إلى معطيات كافية، وكل ذلك في سبيل إيجاد قواعد ومنطلقات وأساليب يتعامل من خلالها مع أحداث الوجود المختلفة. وخلال كل ذلك يتولد لدى الوعي عدد هائل من الصور الذهنية عن الشعوب والأجناس والأشخاص والواقع والنظم والظواهر المختلفة.

الصورة الذهنية عبارة عن مجموع المعرف والمعتقدات التي يحتفظ بها الفرد وفقاً لنظام معين عن ذاته، وعن العالم الذي يعيش فيه، إنها ناتج عمليات (خض) عقلي وثقافي هائل يقوم به الوعي من أجل تكوين أرض معرفية صلبة، يتخذ منها رأس جسر للعبور نحو استيعاب مفردات الوجود.

إن حاجة الوعي المائة إلى الصور الذهنية تجعله يشكل صوراً مبسطة ومحصرة لما يرغب في التعامل معه. وتلك الصور كثيراً ما تكون فاقدة أو زائفة أو مشوهة، مما يحولها في أحياناً كثيرة من أداة تعين الوعي إلى حُجب تحول بينه وبين رؤية الأشياء على ما هي عليه؛ لكن معظم الناس لا يدركون هذه الحقيقة، وي الثون في صورهم الذهنية على نحو شبه مطلق!

الصور الذهنية التي نمتلكها عن كل ما حولنا تتسم بالقصور الذاتي بالإضافة إلى أن معظم الناس يميلون إلى التشبت بها، معتبرين إياها مكونات عزيزة لوعيهم العام، وهذا هو الذي يحولها من صور متغيرة ومستجيبة للمعطيات الجديدة إلى صور جامدة متکلسة، أي صور نمطية متقوية. وهذه الصور تسهل عمل الوعي، لكنها تجعله متخلطاً عن الواقع؛ فالتأثير المتسارع الذي يشهده العالم يفرض علينا أن نحور في صورنا عنه، وإنقلنا من حيز الإدراك الصادق إلى حيز التعامل مع الأوهام.

ليس من النادر أن نرى - مثلاً - من يتحدث في أمور سياسية

واقتصادية وبيئية... بأسلوب يعتمد مفاهيم نسخت منذ قرون بسبب أن الصور الذهنية لديه مستمدّة من قراءات ومقولات متواترة، تجاوزتها الخبرة البشرية، وصار الأخذ بها مما يثير الضحك والإشراق معاً.

٤ - العناصر المكونة للوعي ترك تأثيراً بالغاً في درجة تماسته واستمراريته؛ وهو بحكم تلك العناصر أقل صلابة وثباتاً - كما أشرنا - من (العقل) فنظراً لصلة الوعي الوثيقة بالواقع وبالمعطيات الثقافية المختلفة، وبالمنتجات التقنية والاجتماعية - التي تتسم بالتطور المستمر - فإنه يظل مطالباً بأن يجدد نفسه إذا ما أراد أن يقوم بوظيفته في تنظيم الخبرة، وإدراك التحديات، وطرح الحلول لمواجهتها.

والحقيقة أن كثافة المنتجات الثقافية، وسرعة التغيرات الاجتماعية، قد جعلت (الوعي) قاصراً عن ملاحظتها واستيعابها وبالتالي ترميزها، وإرسال الإشارات الملائمة للتعامل معها. ونحن هنا لا نتحدث عن وعي الأفراد؛ إذ من الطبيعي والمألوف أن يظل بين الناس من هو عاجز عن ذلك؛ ولكننا نتحدث عن الوعي المجتمعي الذي يشكل حصيلة وعي الأفراد والمؤسسات الاجتماعية المختلفة.

وكثيراً ما يُظهر هذا الوعي أنه لا يملك من الحساسية ما يكفي لإدراك المتغيرات المتتسارعة، وتأسيس الاستجابات الملائمة لها، ولا سيما في الأزمات، حيث يرتكب مثقفو الأمة في تشخيص الأزمة، كما يختلفون اختلافاً واسعاً في أسلوب مواجهتها.

ويبدو أن ذلك يعود إلى التقاليد الاجتماعية الصارمة والقيود السياسية، وخوف الناس من التغيير، وثبوّة بعض مرتکزات الوعي. وحتى يستجيب الوعي للمتغيرات المتتسارعة فإن عليه أن يحور في بنائه الخاصة بتحسين إدراكه لذاته وما حوله؛ وهذا شاق جداً حيث إن عليه آنذاك أن يقوم بدور الحجر والنحات معاً.

التواصل الكوني الهائل، ووفرة المعلومات التي فاقت كل تخمين، سبّبت للوعي مشكلة جديدة، حيث صار من الواجب عليه أن يبرمج،

وينظم خبرات كثيفة ومتعددة، كثيراً ما تفوق قدرته على المعالجة. لا ريب أن درجة الاستنارة العامة ارتفعت لدى معظم الناس، لكن المطلوب من الوعي هو استخلاص بيانات مما يفيض عليه، ودمجها في نماذجه الخاصة، وهذا الأمر ليس باليسير؛ حيث إن المعلومات والصور والرموز التي تلقاها في كل يوم كثيراً ما تكون ذات دلالات متباعدة ومتقاطعة، والخلفيات القائمة وراءها غير شفافة في أكثر الأحيان، مما يسهم في صعوبة تفسيرها، وهذا كله يجعلها أدوات تشويش على نظام الوعي، أكثر من كونها أدوات تعزيز وتدعيم له؛ وعليه من الآن فصاعداً أن يعرف كيف يتدارك أمره!

٥ - قلنا: إن عيناً يسعى دائماً إلى شيء من الشبوبة والتمسك بمقولاته، والثبات على المواقف التي تبنّاها بناءً على ما تحصل لديه من صور وتصنيفات ثقافية... لكن ما يبني على متغير فهو متغير، وإذا كان من الصحيح أن المبادئ الكبرى والقيم العليا - إلى جانب الكثير من نواميس الوجود - ثابتة ومتجلدة، فإن الصحيح أيضاً أن كثيراً من مفردات الوعي وطروحاته لا ترتبط بهذه الأصول، ولا تقوم على معطياتها، وإنما تستمد ركيائزها ومضامينها من أحداث الحياة اليومية، والروابط الاجتماعية، ودلالات المنتجات التقنية، وتطور فهمنا لمدلولات التاريخ، وكثير من معاني الوجود... وهذه كلها في حالة من التغير المتصل؛ مما يجعل عيناً يتغير باستمرار، وقد لا تكون حركته في ذلك خطبة أو مطردة، لكنه على كل حال لا يملك أبداً أن يجمد على حال واحدة.

يتغير وعي الأفراد عادة على نحو أسرع مما يتغير عليه وعي الجماعات والمجتمعات، لكن كلاً منها يتغير على نحو تراكمي؛ فالإسلام لم يمدد العرب في يوم وليلة؛ كما أن الحضارة الحديثة لم تصغ الغرب صياغة جديدة إلا عبر قرون من التفاعلات المتالية.

وتتمتع وسائل الإعلام المبرمجة والممنهجة بتأثير قوي جداً في تغيير وعي الناس، حيث تستخدم تقنيات فائقة، تستند إلى دراسات نفسية

و الاجتماعية دقة وعمقها؛ مما يجعل موقف كثير من الناس تجاهها التسليم والاستسلام.

في بعض الأحيان يكون تغير الوعي سريعاً وجذرياً بسبب ضخامة الأحداث التي تؤثر في مجرى التاريخ، وتوجد ظروفاً وإمكانات وتحديات جديدة؛ فانتصار ساحق في حرب، أو هزيمة منكرة في معركة، أو اكتشاف مؤامرة خطيرة، أو موت زعيم فذ، أو زلزال مدمر... كل ذلك يحدث للوعي ما يشبه (الصدمة) وينمّي فرصة لأن يكتشف ذاته من جديد. وفي كل الأحوال فإن طبيعة التغيير الذي يتعرض له الوعي متوقفة على أمرين: طبيعة الأحداث والصور والظروف الطارئة، وطبيعة التركيب العقلي لفرد والمجتمع. ويلاحظ في هذا السياق أن خصوبة الخيال، واتساع قاعدة الفهم، وارتقاء مستوى التعليم والانفتاح، ونجاح التربية السائدة... كل ذلك يجعل إمكانات تجدد الوعي وتغييره أكبر.

٦ - الوجود غير الوعي (اللاوعي) هو الوجه الخفي للتجربة الوجودية للإنسان، إنه كيان متكامل يتمتع بالطلقة والحرية، ويغلغل في كل أنشطة حياتنا؛ وهو قاعدة أعمالنا الغريزية، ومبعد رددات أفعالنا.

اللاوعي أو اللاشعور يتجسد في حياة الإنسان البدائي وإنسان الغابة؛ ويتجسد في سلوك المجتمعات التي فسدت نظمها ومؤسساتها المدنية، وبرز فيها تحكم التزوات والغرائز محدداً نمط الشخصية وردود أفعالها ونوعية تطلعاتها.

الإسلام بما هو بنية تمدنية إصلاحية، يطالعنا دائمًا بأن يسيطر علينا على أكبر مساحة ممكنة من مشاعرنا وأعمالنا وسلوكياتنا ومواقفنا، وتحوילها إلى ظاهرات، تتجسد فيها الإرادة الخيرية، والعزمية الصلبة، والإختيار الرشيد. وهذه المطالبة تنطلق أساساً من الثقة في إمكانية تنمية الوعي، وتحسين قيادته لأنشطتنا كافة.

وقد ذم الله - جل وعلا - ألواناً من التصرفات الخاطئة والمشينة، والتي ما كان لها أن تقع لو أن وعي أصحابها كان يقطأً وقدراً على تأدية وظائفه على الوجه المطلوب. ولتأمل في الآيات الآتية لنكتشف شيئاً من ذلك:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَبَرَ مُجْرِمِهَا لِتَكُونُوا فِيهَا وَمَا يَتَكَبَّرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَخْنُ مُضْلِّوْنَ﴾ آلا
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنَّ لَا يَشْعُرُونَ^(٢).

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّا نُؤْدِرُهُمْ بِهِ مِنْ تَمَلِّكٍ وَبَيْنَ﴾ نَسَاعُ لَهُمْ فِي الْكَوَافِرِ بَلْ لَا
يَشْعُرُونَ^(٣).

على المسلم أن يستخدم كل إمكاناته، وأن يجاهد نفسه من أجل توجيه مشاعره، وصياغة وجوده كله في ضوء تعاليم الشريعة السمحاء وأدابها السامية، ولنلمس ذلك في آيات كثيرة، منها:

﴿وَلَا تُسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِأَنَّى هِيَ أَحْسَنُ إِنَّمَا الَّذِي يَنْهَاكُ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةً كَانُوا وَلِيُّ حَمِيمٌ﴾^(٤).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيَنَا لَنَهْدِيَنَّمْ سُبُلًا وَلَنَّ اللَّهُ لَعَنِ الْمُخْسِنِينَ﴾^(٥).

﴿بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ فَقِيهِ بَصِيرٌ﴾ وَلَنَّ الْقَنْ مَعَذِيرٌ^(٦).

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾^(٧).

والى جانب ذلك هناك الكثير من الآيات والأحاديث التي تحث المسلم على التفكير والتأمل والتذير والاعتبار في أحوال الوجود وسير الأمم السالفة؛ وذلك كله يستهدف إبعاد الاعتباطية عن حياتنا، وتعزيق فهمنا للسنن الربانية في الخلق، وجعل عيناً يتمدد باستمرار إلى مواطن لم يتعرف عليها من قبل.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١١، ١٢.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: الآيات ٥٥، ٥٦.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٦) سورة القيامة: الآيات ١٤، ١٥.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

وما

الآ

ألا

جل

ابها

يتك

حث

لام

همنا

لم

\ ٧ - ليس ارتباك الوعي شيئاً غريباً في حياة الناس، وليس انقسامه على نفسه من الحوادث النادرة في واقعنا المعاصر؛ فطبيعة عمل الوعي في المواجهة بين القديم والجديد، وبين (الأنما) (والآخر)، وبين (المعنوي) (والحادي)، وبين (المبادي) (والمصالح)... هي التي تعرضه لتلك المخاطر، وتجعله ساحة لاجتماع المتناقضات، وهي التي تسبب له التمزق والتشتت؛ فيبدو عاجزاً عن المراجعة والنقد واكتشاف الممكن، كما يبدو حائراً في دمج الثنائيات الناتجة عن طبيعة تشعب حياتنا الحضرية. وإذا كانت الصفة تتعرض أكثر من غيرها لمثل هذه المشكلات، فإننا نجد تشتبث وعيها في عالمنا الإسلامي بات ميسماً من مهام إنتاجها الثقافي كله؛ إذ ترى كتابات كثيرة لا تعرف سوى الثناء على الماضي وتزكية النفس، وتصویر الحضارة الحديثة وأهلها على أنها أصل الشر وفروعه، لكن أصحاب تلك الكتابات يرسلون أولادهم للتعلم في الغرب، ويقتبسون من نظمه في تسيير شؤون حياتهم، ويرفهون أنفسهم بمتجاهاته التقنية..!

في المقابل هناك من ليس له من عمل سوى جلد الذات، وإبرازأسوا ما في تاريخنا من وقائع ونماذج من أجل هدم ذلك التاريخ، وجعل التواصل معه، ومع معطياته الرمزية والثقافية السبب الأساسي للمحنة.

أما الغرب في نظر هذا الفريق فهو مجتمع الفضل والعبقرية والتفوق، وهو بذلك أهل لأن يسود ويتحكم ويقود... . وهم يغضبون الطرف عن كل أشكال معاناة الغرب على الصعيد الروحي والاجتماعي والأخلاقي، و يجعلون من تقليده، والسير وراء مشروعاته الحضارية سفينة نوح التي إن فاتتنا، فلن نجد سفينه أخرى! .

قليلون أولئك الذين وضعوا أيديهم على أسباب هذا الانقسام، والأقل منهم أولئك الذين استطاعوا تحسس معالم الصراط المستقيم، الذي يوفر لنا المساحة الكافية لدمج الثنائيات، وال Thur على حلول نتجاوزها، و يجعل من تناقضاتها مصدرأً للإبداع، والنهوض بالواقع، واستشراف المستقبل.

إن انعكاس الكثير من أحداث الحياة على الوعي يشير بوضوح إلى أن كثيراً من الحلول لازمة الوعي الإسلامي لن تستطيع العثور عليه في داخل الوعي أو الثقافة أو التراث أو النقلة الصناعية، وإنما في تحسين الواقع، وعيش زماننا بكفاءة وفاعلية؛ وعلى مقدار ما يكون نجاحنا في ذلك منطلقاً من أفق مبادتنا ورمزياتنا، سنجد تحسناً آلياً وفوريأً في موقف وَغِيناً منا، ومن منافسينا، وسنجد أن ارتياكاته لم تكن أمراضاً في حد ذاتها، وإنما هي أعراض لأمراضنا الحضارية المزمنة.

٨ - إن الحديث عن تجديد (الوعي) لم يكن وارداً لو لا اعتقادنا بقابلية وَغِيناً للنمو، ولو لا ثقتنا بإمكاناته في نقد ذاته، وإعادة طرح مقولاته ونظمها ونماذجه للمراجعة، مما يعني في النهاية قدرته على تجاوز ذاته وتطورها.

إن إرادة الواحد منا حين تتجه إلى تحقيق شيء، فإنها تحفز الوعي على وضع مجموع خبراته وإمكاناته في خدمتها، لكن إرادة التجديد ليست هي الخطوة الأولى، وإنما الخطاب، وإنما تمثل الخطوة الأولى في إدراكنا لأهمية التجديد، والتي كثيراً ما يكون الوعي غافلاً عنها، أو معرضآ عن الاستجابة للإشارات التي تنبئه إلى ضرورة الالتفات إليها.

إن الدواعي التي تحتم علينا متابعة وَغِيناً، والحرص على تجديده كثيرة، نذكر منها:

أ - مهمة الوعي الكبرى أن يشكل ذاته، ويبني استقلاله بعيداً عن سجن الواقع، وخارج معطيات البرمجة الثقافية المحلية، وخارج حدود النظام الاجتماعي السائد؛ وذلك بغية الحصول على أفضل إدراك للحقائق الموضوعية المختلفة. وهذا التحديد للمهمة الكبرى للوعي، هو الذي يفرض عليه السعي إلى تجديد نفسه، حيث إن الواقع الموضوعي والتاريخي الذي يسعى الوعي إلى القبض عليه وتفكيك رموزه، ليس واقعاً مشخصاً مكتماً، نضع برنامجاً زمنياً لاستيعابه، وإنما هو واقع متجدد باستمرار،

أن
خل
بع،
للقا
نا،
هي
نادنا
لاته
ذاته
وعي
ست
في
رضا
ديده
عن
مدد
حقائق
الذي
يختفي
خاصة
رار،

وحقائقه موضع تفسير دائم، ومن خلال عمليات الاستيعاب والتفسير يقوم الوعي بتركيب حقائق جديدة، ويحاول اكتشاف القوانين المتحكمه فيها؛ وهو في كل ذلك لا يملك أية ضمانات لصحة عمله، فقد يصيب، وقد يخطئ، وقد يقترب من الحقيقة الموضوعية، وقد يتبعد، لكن في كل الأحوال، ومهما تكن النتائج، فإن الوعي خلال عمله ذاك يغير في بنائه الخاص، ويحدد في الآليات التي يستخدمها؛ ومرة أخرى فإنه لا يُشترط في ذلك التجديد أن يسير في طريق النضج دائماً. مشكلة الوعي دائماً الاندماج في الواقع الموضوعي، أو العيش على هامشه؛ والنتيجة في الحالتين واحدة، هي سوء التعامل، والعجز عن الفهم الصحيح. ولو أنها وجدنا وسيلة لقراءة حالة الوعي لدى معظم الناس لما رأيناها تتبعذ كثيراً عما ذكرناه.

هذه الوضعية تتطلب منا أن نجد في محاولة إبقاء الوعي في علاقة جدلية حية مع واقع متجدد؛ فهو من خلال مزيد من الاستيعاب للواقع وتفسيره يجدد في تركيبه، ومن خلال تجديده لتركيبه يزيد في قدرته على فهم الواقع، وهكذا... .

ولست أبالغ إذا قلت: إن كثيراً من الناس ينظر إلى وعيه على أنه شيء نهائي ومكتمل، كما ينظر إلى الحقائق المختلفة على أنها جواهر ثابتة، وليس علينا سوى الإمساك بها وامتلاكها. وهذا في الواقع هو أكبر عقبة تحول دون قيام الوعي بمهامه، كما أنه أكبر عقبة تحول دون تجديده.

ب - إن حركة التاريخ تأتينا في كل يوم بابتلاءات جديدة، وهي بتعاقب أحدها المختلفة، تلقي الكثير من الحجب على أصولنا الشرعية ومبادئنا الكبرى، أي تقدم للوعي رمزاً ودلالات تبعده في كثير من الأحيان عن استشاف المنهج الرياني الأقوم في إصلاح الحياة والنهوض بها.

ولا يخفى أننا نعيش في عصر روحه مادية، وأوضاعه وأحواله أقرب إلى أن تكون علمانية وضعية، وهذا وحده كافٍ لتغذية وعي المسلم بكل ما

يجعل تلمسه لطريقة توظيف المذهبية الإسلامية ضعيفاً. أضف إلى هذا أن التقدم التقني والحضاري أوجد أوضاعاً كثيرة، تتطلب تنظيمات وتأثيرات أكثر وأدق مما كان في الماضي، مما يعني أن معطيات الاجتهاد الفقهي التي تراكمت عبر العصور، لم تعد كافية لتوجيه الوعي الإسلامي في أعماله، وصار الأمر يتطلب فقهآً للواقع أكثر نفاذآً، كما يتطلب تزييلاً لأحكام الشرع عليه أكثر إحكاماً وبصيرة. وهذا لن يأتي إلا من خلال مزيد من الوعي بقوانين التفكير، وضبط المفاهيم، وطرق البحث والاستدلال؛ ومن خلال فهم أعمق لمقاصد الشريعة، وتحسس أفضل لسفن الله - تعالى - في الخلق.

ولا ينبغي أن يُظن أن القواعد التي وضعها الأصوليون لمد سلطان النص، وضبط مسار الاجتهاد، ستكون كافية لضمان تحسين بنية الوعي الإسلامي، وتسهيل حركته في استيعاب المسؤوليات الجديدة؛ إذ إنَّ تجربتنا التاريخية تشير إلى أن باب الاجتهاد قد أغلق، كما خَبَثَ جذوة الإبداع في الوقت الذي كان علماؤنا مشغولين فيه بإتمام تنظيم علم (أصول الفقه) وتشقيق مسائله، وعرضه بأساليب مختلفة؛ مما يعني أن تجديد الوعي يحتاج إلى أشياء إضافية، وقد تكون خارجة عن دائرة التنظير الفكري والتقييد الأصولي.

جـ - البث الفضائي وشبكات المعلومات، وتتدفق الصور والرموز الثقافية على هذا النحو العجيب أتاح للناس مقارنات ثقافية غير مسبوقة، فقد صار كل واحد في العالم يستطيع تلمس موقعه وموقع بلاده بين أمم الأرض؛ وهذا في الحقيقة عزَّزَ ثقة بعض الناس بثقافتهم، كما ولد الإحباط لدى أكثر من ثلثي سكان المعمورة. هذا التداخل الثقافي الكوني إن لم يصبحه إنضاج حسن للوعي الذاتي، وتعزيز لآليات عمله، فإنه سيتحول من عامل تفتح ونمو للوعي إلى عامل اضطراب وإرباك، وعجز عن استخدام نماذجه ومعاييره الخاصة في إصدار الأحكام الثقافية والحضارية.

أن
ات
هي
في
زيلا
مزيد
ل؛
لى -

طان
عني
ربتنا
في
لقه)
عني
كري

يموز
فقد
أمم
حياط
ن لم
، من
خدمات

إن وعينا يعمل ضمن دوائر جغرافية، تبتدىء بدائرة الحياة الشخصية مروراً بالدوائر المحلية والإقليمية والقارئية، وانتهاء بالمحيط العالمي. ولكل دائرة من هذه الدوائر وقع رمزي وثقافي خاص. ومعارفنا المتعلقة بكل منها تعزز مشاعر وعواطف خاصة؛ وهذا التواصل الكوني خلط كل إشعاعات تلك الدوائر بعضها مع بعض - وهذا وجه من العولمة التي يرتج لها الآن -. وصار لزاماً على الوعي أن يتعامل مع معطيات ثقافية متزوعة من سياقاتها الجغرافية والدينية والتاريخية والعرقية... . وصار المتلقى أشبه بمن يسمع أمشاجاً من أصوات عشر إذاعات في آن واحد، أو أشبه بطالب يتلقى في حصة دراسية واحدة معلومات في عشر مواد متباude، لا يربط بينها أي رابط. وربما كان بالإمكان أن يتحول التواصل الثقافي العالمي إلى أداة استنارة عامة، وأداة لتوسيع قاعدة الفهم إذا قمنا بتدريب الوعي على إنشاء مترباطات جديدة بين ما يُفَدِّإليه، وتدربيه على تحسين الخصوصية الحضارية لأمة الإسلام، وتحسُّن الأسس والمنظلمات التي قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة. والذي أريد أن أخلص إليه هو أنه سيكون من الخطأ الاعتقاد بارتقاء الوعي وتحسين عمله إذا هو أسلم نفسه للقوى الغاشمة التي تصوغ الرؤى الثقافية لمعظم سكان الأرض.

د - ستظل المشكلة التي تواجهنا جميعاً تتمحور حول استيعابنا لـ (واجب الوقت) أو الاستجابة الصحيحة لمجمل المطالب التي يحتمها القيام بأمر الله - تعالى - والنجاح في تحسين وضعية أمتنا بين الأمم.

فهم تلك المطالب ليس بالأمر البسيط؛ فهي ليست مطالب مؤطرة في دائرة ما، وإنما هي مطالب شخصية ومحليّة وعالمية... وعلى المستوى الروحي والعقلي والاجتماعي والمادي... .

وهذا النوع يجعل الإمامك بها - بالمعنى منها تحديداً - واستخراج ترتيب للأولويات بينها - أمراً في غاية الصعوبة، كما يجعل الخبرات المتراكمة لدى فرد أو شعب في إطار ما محدودة الجدوى، إذا ما تم

تعيمها؛ فالفكرة الشفافة، والخطة الذكية، والأسلوب الفعال... لا تستمد مقومات نجاحها من بنيتها الداخلية بمقدار ما تستمدها من السياق الحضاري والسياسي والاجتماعي الذي تعمل فيه، وهو سياق يختلف اختلافاً كبيراً بين الأفراد والأمم. في بلد ما يكون حل مشكلة النظام الاجتماعي هو التحدي الأكبر، والنجاح فيه يمثل المدخل الوحيد لمواجهة تحديات أخرى. وفي بلد ثان يكون إصلاح العقيدة وتعزيز الفهم للشريعة هو المدخل. وفي بلد ثالث يكون التخلص من الفقر، هو نقطة الانطلاق لما بعده وهكذا...

هنا تأتي مهمة الوعي المستعمل ذكاء، والممتلىء بمحضلات الممارسة والخبرة في تحديد نقطة الانطلاق والحقول الأساسي للعمل، وتحديد الشروط التي يتطلبها النجاح في ذلك الحقل. حين يملك الوعي المسلم القدرة على التردد بين إشعاعات الخبرة ومعطيات الواقع، وبين إمكانات الحاضر ومطالب المستقبل، وبين ما هو مذهبي خاص وعالمي عام، فإنه يستطيع - بعد توفيق الله - قيادة الأمة إلى بَر الأمان وفتح سبل ريادة الأمم أمام أجيالها.

هـ - كثيراً ما يعاني الوعي من بطء متابعته للواقع، وهذا البطء يجعل الوعي متخلفاً عما ينبغي أن يكون عليه عقوداً وأحياناً قرونًا؛ مما يجعل كثيراً من جهودنا غير ذي معنى. وهذا التخلف يقع في حقول الأهداف، وفي حقول الأساليب والوسائل.

في الحقول الأول نجد من الدعاة - مثلاً - من يطيل الشرح في ذكر انحرافات فرق ليس لها أي وجود الآن، وبهمل الحديث عن ألوان من الانحراف العقدي الخطير، وما ذلك إلا لأن وعيه لم يستطع استيعاب الوضعية الجديدة، وإصدار الأوامر لإحداث استجابات مناسبة لها.

حين ندعو الناس إلى إتاحة فرصة لتعليم المرأة، ويستجيب الناس لذلك، وتغض المدارس بالطلابات، فما معنى أن نصر على تذكيرهم بهذا الأمر، وقد تحقق على نحو أفضل مما كان مأمولاً.

تمد
اري
بين
ندي
وفي
بلد
رسة
مدید
سلم
نات
فإنه
لام

جعل
جعل
اف،

ذكر
من
باب

ناس
بهذا

حين تستنفد دعوة أو فكرة أغراضها، وتنجح في إيصالنا إلى أهدافنا، فإنه يجب أن نتخلى عنها كما نتخلى عن الأفكار والأساليب العقيمة والمخدفة؛ لأن كلاً منها صار غير ذي فائدة.

قد يكون استخدام هجر العاصي في حقبة ما وسيلة نافعة في رده إلى الجادة، لكن حين تكثر إطارات الشر وبؤر الفساد، فإن هجره ربما أدى إلى دفعه إلى واحد منها لنخسره على نحو كامل. ويمكنك أن تقول مثل هذا في استعمال الشدة والتعنيف في الدعوة والتربية والإدارة، فمثل هذا الأسلوب ربما كان ذا فائدة فيما مضى، أما اليوم فإنه يكاد يكون عقيماً.

قد آن الأوان لأن نحاول امتلاك رؤية جديدة للأهداف والأساليب والوسائل، وتسلیط الوعي على الإمکانات المفتوحة، والتحديات المتجددة، وإن فإن كثيراً من جهادنا قد يكون في غير عدو؛ والله المستعان.

www.alkottob.com

تجليات الوعي



www.alkottob.com

تجليات الوعي

لا يمكن للوعي - بما هو رؤية لما ينبغي أن يكون - أن يتجسد في جميع سلوكياتنا، فالالتزام بمبادئ، والعيش في مجتمع بما يفرضه من حدود لل فعل، وفقه للموازنات... كل ذلك يجعل ما هو ممكن عقلاً وتصوراً أوسع بكثير مما هو ممكن فعلاً وواقعاً؛ ولذا فمن المستحيل تقريرياً أن تقف على بلوحة تامة للوعي عند شخص ما، وتظل معرفة حدوده عند أمة من الأمم أسهل من معرفتها عند أحد الناس.

المجالات التي يمكن أن يتجلّى فيها الوعي كثيرة، بل يمكن القول: إن معظم تحليلاتنا وسلوكياتنا وردود أفعالنا، إن لم تكن انعكاساً لما نعيه فهي تحمل الكثير من الدلالات عليه. ولو أردنا أن نتحدث عن جميع تلك الدلالات والانعكاسات إذن لطال بنا القول، ولكن في ذلك الكثير من التزييد، ولعسر على كثير من القراء الإمساك بصلب قضية (تجديد الوعي) ولذا فقد آثرت أن أذكر في كل مجال من مجالات الوعي المهمة بعض القواعد والمؤشرات واللمحات التي قد توفر لنا مادة كافية لمعرفة درجة الوعي المتوفرة لدينا، والدرجة التي يجب أن تبلغها، إذا ما أردنا أن نواجه التحديات المعاصرة بكفاءة وفاعلية، وإذا ما أردنا أن نحيا الحياة التي تلقي بنا باعتبارنا أمة رسالة وهداية. ونسأل الله المعونة والتوفيق.

في الفكر

العقل الإسلامي عقل أخلاقي :

لا نقصد بالعقل هنا الإمكانيات التي وهبها الله للبشر، والتي يستخدمونها في التعامل مع المعرفة، وإنما أقصد مجموعة المبادئ والمفاهيم والمعايير التي تشكل الرؤية الكلية لدى المسلم، وهي بالطبع مكتسبة، وإن كانت تظل على الإمكانيات العقلية، وترتبط بها.

إذا عدنا إلى المعاجم وجدنا الزجاج يقول: العاقل من عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل. وقال في اللسان: العاقل الذي يحبس نفسه، ويردها عن هواها. وإذا تأملنا في كل الخلفيات وكل الأسس التي تنطلق منها نظرة المسلم للحياة، لوجدنا أنها تؤكد على معنى الالتزام وحسن السلوك أكثر من تأكيدها على فهم الأسباب، أو اكتشاف الطبيعة، أو التفوق على المنافسين.

والرموز التي يشعها القرآن الكريم والحديث الشريف، ومجمل الأدبيات الإسلامية - تركز باستمرار على ضرورة تسخير قوى الطبيعة وثمرات المعرفة ونتائج الجهد البشري من أجل قيام المسلم بأمر الله - تعالى - والتخلق بأخلاق الإسلام، ومعاملة الناس من أفق العلاقة التي تربط بينه وبين ربه - جل وعلا - وهي علاقة ترتكز على التضحية والإحسان إلى العباد والاستقامة، وإيثار الآخرة على الدنيا.

أقول هذا لأن من الملاحظ اليوم انجداب كثير من المثقفين إلى فلسفات خارجة عن هدي الوحي، وعن مقاصد الشريعة الغراء. كما أنها نلاحظ كذلك تركيزاً إعلامياً غير مسبوق على إشاعة المعرف المتعلقة بالقوة

والتفوق والله، واكتشاف المجهول، مع إهمال مقصود أو غير مقصود للمسات والطروحات الفكرية المرتبطة بالفضيلة والهداية؛ مما أدى إلى ارتباك الوعي المسلم المؤسس على الالتصاق بمعاني التدين الحق، واتخاذ الكثير من سلوك السلف محكماً مرجعياً له. وهذا في الحقيقة عامل تأخير وانحطاط أكثر من أن يكون عامل بعث وارتقاء.

الرؤية الكلية:

خالق الوجود جمیعه هو الله الواحد الأحد؛ وما دام الخالق واحداً فلا بد أن يكون في هذا الكون وحدة على مستوى ما، تتجسد في سنن ونوميس ومفاهيم واحدة. والذي يمعن النظر يجد أن علاقة كثير من الموجودات بعضها تشبه دوائر مفتوحة، حيث يشكل مركز الدائرة الصغرى منها المركز لها جمیعاً.

الإنسان لم يستطع فهم الوجود بتداخلاته الكثيرة، فحاول تجزئته وتقسيمه إلى ثانويات وأشياء متضادة، وكان هذا على ما يبدو ضرورياً من أجل توفير أفضل إمكانية لفهم والاستيعاب؛ لكن وعياناً البشري يجد نفسه في كثير من الأحيان عاجزاً عن تركيب ما فككته، وإعادة دمج الثنائيات ل تسترجع تلامحها وعلاقاتها السابقة. وعلى سبيل المثال فتحن مشتون بين الثنائيات التالية:

والدینی	الدینی
العام	العام
الحق	الحق
الکلی	الکلی
الصغیر	الصغیر
الداخل	الداخل
الصعب	الصعب
المنحة	المنحة
الذات	الذات
الجزار	الجزار

وآخر	أنا
والماضي	الماضي
والتعاون	التنافس
والعدو	الصديق
والنسبى	المطلق
	و....

لنا في تصور كل ثنائية من هذه الثنائيات جدل وخلاف وخصام وأوهام . . .

الرؤية الكلية عبارة عن محاولات لرؤية الشيء في أبعاده المختلفة، وعلى مستويات عديدة، إنها اجتهاد في النفاذ إلى الوقوف على نواميس نستطيع من خلالها ردم الهوة - أو شيء منها - بين هذه الثنائيات لتسعي شيئاً من تداخلاتها القديمة، وشيئاً من الأرضية المشتركة التي تجمع بينها. ونحن هنا سنجاول استعراض بعض المشكلات التي نشأت عن الفهم السطحي والمتجل ل بهذه الثنائيات، مع استعراض بعض ما تتيحه (الرؤية الكلية) من ترابطات جديدة، وإطلاقات كبرى للوعي من إسراه الذي وضع نفسه فيه، وذلك من خلال اللمسات التالية :

١ - ارتباك الوعي لدى بعض الأمم السابقة تجاه الموقف من اختلاط شؤون الدنيا بشؤون الآخرة، أو بين الديني والدنيوي، وكان كثير منهم يعُدُ الاشتغال بأمور الدنيا نوعاً من الخيانة لحقيقة الدين والالتزام، ولذا انتشرت بين صالحهم صور متطرفة للعزلة والزهد وإهمال متطلبات الجسد، والإعراض عن كثير من المباحثات. ولم تُثْجَّ هذه الأمة من شيء من ذلك، وكثيراً ما ترى اليوم من يقصر في متطلبات عمله المهني، ويقصّر كذلك في تلمس دوره في الفروض الحضارية، على حين تجده سباقاً في أمور التبعد، وأداء الشعائر؛ مما انتهى بمعظم مجتمعاتنا أن تكون عالة على الأمم الأخرى في معظم شؤون عيشها، بل أمور دينها؛ فنحن لا نصنع من الآلات والمعدات ما نطبع به مصاحفنا، ولا ما نشيد به مآذن مساجدنا !.

الفروض الشرعية واضحة، وكذلك المحرمات، لكن موضع الارتباك

٠٠١
تلفة،
اميس
ستعيد
بینها.
الفهم
الرؤوية
وضع

خلط
يم بعد
نشرت
بسد،
ذلك،
مك في
التبعد،
الأمم
منع من
ننا.
لارتباك

يكون في المباحثات والكماليات والفرض الحضارية، من نحو الدقة والإتقان والكفاءة والفاعلية والترتيب بين أنواع الخبرات وأنواع الشرور...

الرؤية الإسلامية حلّت هذه المعضلة عن طريق نقل المسألة إلى إطار أوسع، تواصل فيه بعض الثنائيات، وهو (النية) فالأعمال المباحة من أكل وشرب ونوم ورياضة وتسلية... يمكن أن تصبح قربات، يتقرب بها المسلم إلى الله - تعالى - إذا اتخذ منها وسيلة للاستعداد للطاعة، كالذى يأكل للتفوي على طاعة الله...

ما ينفقه الإنسان على بيته وأولاده شأن دنيوي في حسن الناس، وهو يقوم به انطلاقاً من التزام أدبي اجتماعي، لكن الإسلام يجعل ذلك شأنًا دينياً إذا توفرت النية الصالحة، لأن ينوي المرء إعفاف أسرته، وسد حاجاتها، فهو يسهم في إيقائهما على قيد الحياة تسبح الله وتعبده. وهكذا فإن المسلم يكون متلبساً حسب الظاهر بأمر دنيوي، لكنه في الحقيقة في عمل ديني من أعمال الآخرة. والأدلة على ما ذكرناه أشهر من أن نعرض لها.

فلل مثل هذا في قضية (العلاقات الاجتماعية) فقد كان التناحر القبلي في الجاهلية واحداً من أكبر العوامل في تخلف العرب، كما كان أكبر مظهر من مظاهر الفوضى الخلقية والسياسية؛ وحين جاء الإسلام نقل المسألة كلها إلى أفق أعلى، يستوعب جل المشكلات الثنائية التي تعكر صفو الحياة آنذاك؛ هذا الأفق كان على المستوى العام هو إنشاء الدولة، وإرساء تشريعات ونظم يجب على الجميع الاحتكام إليها.

أما على المستوى الخاص، فقد أوجد (الأخوة في الدين) حيث تبزع عن دخول الفرد في الإسلام فوراً حقوق وواجبات وأداب حيال إخوته في الدين، وهي حقوق أوسع من حقوق النسب والقرابة من أوجه عديدة.

فلل مثل هذا في اشتباك المحنّة والمنحة، أو الشدة والرخاء، حيث يتأنّى الإنسان بطبعه من كل ما يخالف هواه، أو يضيق عليه، أو يفوت بعض مصالحه... وفي المقابل فإنه يرتاح إلى ما يجده موافقاً لميوله

ومحققاً لتطلعتاه، ومرحباً لنفسه وبدنه... ويحمل الممتحن بعض مشاعر الغبطة والحسد نحو أولئك المحظوظين في نظره. ويحمل الذين يعيشون في رخاء مشاعر الزهو وربما الاستخفاف والشماتة نحو الذين يعيشون في بعض الظروف الصعبة... وقد نقلت الشريعة السمحاء المسألة إلى مستوى أعلى، ودمجت هاتين الثنائيتين في إطار أوسع هو إطار الابتلاء، كما قال - جل وعلا -: «وَيَأْتُنَّهُم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَالْأَيْنَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»^(١). وقال: «وَنَذِلُوكُمْ بِالثَّرَاثِ وَالْخَرَاثِ فَتَنَّهُ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ»^(٢).

بها الأفق الجديد ينتقل الناس من مشاعر الضيق والانحسار، ومشاعر الزهو والاعتزاز إلى مشاعر أخرى تندمج فيها كل المشاعر، هي مشاعر الاهتمام بالفوز، والنجاح في هذا الابتلاء الذي يتعرضون له.

إن كثيراً من التناحر والتنافس المقيت الذي يجري بين بعض أهل الخير في ساحات الدعوة، يمكن له أن يزول، أو يتحجّم لو أننا تعلمنا كيف ندمج الثنائيات، وكيف ننشئ الأطر التي تشبع للجميع، وتتجدد فيها كل فئة ما يحقق رغباتها وطموحاتها.

٢ - لدينا نزوع غريزي إلى فهم الأشياء البسيطة والسهلة، وهذا النزوع أدى من خلال الممارسة العقلية إلى تكوين بنيات فكرية عاجزة عن إدراك المسائل المعقدة، والعلاقات التفاعلية التي تتشكل نتيجة السير في اتجاهين متعاكسين؛ فأذهاننا تدرك بسهولة العلاقات الخطية؛ إذ من السهل أن نعرف أن المطر يتسبب في الإنبات، والاجتهد في النجاح... لكن لا ندرك العلاقات الجدلية إلا بعد تفكير وتأمل، وعبر منهجية معقدة؛ وذلك لأن رؤية العلاقات الجدلية التفاعلية تستلزم أن نرى الشيء الواحد فاعلاً

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٨ . (٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٥ .

ومنفعلاً، وأن نرصد الفعل والرد عليه، والحفظ والاستجابة في آن واحد؛ وهذا ما لم يهمني المنطق اليوناني التقليدي الذي تشبعنا به أذهاننا له، مع أن العلاقات الخطية علاقات وفترة، حيث يكون المسبب لوجودها خارجاً عن طبيعتها؛ ثم إن شدتها لا تعنينا.

أما العلاقات الجدلية، فالحافز على وجودها نابع من طبيعة ترابطها؛ وشدتها دائماً موضع عنایة.

عدم إدراكنا للعلاقات الجدلية سبب لنا مشكلات كثيرة، على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل والحركة، وسنوضح ذلك من خلال النقطتين التاليتين:

أ - مشكلة الداخل والخارج، تسبب لنا دائماً الحيرة والاضطراب؛ فهناك من يهجس دائماً بوجود مؤامرة كبرى ضد العالم الإسلامي، ويفسر كل تحركات الغرب، وفي أي اتجاه كانت على أنها تأكيد الهيمنة والسيطرة على ثروات المسلمين، ومن أجل سلب المزيد من حقوقهم.

ولدينا في المقابل من ينظر إلى الغرب نظرة احتقار وإقصاء، وهم يعتقدون أن مشكلاتنا داخلية بحتة، وبالتالي فإن من الممكن لنا أن ننشئ جزيرة الأحلام في قلب محيط يموج بالظلم والفساد!

الرؤيا الكلية تحل هذه الإشكالية من جهة فهم العلاقة بين الداخل والخارج، حيث إن التواصل الثقافي الكوني المتعاظم، قد جعل ما نسميه عوامل أو شؤوناً داخلية أموراً نسبية، حيث إن بإمكان قرار في أقصى الغرب أن يؤدي إلى جوع إنسان في أقصى الشرق. كما أن موجة من العواصف الثلجية تهب على أوروبا، تساعد صاحب مؤسسة في دولة نفطية على توفير فرصه عمل لأحد مواطنيه . . .

لا ريب أن للداخل فضاءاته المتميزة، كما أن للخارج نحو ذلك، لكن كلّاً منها محكوم بمؤثرات ومعايير عالمية، وتحركان في إطار شبكة علاقات دولية واسعة.

القرآن الكريم يوجهنا من خلال رؤيا العلاقات التفاعلية إلى الاقتصاد

في الحديث عن العوامل الخارجية؛ لأن الانشغال بها غير ذي جدوى، فيكتفى إدراك مدى فاعليتها وتأثيرها في شؤوننا الداخلية. أما ما يستحق كامل العناية والاهتمام، فهو ما يقع ضمن دوائر تأثيرنا، وفي هذا المعنى يقول - سبحانه - : «وَإِنْ تَصِرُّوا وَتَسْقُرُوا لَا يَغْنِرُكُمْ كِيدُهُمْ شَيْئًا»^(١).

بتحسين الداخل تغير نظرتنا للمؤثرات الخارجية، كما تغير نظرة من عشر على حصن منيع إلى لص يريد سرقته، حيث تفقد عوامل السيطرة الخارجية أهم مرتكزاتها، وهي رهبتنا لها. عندما نحسن أوضاعنا الداخلية يضعف تأثير العوامل الخارجية، كما يضعف تأثير جرثوم حين يغزو جسمًا عالي المناعة.

هذه الرؤية للعلاقة الجدلية بين الداخل والخارج فوق أنها رؤية موضوعية، تمنحنا خريطة فكرية جديدة لرؤية مجال المناورة، وإمكانات المدافعة.

١ ب - العلاقة بين الذات والموضوع، تعرضت في كثير من الأحيان للفهم المشوه، من خلال رؤية الذات فاعلة في الموضوع أو منفعة به.

أما رؤيتها فاعلة ومنفعة في آن واحد، فهذا ما كان يلتفه الغموض في أكثر الأحيان. وعلى سبيل المثال فقلما كان ينظر في الماضي إلى تأثير روح العصر وظروفه المختلفة في ظهور المبدعين والقيادات الفذة، فالموهاب والجهود الخاصة، هي التي كانت تستحوذ على التقدير والاهتمام؛ على حين أن الرؤية الكلية الحديثة تؤمن باشتراك الموهاب والقدرات الفردية وبنية المعتقدات مع الظروف السياسية والاقتصادية، وما تراكم من معارف وخبرات - في ظهور العباءة والنابحين.

فالعباءة يصنعون التاريخ، ويستفيدون من عطاءاته.

الخطاب الإصلاحي في الماضي عند المسلمين وعند غيرهم كان يركز

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٠.

ي،
حق
معنى
من
بطرة
خلية
بسمـا

رؤـية
نـات

حيـان
ـن فيـ
ـروحـ
ـواهـ
ـعلـىـ
ـوينـةـ
ـعارـفـ

ـيرـكـزـ

في معظم الأحوال على نهوض الإنسان بما عليه أن ينهض به دون الأخذ بعين الاعتبار مدى مساعدة الظروف المحيطة على القيام بذلك، وهذا ما انعكس لدى المسلمين على مجمل البناء الفقهي، فعلى حين كان (الفقه الفردي) يشكو من نوع من التضخم، كان (الفقه الاجتماعي) يشكو من العوز والضمور؛ وكما أن شروط نجاح المتكلم والداعية في دعوته نالت كل اهتمام، ظلت شروط استجابة المدعوين شبه مهملة.

أما الخطاب اليوم، فإنه عند حركات التحرر الوطني الحديثة يتوجه إلى عكس ذلك، حيث يتم التأكيد في كل مرة على ضرورة تغيير الظروف الموضوعية، وحين يتم ذلك فإن الناس سوف يتغيرون، فليس من المهم أن تخاطب عقلية الفرد، ولا أن تغير ما في نفسه، ولكن المهم أن توفر الشروط والظروف الجيدة للنمو المتكامل، وسيحدث بعد ذلك كل ما نرغب فيه!

أما الرؤية الجدلية، فهي رؤية تركيبية، تنطلق من ضرورة حرص الفرد على الارتقاء بذاته والقيام بواجبه، وضرورة توفير الدولة والمجتمع للبيئة التي تساعده على ذلك الارتقاء. فصلاح الشخص الممتاز في ظروف سيئة سيكون أقل من صلاحه في ظروف حسنة. وتمكن الأشخاص العاديين من الأداء الجيد في ظروف ممتازة سيكون أفضل بكثير من أدائهم في ظروف صعبة، وهكذا... \

٣ - من أركان الرؤية الكلية رؤية الأشياء من منظورات مختلفة، وزوايا متعددة، من أجل أن نحيط بجذورها ونتائجها. كثيراً ما يخلط الوعي في تصنيف بعض الأمور والأشياء: هل هذا الأمر كلي أو جزئي، هل هو سبب أو نتيجة، وهل هو هدف أو وسيلة؟ هل العلاقة بين فلان وفلان علاقة تعاون أو علاقة تنافس؟ هل نتائج هذا العمل إيجابية، أو هي نتائج سلبية؟ هل هذا الأمر صغير أو كبير؟ هل انهماكي في إتقان تخصص فرعى أفضل أو اشتغالى بقضية عامة تتعلق بحياة شريحة كبيرة من الناس...؟

أسئلة تتردد في أذهان جميع الناس في كل حين، وتكون الأجوبة عليها مختلفة. حين نملك رؤية ذات مستويات وزوايا واعتبارات متعددة، فإن كثيراً من هذه الإشكالات سوف يزول، وسنجد أن ما نظنه أبداً متنافسة ليس كذلك. ولنذكر بعض الأمثلة على ذلك:

- حين نبحث في مسائل التخلف الحضاري تصيبنا العيرة في تصنيف بعض الظواهر، هل هي أسباب أو هي نتائج؟ ظاهرة (المرض) إذا نظرنا إليها من زاوية وجدها سبباً، وإذا نظرنا إليها من زاوية ثانية وجدها نتيجة: فحين يمرض الفقير، فإن مرضه يكون سبباً في زيادة فقره، حيث يُبعده عن العمل، ويجعله ينفق كثيراً من القليل الذي في حوزته على علاج علته. وإذا نظرنا من زاوية أخرى وجذنا أن المرض مسبب عن الفقر؛ فالفقير لا يتغذى غذاء متوازناً، ووسائل السلامة في عمله تكون في العادة ضعيفة أو معدومة، وهو كثيراً ما يعرض نفسه للمرض، كما في حالة الفلاح الذي يسكن بالقرب من مواسيه ودوابه التي تحمل بعض الأمراض. كما أن أحياء الفقراء تكون في العادة مزدحمة، ومفتقرة إلى الخدمات الصحية، مما يسهل العدوى، وانتقال الأوبئة. وهكذا فالمرض سبب ونتيجة في آن واحد، ولكن حين ننظر إليه من أكثر من منظور.

- كثيراً ما نختلف في تصنيف بعض الأعمال والأشياء هل هي أهداف أو وسائل؟ ويطول بنا الجدل، والأخذ والرد؛ وحين نستخدم الرؤية الكلية نرى أن الشيء قد يكون هدفاً ووسيلة في آن واحد؛ فنحن حين نقوم بحملة تبرعات من أجل بناء مدرسة، فإن بناء المدرسة يكون هو هدف الحملة، لكن المدرسة نفسها هي وسيلة لتسهيل عملية التعليم. التعليم هدف لبناء المدرسة، وهو نفسه وسيلة لارتقاء بجوانب شخصية الطفل المختلفة. ويمكن القول: إن كل هدف صغير هو وسيلة إلى هدف أكبر منه.

- هل هذا الشيء صغير أو كبير، هل هو قيم أو تافه؟ سؤال نطرحه على أنفسنا وجوابه كثيراً ما يسبب إشكالات عديدة.

بها
فإن
نسة

يف
الرنا
ناها
يث
لاج
قر؟
عادة
حالة
من.
مات
تبجة

داف
كلية
حملة
ملة،
لبناء
لغة.

طرحه

في تصوري أن النظر إلى حجم الأشياء وتقديرها من خلاله كثيراً ما يكون خادعاً. وإذا نظرنا إلى الآثار المترتبة عليه، فإننا قد تكون نظراً إليه من زاوية أكثر دقة في التقويم:

حين ينقطع سلك صغير ذو ثمن بخس، ويؤدي انقطاعه إلى سقوط طائرة، يموت كل من عليها، فإن هذا الحدث لا يقُوَّم من اعتبار ثمن السلك، وإنما من النتائج الخطيرة المترتبة عليه.

تأخر ضابط كبير في نومه ساعة عن توقيته الأصلي شيء صغير وتابه، لكنه حين يؤدي إلى خسارة معركة بتمكين الخصم من توجيه الضربة الأولى، فإن ذلك التأخير لا يعدُّ حدثاً صغيراً.

في مجال العمل الإصلاحي تبنت بعض الجماعات والأحزاب والثورات فكرة التغيير الشامل، وهي فكرة شديدة الإغراء والجاذبية، وقد ولدت تلك الفكرة لدى أتباعها التعلق بالقضايا الكبيرة، والطموح إلى تحقيقها، والزهد في الإنجازات الصغيرة؛ لكن الذي يحدث أن كثيراً منها يجد أن وسائله قاصرة عن إحداث التغيير المنشود، أو أن الظروف ليست مواتية له، مما أدى إلى تعطيل طاقات أفرادها، حيث دخلوا في نفق معادلة مغلقة، هي: ما نريده غير ممكن، وما هو ممكِّن غير مرغوب فيه. وهذا الخطأ في المنهج يعد صغيراً جداً بالنسبة لما لديها من فضائل وإيجابيات، ولكن إذا نظرنا إلى النتائج التي تترتب عليه، فإنه خطأ يعد مرئياً.

- الكثافة السكانية بوصفها ظاهرة حضرية، يمكن أن ننظر إليها أيضاً من منظورين وأن نرى من كل منظور وجهاً مختلفاً عنها. الصحراء تقتضي سلوكاً معيناً، وتساعد على بناء علاقات معينة، كما أنها تبني فكراً منوطاً.

أما في المدن حيث التزاحم، وضيق المساحة التي يشغلها كل فرد وكل أسرة، فإن استقامة الحياة، تتطلب اكتشاف الغير وتقبليه، والاعتراف بوجود الاختلاف بين الناس، واحترام نمط حياة الآخرين، ومن ثم اعتبار القيود الاجتماعية شيئاً نسبياً، مع أهمية تعلم التعايش والتكييف والتسامح. وهذه السمات تبدو في مجملها إيجابية.

وإذا نظرنا إلى الكثافة السكانية من زاوية أخرى، وجدنا أن المدينة تشكل بوتقة هائلة لتهجين الأعراف والثقافات، إلى جانب أن الرقابة الاجتماعية فيها ضعيفة، مما يطلق العنان لظهور بعض السلوكات الخاطئة. أضف إلى هذا ضعف شعور الناس فيها بالهوية الشخصية، حيث يسود شعور غامض بالضالة.

وأخيراً وليس آخرأ، فإن الزحام الذي يشتد في المدن يوماً بعد يوم، يشير الكثير من المشاعر العدوانية، ومشاعر الضيق والتذمر من جراء الشعور باقتحام المجال الخاص الذي يرسمه كل واحد لنفسه.

وهكذا فالرؤى المتعددة، توفر نوعاً من التوازن العقلي والشعوري، وتحسن سوية المقارنة، مما يبعد الطريق في النهاية نحو (التنمية المتكاملة).

٤ - من مقتضيات الرؤية الكلية تحسّن الفرق بين المطلّق من الأفكار والنظم وبين النسبي منها؛ إذ إن جعل المطلّق نسبياً، أو جعل النسبي مطلقاً، قد يشوّش كل ما نملك من حساسيات ثقافية، فنفرض أشياء مطلقة، ونرضى لأنشياء نسبية، فنقبلها مع خصوصيتها الاجتماعية.

المنهج الرباني الذي أكرمنا الله - تعالى - به حدد لنا الأشياء القطعية التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص. ويتسنم ذروة تلك المطلّقات ما يُعرف من الدين بالضرورة، وهو ما يقترب العاجل في معرفته من العالم. وهي في جوهرها خارج نطاق الاجتهداد، مثل فرضية الصلاة والزكاة^(١)... وحرمة قتل النفس والربا والزنا... وقد يقع خلاف بين أهل العلم في بعض التطبيقات أو الجزئيات أو الشروط، مما يتصل بهذه المسائل، وهذا طبيعي؛ إذ إنه كلما اتجهنا نحو الحديث في الفرعيات، قلت الأدلة، وتشعب الرأي، واتسع مجال القول.

تشكل الأصول والمبادئ الكبرى والثوابت والأحكام القطعية الإطار

(١) سنفصل القول في هذا عند الحديث عن الوحدة والتنوع.

مدينة
رقابة
اطنة.
يسود
يوم،
شعور
وري،
ملة).
لأفكار
نسبي
أشياء

لقطيعية
بة تلك
معرفته
الصلة
من أهل
بهذه
عيات،

الإطار

العام الذي تدور في داخله كل الاجتهدات والأحكام الظنية والتفریعات والتفاصيل ذات الصحة النسبية والاحتمالية.

إن الآراء والأفكار والنظم التي نتجها بغية إصلاح شأننا العام، تحمل على نحو دائم طابع البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأنا فيها، فـ(الثقافة) التي تتشعب بها ليست مجموعة معلومات وأقوال، وإنما هي أنساق من النظم التي تحدد طريقة تفكيرنا، وتعاملنا مع كل ما حولنا. ونحن إذ نفكر في أمور سياسية أو اقتصادية...، لا نفكر في قضايا تمس حياتنا الثقافية فحسب، وإنما نفكر بوساطة حصيلتنا الثقافية بما يشوبها من اكتمال وتشويه وتحيز وموضوعية وقصور ورغبات... وهذا كله يؤدي في النهاية إلى أن ما نصدره من أحكام نسيبي الصواب، له من العلم، نحو مما له من الشك والظن. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن (عقلانية) الفرد كعقلانية المجتمع لا تتمتع بسمة الإطلاق، إذ إن كل بني البشر يملكون درجة من العقلانية، وتلك الدرجة متوقفة على نحو جوهري على مدى حيوية الثقافة وغناها وافتتاحها، وقبل ذلك الإطار العام الذي تشكلت فيه.

إن مما أضر بفهمنا لمسألة نسبية الصواب والخطأ في الأفكار أننا كثيراً ما ننزع الرأي من إطاره البنوي وبيئته الثقافية والاجتماعية، فيبدو كأنه يستمد صوابه من ذاته وقدرته على الإقناع، واقتئان الناس به. وهذا حرمانا من فهم المرتكزات العميقية له، ومن فهم البرمجة الثقافية التي وفرها المجتمع لصاحبها، وجعله وبالتالي أسيراً لها. إن الأمريكي مثلًا يستطيع أن يجد أكثر من مسوغ مقبول لغزو بلاده بلد آخر، لكنه ليس مستعداً لقبول أية حجة توسيع غزو بلد آخر لبلده!.

\ البدائيون الذين يعيشون في بيئات تشكوا من الفقر الثقافي بكل وجوهه ومستوياته، يميلون إلى البساطة في التفكير، وإصدار الأحكام القطعية، ورفض كل ما يخالف ما هم عليه؛ وذلك لأن بيئتهم، جعلت قدرتهم على المقارنة محدودة، كما أن ما يجول في عقولهم من دلالات أيضاً محدود.

أضف إلى كل ما سبق أن المجتمعات المتقدمة، تنص في تشريعاتها على حق المواطن في أن تناح له الفرصة للإطلاع على الحقيقة بكل أنواعها، لكن هذا من الناحية العملية غير ممكن، فكل فرد ينتح له في الواقع أن يعرف جزءاً صغيراً من الحقيقة، وعليه أن يعتمد على غيره في معرفة الباقي. وهذا يجعل نسبة الصواب أكثر وروداً.

نحن بحاجة اليوم إلى أن نتمتع برؤى كافية للأشياء أكثر من أي وقت مضى، وإلا خدعتنا الأقوال المنمقة والبهارج الكاذبة، وتحول هذا الطوفان من المعلومات من وسيلة إيضاح وتنوير، إلى وسيلة إرباك للذهن وتشتيت.

الروح النقدية:

النقد مظهر من مظاهر استيقاظ الوعي، فالحضارات حين تدخل في مرحلة التراجع والأفول، يسيطر على مثقفيها الانشغال ببيان الإنجازات التي حققها عظماؤها بدل البحث عن وسائل استعادة ما فقدوه، وتعويض ما فات.

/ يعني النقد وعي الوعي بذاته، وقدرته على تجاوز النماذج الشائعة، والعودة إلى الأصول والأهداف الكبرى في كل المسائل التي تحتاج إلى إعادة نظر.

ويعني النقد كذلك أن الوعي ما زال يحتفظ بطاقة التمنع على الاندماج في الموضوع، كما يعني أنه متحرر إلى حد ما من أنسنة البرمجة التي يهيئها الأعداء والعملاء والمنتفعون من وراء انتشار الفساد، وغياب موازين الحق والعدل.

أهمية النقد:

نحن بشر نُصيب ونخطئ؛ والجميع يعترف بذلك، لكن سلوكنا لا يترجم ذلك الاعتراف؛ فالذين يمارسون النقد يُلقون الكثير من المشكلات؛

يعانها
بكل
هـ في
هـ في
وقت
طفوان
يت.

ما دفع جل الناس إلى إيثار الصمت، وتجاوزه بعضهم إلى تزيين الخطأ وتلميعه، مما جعل المشكلات تتراكم، وتفرخ، وتصبح أشبه بأوبئة مستوطنة.

إن كثيراً من الأخطاء والخطايا التي نقع فيها، ليس مصدرها الجهل، وإنما مصدرها الهوى والرغبة في تحقيق المصالح الخاصة، مما يعني أن تكررها هو المتوقع، نظراً لديمومة أسبابها. والذي يساعد على التخفيف من تكرارها، هو الاستمرار في نقدها بشتى الوسائل وشتى الطرق؛ فالأخطاء لا تبدى دائمًا للعيان، ولا تتلبس بلباس واحد؛ مما يعني ضرورة الاستمرار في كشفها ومواجهتها.

ومن وجه آخر فإن أبنيةنا الفكرية ومقولاتنا الإصلاحية وملحوظاتنا النقدية، لا تحتفظ بقوتها وطفوها على سطح الوعي من غير رعاية وحياة وتدعيم؛ فالتجارب الحضارية للأمم، تدل بوضوح على أن البناء الفكري - على خلاف ما يبدو - بناء هش، ويمكن لما ترکمه حركة الزمان من تقاليد وعادات، وما تطوره من ثقافات أن يشوه أي بناء فكري مهملاً مهما كان في الأصل راسخاً وشامخاً.

والنقد هو الذي يجدد الأبنية الفكرية، حين ي sclلها، ويجعلها في حالة من التوهج والإشعاع. ولنا أن نذكر أنفسنا بأفول الإشارات الفكرية الرائعة التي كانت تضيء سماء الحياة الإسلامية في القرون الخمسة الأولى من تاريخ الإسلام، لما ساد التقليد، وحورب الجديد، وأخذت الأممية الأبجدية والفكرية تستعيد ما فقدته من أرض ونفوذ.

الكسل داء مستشر في الناس، ويغزو كل مفاصل حياتهم، فنحن ننجذب دائمًا إلى أن نؤدي جميع أعمالنا بالحد الأدنى المقبول من الجهد، على ما هو مشاهد في البلدان النامية اليوم؛ والنقد هو الذي يكشف عن قصور إنجازاتنا حين يحاكمها من خلال التنظير إلى النموذج الأصلي الذي كان ينبغي أن يتجسد فيها. ولك أن تقلب النظر في أحوال أمم الأرض

لترى أن أعلى مستويات الإنجاز، يتحقق حيث تتوفر محاسبة ومتابعة حقيقة، وحيث تفضح الانحرافات، ويكشف الغطاء عن الرزيف والتدليس.

إن انحباس الحركة الإصلاحية في كثير من بلاد المسلمين، يعود في جزء منه، إلى أن المكتبة الإسلامية تعج بعشرات الألوف من الكتب والرسائل التي يزج بها سنوياً، لكنها خالية - تقريباً - من الكتب التي تدل الإصلاحيين على مواطن الخلل والقصور في أعمالهم؛ والعجيب أن النقد الذاتي معدوم، والنقد الغيري مرفوض، وليس أمام من يتالم على الطاقات المشلولة، والإمكانات المهدرة سوى الثناء أو السكوت!

قد نجد بعض الرسائل التي توجه النقد إلى بعض الانحرافات العقدية أو الخلقية، لكن لا نكاد نجد كتاباً ممتازاً، يضع صاحبه أصبعه على العلل والأخطاء الخفية والقاتلة التي أدت إلى تشويه المركب العقلي للكثير من الأفراد والجماعات، وحرمت الأمة من عطائهم وحيويتهم. وقلما تجد كتاباً ينظر لكشف الفساد المتصل في السلوك، والبحث عن جذوره وقواعده الفكرية الأخلاقية، وكشف القوى الداعمة له، والمستفيدة منه.

إن النقد لا يحيا إلا بالنقـد، ومجادلة الفكرـة بالفـكرة، والطـرـيقـة بالطـرـيقـة؛ فالنـقد لا يـصحـحـ من خـلالـ حـركـتهـ وـتجـليـاتهـ جـوانـبـ حـياتـناـ فـحسبـ، وإنـماـ يـصـحـحـ ذاتـهـ فيـ المـقامـ الأولـ.

نماذج للمراجعة:

القصور البشري هو الذي يعطي المشروعية للنقد والمراجعة والتصحيح، ولذا فإن كل الإنجازات البشرية، وعلى كل المستويات، تظل قابلة للنقد، حيث جرت سُنة الله في الخلق أن تقوم مقارنة ما بين النظرية والتطبيق، ومن خلال النقد نحو الارتفاع بالتطبيق إلى مستوى النظرية، أو التعديل في النظرية نفسها.

ما دمنا نتحدث عن تجديد الوعي في المجال الفكري، فإني سأذكر

بعد . . . في تتب تدل لتقن فات

قدية عمل من كتاباً اعده

ريقة ياتنا

جعة نظرية ، أو

ما ذكر

هنا بعضاً مما أرى أنه بحاجة إلى شيء من الإضاءة، وهو في الحقيقة كثير، لكن أجزئه منه الآتي:

١ - كثيراً ما نشعر أن المجال الحيوي الصالح لحركتنا ضيق، ومملوء بالعقبات... والحقيقة أن هذا الشعور لا يحكي الواقع بمقدار ما يحكي انطباعاتنا عنه، وهذه الانطباعات، سببها ضعف الروح العملية لدينا، فنحن نمتلك قدرة على التنظير، وشهية للتخمين غير قابلة للاستنفاد. الخيال قد يتبع لنا ارتياح آفاق الممكن، لكن الذي يكشف احتياجات العمل والحركة، والعقبات التي تقف في طريقنا، وما يمكن أن نؤمله من تحركنا، هو العمل نفسه والحركة ذاتها.

إن العمل هو الذي يعقل جموح الخيال، وهو الذي يدلنا على الطرق المسدودة، إلى جانب أنه يحطم أغلال الأوهام. وهو في الوقت نفسه، الذي يفتح أبواباً للنمو والتغيير كنا نظن أنها مغلقة.

إن أجمل مبدأ في العمل، هو ذلك المبدأ القائل: «إذا عملنا ما هو ممكناً اليوم، صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً». وأمة الإسلام بحاجة ماسة إلى فضح زيف أحلام اليقظة التي تشبعت بها نفوس الكثير من أبنائنا، مع القليل جداً من العمل والبذل والتضحية!.

إن النقد لمثل هذه الحالة يجب أن يرفق بذكر الكثير من المشروعات العملية الصغيرة التي يمكن للمرء أن يتحققها بنفسه مهما كانت إمكاناته؛ ولعل كتابات المستقبل تتكلل بشيء من ذلك، بحول الله تعالى.

٢ - يقترب من موضوع تمثل المشروعات والمشكلات في الذهن دون الحد الأدنى من المباشرة لها، ما نلاحظه لدى كثيرين من الآخيار من الحماسة المشتعلة للقيام بالكثير من الأعمال الجيدة، لكن دون محاولة التأهل لأداء القليل منها. وكثيراً ما يغيب عن أذهاننا أن لكل عمل أسلوبه الفني الذي يجب أن يتبع في أدائه وتنفيذـه؛ ومن دون ذلك الأسلوب، فإن الحماسة له تشبه موقف أب يود أن يكون ابنه أحسن الناس في المستقبل، لكنه لا يملك الأسلوب الذي يربيه به التربية التي تجعله كذلك.

في بلاد الغرب ينظر الناس إلى إيجاد أسلوب العمل وإطاره ووسائله على أنه أهم من الحماسة المجردة له، ولا ريب أن أدائهم أفضل من أداء غيرهم.

إذا كان المرء وكيلًا لمصنوعات ألمانية، فإن من امتلاك أسلوب الأداء الجيد أن يلم بالألمانية.

وإذا وظف إنسان مديرًا لمشفى، فعليه أن يعرف شيئاً عن طبيعة الخطأ الطبي، وكيفية فض النزاع بين الأطباء والمرضى، وحدود الاجتهد المهنـي، والمسؤولية المهنية، ونحو ذلك.

إن مشكلة كثير منا أنه لم يدرك ما طرأ من تعقيد وصعوبة على شروط الأداء الناجح في أجواء المنافسة العالمية المحمومة، ولذا فإنه يتصور أن ما كان كافياً من كفاءة وأهلية ووسائل قبل نصف قرن، هو كافٍ الآن!

\ ٣ - العقلانية - كما أشرنا من قبل - شيء نسبي، وتجلياتها كثيرة جداً، كما أن سمات الرجل العقلاني أيضاً عديدة، لكن أود أن أشير إلى واحدة منها أراها مهمة للسياق الذي تتحدث فيه، وهي أن الرجل العقلاني يحاول دائماً أن يوفق بين درجة الشدة التي يستمسك بها في منطلقاته وأفكاره المختلفة، وبين حجم البراهين والأدلة المتوفرة لكل منطلق وكل فكرة.

وعلى هذا فإن (اللعلانية) تعني التمسك بأفكار لا تسندها البنية والمعطيات المعرفية القائمة. وإذا سلطنا الضوء على واقعنا وجدنا أن غلبة العاطفة علينا، وسيطرة سرعة التصديق وضمور ملكة النقد، وضيق مساحات المفاتحة والمصارحة... أن كل ذلك جعل الكثير من الناس، يندفعون على نحو متغير إلى استخراج نتائج عامة من معطيات جزئية، ثم السعي إلى إقناع الناس بها، مع أن المعطيات الجزئية، لا توفر إلا دلالات جزئية. وكثيراً ما يجري هذا في التحليلات السياسية والاقتصادية؛ فإذا ارتفع سعر سلعة من السلع لأمر ما - لا يهم! - فإن كثيرين يحاولون إقناعنا بأن موجة من الغلاء والتضخم ستحتاج البلد.

إذا عزل رئيس شركة أو حزب أو دولة أحد مساعديه، فهذا يعني أنه سيقوم بحملة تصفيات واسعة بكل من له علاقة بذلك المعزول وهكذا... . وتأتي الأيام لتثبت أن ذلك كان مجرد وهم، ولكن للأسف، فإننا غير قادرين على إعادة قراءة تحليلاتنا السابقة، ربما لأنه ليس لدينا الوقت الكافي لذلك! .

ونحن إلى جانب هذا مولعون بسن القوانين، وإطلاق التعريفات الجامعية المانعة - كما يقول المناطقة - دون وعي جيد بخطورة ذلك على طلاقة الخيال، وأنثره في إغلاق الأبواب المفتوحة. إن القانون عبارة عن تعميم بعض تصورات مرتبطة بمستقبل الأمة، بناء على مستخلصات من الماضي والواقع. والقانون يعالج ظواهر حياتية غاية في التعقيد والتدخل والمبيوعة، وهو على صلة بوقائع المستقبل، ولذا فإنه يجب الحذر كل الحذر عند صياغته. ولنحذر التراكيب والصياغات المحكمة النسج، فإن كثيراً منها لا يصدأ أمام النظر المتعمق، لكنها تمارس دور المخدر في إبعاد الوعي عن التحليل.

ولنا أن نعي أن انتشار الأمية في العالم الإسلامي في القرون الأخيرة - الوضع الآن طبعاً أفضل - قد أدى إلى تكوين بيئتين اجتماعية وثقافية ذات تفاعل شفوي لفظي، تتمحور فيها المواقف والعواطف إزاء مختلف الأمور والأحداث على المؤثرات اللغوية والمحسّنات البلاغية، وتقلل إلى حد بعيد من الاعتماد على المعطيات غير اللفظية التي تأتي في الأعم الأغلب من خلال التبصر في العالم الموضوعي للأشياء.

وقد آن لنا أن نغير اتجاه التفكير واستخلاص الأفكار إلى الحوار المباشر مع الحقائق والمضامين المعتمدة على الأرقام والإحصاءات والمعطيات المحسوسة، والبعيدة عن القوالب الشعرية والخطابية البراقة.

٤ - إن الله - جل وعلا - سنتا في النفوس والمجتمعات، كما أن له سنتا في الفلك والفيزياء والكيمياء؛ وتلك السنن تحكم طيابع الأشياء، وتوجه منطق تطورها؛ فالجمود محكوم بسنن، كما أن التغيير والتطور

محكوم أيضاً بسنن رباتية. هذه السنن يكتشفها من يبحث عنها، واكتشافها، لا يتم أبداً على نحو متусف ومبترس، وإنما يتم ضمن سياقات يبنيها الوعي، وتنميها الممارسة.

والتحدث عن تلك السنن التي اكتشفها غيرنا قليل الجدوى، بالنسبة إلينا، لأن وعيينا لم يدمج ما يترتب على تلك السنن من عمل وإحجام ضمن نماذجه ونظمها الخاصة، وبالتالي فإن تأثيرها في سلوكنا يظل محدوداً على الرغم من إيماننا بها. وهذا في تصوري تفسير قريب لقلة انتفاعنا بسنن الله - تعالى - الجارية والنافذة، فتصرفاتنا وسلوکاتنا ومواقفنا كثيراً ما تكون محكومة بميولنا ورغائبينا، وأحياناً بأوهامنا.

ومن المؤسف فوق ذلك أننا غير مهتمين بذلك الجهد في كشف السنن، والذي يأتي أساساً عن طريق (البحث العلمي) فالمسلمون أقل أمم الأرض اهتماماً بهذه القضية الحيوية. ويتجاوز الأمر ذلك إلى أن في داخل عقولنا نوعاً من البرمجة التي تحجبنا عن الابتهاج بالسنة المكتشفة، والتفاعل معها، وتغيير مقولاتنا وفق مقتضاهما؛ وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن بنية الفكرية لم تزل حقها من النمو والتضخم، إذ إن المهمة الأساسية للتفكير أن يهيئ النفوس لقبول التطورات الجديدة، وعدم الاستهانة بها أو تجاهلها.

٥ - إن من أكبر المشكلات التي يعاني منها وعيينا النقدي العلاقة بين الأفكار والأشخاص، والتدخل بين الذات والموضوع، ونظرأ لخطورة هذه العلاقة وتعقدها، فإن نبينا ﷺ كان حريصاً جداً على التأكيد على ضرورة الفصل بين هذين القطبين، فهو في ثيابه وجلوسه وطعامه وشرابه وسكنه مندمج في المسلمين، ويصعب على الغريب الوارد على المدينة أن يميزه عن أصحابه، ولذا فلم تخلع عليه حل الاحترام المبالغ فيه، أو التقديس الذي يقترب به من مقام الألوهية.

وإلى جانب هذا فإن سلوكه العام قد ألقى في روح أصحابه الفرق بين ما ي قوله بوصفه نبياً، يبلغ عن ربها، وما يقوله بوصفه اجتهاداً شخصياً؛ ولذا

ها،
بها
سبة
جام
لودا
اعنا
ما

يف
أمم
اخل
اعل
يدل
همة
نهانه
بين
هذه
روره
سكنه
جميزه
ليس

، بين
ولذا

فإن الحباب بن المنذر سأله النبي ﷺ يوم بدر عن الموقع الذي نزل فيه فأيّلاً: هل هذا منزل أنزلك الله إياه، أو هو الرأي وال الحرب والمكيدة؟ ولما أجابه بأن ذلك اجتهاد، وليس وحيًا، قال: يا رسول الله ليس هذا لك بمنزل.

والقرآن الكريم الذي نطق بسداد ما يبلغه النبي ﷺ وصدقه حين قال:
﴿وَمَا يَطِيقُ عَنِ الْمَوْىٰ إِنَّهُ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(۱)، هو نفسه الذي عاتبه علىأخذ فداء الأسرى، وعلى موقفه من ابن أم مكتوم... وذلك ليرسخ في نفوس المسلمين على مدار التاريخ أن المرء حين يجتهد فإنه معروض للصواب والخطأ.

كثيرون منا اليوم مسحوا كل احتمالات الخطأ والوهم والهوى والقصور الذاتي والخصوص للمصلحة، التي تحيط ببناء الرأي والمذهب والموقف، وانتهوا إلى أن المجتهد أو العظيم أو الألمعي أو الخبرير إذا أبدى رأياً، أو عمل عملاً، فينبغي أن يكون صواباً! وهذه الوضعية البائسة حملت كثيراً من الناس على الفهم المبister، وعلى التأويل المتعسف للنصوص والمعطيات العلمية، وتجاهل سنن الله - تعالى - في الخلق من أجل المحافظة على صورة شخص، ينظرون إليه بعين الاحترام والتقدير، أو يرتزقون مما يظهر أنه كذلك! وكانت النتيجة تضليل الرؤى المنهجية والحقائق العلمية والمدلولات الأخلاقية... على طريق منح العصمة لمن لا يستحقها، ولا يدعها. ويؤسفني القول: إن هذه الحالة أخذت تستوطن في بلاد المسلمين إلى درجة غريبة، لا تجرح كبراء العقل فحسب، وإنما تخدش صفاء التوحيد. على حين أن أممًا كثيرة تعمق الفصل بين الذات والموضوع، وتحاول تطوير العلاقة بينهما، لتكون أكثر ملاءمة للتقدم العقلي الذي حدث في هذا القرن.

(۱) سورة النجم: الآيات ۳، ۴.

لا أريد أن أوسع في ذكر هذه النماذج خشية التطويل، ونحن لا نقصد هنا إلى الاستقصاء، وإنما إلى لفت الانتباه.

بنية الطرح الفكري:

إن بنية طرحتنا الفكري، تحتاج دائماً إلى تجديد؛ حيث إن طبيعة اشتغال (الذهن) على المعلومات الواردة، ومعاولاته استخراج مستخلصات منها - كثيراً ما ترك آثاراً ضارة على المبادئ العامة التي في حوزته، وعلى منطقيته، وطلقة خياله... وهذا يعني أن المزيد من الأعمال لقوانين الذهنية، لا يعني اطراد تحسن مستوى تلك القوى بصورة عفوية؛ فالنكوص دائماً وارد. ولذا فإن من المهم جداً أن يظل علينا متىقيطاً للتغيرات التي تطرأ عليه، أي أن يحاول حماية نفسه من نفسه، ومن الواردات الخارجية عليه. وسألمس في هذا الباب شيئاً مما يخص هذا الأمر في الحروف التالية:

١ - الفلسفة والعلم:

الإنسان متلشوّق دائماً إلى إيجاد طريقة يسيطر من خلالها على الواقع، وعلى المفاهيم والرموز، والاتصال من خلالها بالماضي والمستقبل. وقد سلك في ذلك إلى الآن طريقين: الفلسفة والعلم، وهو يشعر أنه لا غنى له بأحدهما عن الآخر، وسنقدم هنا إضاءة يسيرة حول التعامل مع كل منهما:

العلم يهتم بالجزئيات والفرعيات، فم الموضوعاته تميل إلى أن تكون معارف منظمة، ومتراكمة، يتم تجميعها على نحو شبه معزول عن الأطر الحياتية العامة، على نحو ما نجده من عمل العلماء والباحثين في معاملتهم ومكتباتهم، فهم يسعون إلى النفاد إلى تكوينات أصغر، ويحرصون على تجزئة الموضوع من أجل المزيد من فهمه، والتعمق في معرفة مكوناته المختلفة. والعلم يسعى دائماً إلى التخلص من الخلاف في موضوعاته عن طريق صياغة القوانين والقواعد العلمية؛ ولذلك فإنه حين تكون لدينا قضية

هي موضع نظر وجدل وخلاف، فإنها لا تدخل في إطار العلم؛ لأن العلم ليس فيه مذاهب. وعلى هذا فالعلم يسعى دائماً إلى توفير اليقين، وهو في سيرورته ونموه يتوجه إلى الانفصال عن الأشخاص، فالحقائق العلمية ملك للجميع، وعلاقتها بمن اكتشفها علاقة تاريخية بحثة.

كلما زاد العلم تضاءل مجال الهوى والظن - على حين يتسع مجال التأmer، وتصبح إمكاناته أكبر - حيث يصبح التفاهم من خلال أمور مبلورة وواضحة.

فالحقائق العلمية أشبه بالأرقام والعملات الحرة، قابلة للتداول في أنحاء الأرض، دون أن يختلف الناس في تفسيرها. وتكتسب الحقائق العلمية صلابتها من أنها صماء عمياً، فهي قابلة للاستخدام في سياقات الخير وسيارات الشر؛ فأفاسن اللبىز دخلت عيادات الأطباء؛ لتكون وسيلة علاج لبني البشر، ودخلت مستودعات الجيوش؛ لتكون أدوات فتك بهم.

أما الفلسفة فإن مجالها الأساسي، هو بحث القضايا الكلية والمبادئ الكبرى والأهداف والغايات، وبناء الأطر والمسلمات العامة. الفلسفة أشبه بـ (الفن) تحمل السمات الإنسانية، وتقبل الخلاف والتفسيرات المتباعدة، وتحتمل الرؤى المذهبية. ولأنها تشتغل بقضايا كثيرة التشعبات والتفصيات، فإنها لا تمنحنا اليقين الذي نجده في العلم والمعرفة، لكنها توسع مدى الرؤية لدينا، وتفتح للتفكير مجالات النظر والجدل والموازنة.

قد ارتدت الفلسفة في القرون الإسلامية الأولى ثوب الانحراف والضلال بما حوتة من معتقدات فاسدة، ولذلك جفل الوعي الإسلامي منها، وزهد بها الناس، بل صار من يتسع في استخدام المقولات الفلسفية موضوع اتهام في عقidiته وسلوكه. وقد كان خطأً كثيراً من فلاسفة المسلمين أنهم أعملوا العقل في قضايا كبرى دون امتلاك الحساسية الكافية للالتزام بقطعييات الوحي، فاشتبوا في طروحاتهم، وخدعوا مسلمات في عقائد المسلمين، فأضروا بأنفسهم وبغيرهم. وقد كان بإمكانهم أن يقدموا للأمة

وللإنسانية خدمات جليلة لو أنهم تفلسفوا ضمن الإطار العام للمبادئ الإسلامية الكبرى، ومع أن ذلك حصل منهم في أحيان كثيرة، لكن لم يكن هناك التزام دائم به.

نحن بحاجة إلى الفلسفة بما هي خبرة بخطوات التفكير العلمي والحوار والجدل مع ظواهر الوجود، وبما هي فهم للأبعاد المختلفة للظاهرة الواحدة...

إن الإنسان البدائي، والقليل الحظ من المعرفة والتقدم العقلي عامة، ضعيف التجريد، وهو يميل إلى استخدام مفاهيم مستقاة على نحو مباشر من المواقف اليومية المعيشة. ولذلك فهو غير قادر على الاتصال الجيد بالماضي والمستقبل على نحو فعال ومحبّ، لأن ذلك لا يتم إلا عبر مفاهيم عالية التجريد، كما أن قدرته على النقد الذاتي، تظل محدودة؛ لأن ذلك يتطلب منه قدراً معيناً من تفكيك الموقف موضع النظر، وذلك التفكيك، يحتاج إلى عزل الذات عن الواقع المعيش، وهذا غير متيسر له، بسبب أن مفاهيمه مستمدّة من ذلك الواقع نفسه؛ وليس كذلك القادر على التفلسف.

العالم الآن يزداد تعقيداً وتداخلاً، والواقع يزداد تنوعاً وثراء، مما يعني أن العلم - مهما تطور - سيكون غير قادر على الاستقلال بتشييد البناء المعرفي للواحد منا، ولا بد من مساهمة الفلسفة فيه، إذ إنها تعمل عند نقص المعلومات، فهي تنشط حيث يكون هناك فراغ معلوماتي.

لا يمكن للإنسان أن يعمل بدون اتجاه أو ميل نحو شيء معين؛ والصحة العقلية لا تكتمل لدى الفرد، إلا إذا أدرك ما يقوم عليه سلوكه من عقائد، وما يوجهه من أهداف، وهذا كلّه مما يخدمه التفلسف.

إن الفلسفة تساعدنا بما توفره من رؤى كافية على رسم أهدافنا وتنسيق طاقاتنا، واستخدام قدراتنا في المجال الأمثل. إن العلم يوفر لنا القوة الغاشمة، لكن الفلسفة توفر لنا (الحكمة) التي بمقتضها نستخدم القوة، فيما نراه صالحأً لنا. وفلسفة التشريع، وعلم المقاصد، وما يشوب الأحكام من

بادئ
يكن
علملي
ظاهرة
عامة،
مبادر
الجيد
مفاهيم
ن ذلك
بكك،
بيب أن
سف.

ء، مما
بد البناء
مل عند

معين؟
لوكه من
ا وتنسيق
لنا القوة
نوة، فيما
حكام من

تعليل... كل ذلك يساعد على فهم الشريعة الغراء، ويساعد على تنزيلها على الواقع، وهذا من التفاسيف المحمود.

اتجاه الناس نحو الفلسفة، يتکائف بوتيرة متتصاعدة بسبب كثرة ما يوجد يومياً من أشياء وأحداث ونظم وظروف غير معلومة لنا؛ لكن المشكلة التي تحتاج إلى معالجة، هي أن كثيرين منا غير قادرین على التعامل الملائم مع المعطيات العلمية والمعطيات الفلسفية، فوعينا مرتبك في هذا الموضوع؛ ولو دققنا النظر في الجدل في قضایا تحكمها الفلسفة - كتحليل الأحداث التاريخية والجارية - لوجدنا أن ألف الساعات تهدى يومياً، حيث يسعى كل واحد من المحللين إلى إقناع الآخرين بتحليله؛ ولو عرف كل واحد منهم أن تحليله ليس أكثر من معطى فلسفی لاكتفى بعرض وجهة نظره، ووفر على نفسه وغيره وقتاً وعنة لا معنى له.

ومن وجہة ثانية فإن كثيرين منا يقفون من العلم موقفين سينين: الأول هو المجادلة العقيمية في حقائق ثابتة، انقطع فيها الجدل منذ وقت بعيد، فيهدرون بذلك أوقاتهم وأوقات غيرهم من غير أي ثمرة ترجى.

والثاني تلقى الحقائق العلمية المختلفة ببرودة وسلبية تامتين دون أي قدر من التفاسيف في التعامل معها، مع أن الحقيقة العلمية إذا لم نسلكها ضمن رؤيتنا العامة للحياة، ولم نشر بها نماذج ونظم تفكيرنا، فإنها تكون أشبه بقطعة أساسية في سيارة، نزعـت منها، وألقيـت في فـلاة، فلا يدرـي من يـعـثر عـلـيـها ماـذا يـعـمـل بـها، ولا كـيـف يـسـتفـيد مـنـها؟

٢ - الخيال الخصيـب:

إن التعامل مع ملكة الخيال، يشبه المشي على حبل مشدود، حيث إن علينا أن نملك أعلى درجات الدقة والحذر في التعامل معها...

الخيال هبة عظمى من الله - جل وعلا - فيه نتجاوز حدود خبراتنا، وبه نتجاوز إيقاع اللحظة الحاضرة، والنزوة الجامحة؛ وصدق من قال: «لولا الخيال لكان الإنسان بهيمة».

الخيال الخصب بحاجة دائمة إلى خبرة جيدة بالقضايا التي يتصل بها الشيء المتخيل. وحين تكون الخبرة ناقصة، فإن خيالنا يبدو كأنه قفزة في الهواء، وربما أثار الضحك لدى ذوي الخبرة الحسنة! لا بد للخيال أن يتمرس على سجن الخبرة، مهما كانت تامة وعميقة، ولكن عليه أن يبقى قريباً منها، وضمن مجالها، بمعنى آخر أن يكون ما تخيل حدوثه مرتكزاً على أساس موجودة فعلاً، أو يكون تطويراً لشيء موجود؛ فمقدار المسافة بين ما هو كائن، وما يمكن أن يكون يجب أن يخضع لمعطيات وإمكانات علمية معترف بها.

المعارف التي نمتلكها، والخبرات والمهارات التي بحوزتنا، ستظل عاجزة عن التعامل مع الواقع الجموح الذي نعيش فيه؛ وإذا لم يستخدم الخيال أجنحته فإن المعرفة التي في حوزتنا تختنق، وتتعرض للاختلاط والاضطراب. ومعظم إنجازات العلم الكبرى، ظلت مدينة لجرأة الخيال، واحتراق طرق التفكير القديمة.

إذا دققنا في واقعنا وجدنا تطرفاً شديداً لدى كثير من الناس في الخضوع للروح العملية؛ فالمهم لديهم إنجازات سريعة وجيدة؛ وقلما يتسائل هؤلاء عن حاجتهم إلى خيال خصيـب، يبحث في مدى إمكانية استمرار تلك الإنجازات، وفي كيفية توظيفها في خدمة أهداف أعلى، وفي مدى ملائمتها لما هو مطلوب. وهذه المشكلة تتضخم عادة عند أولئك الذين يعدون أنفسهم جنود تنفيذ، وعند أولئك الذين حققوا نجاحاً في أعمالهم عن طريق الخبرة المتراكمة والمعزولة عن أفق البحث العلمي.

٣ - ما بين الذكاء والعقل:

إنسان العصر الحديث مشرق الوجه، مظلم الروح، كثير الذكاء، قليل العقل.

وهذه مفارقات مزعجة، لا تتم عن نصيـج متزايد - كما قد يتـبادر - كما

لأن
يقي
ونكرا
مسافة
كانت

ستظل
تخدم
ختلاط
خيال،

س في
وقلما
إمكانية
، وفي
أولئك
احاً في
..

ء، قليل
بر - كما

لا تدل على أن وعيها بالصورة الكلية للوجود، بات على ما يرام. بما أن مقاييس الذكاء، تخضع في طرف منها للثقافة والمعرفة، فإن الحاصل أن إنسان اليوم أكثر ذكاء - على نحو إجمالي - من إنسان العصور السابقة.

العقل في عمق ثقافتنا لا يعني القدرة على الاكتشاف، بمقدار ما يعني طاقة جيدة على تحقيق التوازن الشخصي، وتوازن المرء مع بيته، إلى جانب انسجام سلوكه مع مبادئه وأهدافه. وبهذا المعنى فإن التقدم التقني المذهل الذي ينمو على نحو مطرد، لا يبرهن على وجود تقدم حقيقي مؤطر بالعقل والحكمة؛ وذلك لأن تجسيدات الذكاء ومنتجاته، لا تتصل بمفاهيم الاستقامة والانحراف والسعادة والشقاء، والحياة والموت؛ بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى ما هو أسوأ، حيث يتم تحديد المنطق والعقل من اعتبارات قبول كثير من المبادئ والأفكار، وصار الاهتمام منصبًا على مدى ما تتحققه من سد للحاجات، وتلبية للرغبات بقطع النظر عن أي اعتبار آخر! وهذا سبب لوعينا الإسلامي شروخاً في تمسكه ومنطقيته؛ فهو حائر بين مدلولات العقل التي يألفها، وبين تجسيدات الذكاء التي أخذت تشكل بيئة الإنسان الحديث. والمطلوب تنبية الناس إلى مخاطر انفلات الذكاء من ضوابط العقل ومتضيّبات التناسق العام، وهذا من مهام الدعاة والمفكرين والإعلاميين في المقام الأول.

٤ - المنطق والعاطفة:

عرف الأقدمون المنطق بأنه «علم يعصم الذهن من الواقع في الخطأ». وهذا التعريف يشير بوضوح إلى أن وظيفة المنطق الأساسية، هي وظيفة سلبية، حيث إنه يكشف عن الاستدلالات الباطلة، كما أنه يحدّرنا من عدم كفاية الأدلة التي نستخدمها في البرهنة على آرائنا؛ فهو إذن لا يفيد في الكشف عن الحقيقة، بمقدار ما يفيد في توقّي الخطأ؛ وهو بذلك ينمّي الروح النقدية أكثر من أي شيء آخر؛ لكن هذا كلّه لا ينفي أن المنطق يمكننا ببيان وصفي لطرق التفكير المنظمة والمحبّرة التي يمكن أن يستفيد منها من يرغب في ممارسة التفكير.

ولست أجد الحماسة هنا لبيان تلك الطرق، وتسلیط الضوء عليها، وإنما أريد أن أوضح أن كل ما تلقته البشرية من دروس عن التفكير المستقيم والتفكير الموجّح، لم يجعلها تقدم كثيراً في الوصول إلى اليقين، والتفریق بين القضايا الصحيحة والباطلة، وذلك يعود إلى أمرین: هشاشة البنی الفکریة لدى معظم الناس، وغلبة العواطف والأهواء عليهم.

فالعدو الأكبر للتفكير المنطقی، لا يتمثل في جهل قواعده وطريقه، وإنما بما يقع في عقول الناس من كسل ذهنی، وهوى، وخصوص العواطف، مهما تكون متحیزة وغير منطقیة.

وتاريخ الإنسان مملوء بالمواقف والتصیرات القائمة على الحلول الوسط والتسویات التصالحیة؛ كما أنه مملوء بالمواقف التي لا تخضع لأي معيار منطقی، فمديحنا لذواتنا، ودافعنا عن أخطاء أبنائنا وأصدقائنا، واختیارنا لما نملا به أوقات فراغنا... كل ذلك لا يخضع في أكثر الأحيان لأحكام العقل والمنطق، وإنما يخضع للرغبات والأحساس والمشاعر والمصالح، ويأتي العقل متأخراً ليضفي الصبغة المنطقية على ما نفعله. وثبت الأحوال المشاهدة كثرة أولئك الذين يتسبّبون بمعتقداتهم القديمة حتى عند شعورهم أنها فقدت أساسها المنطقی، وصارت مما ينبغي نبذه والتخلّي عنه. ولا أظن أننا نختلف أن للانفعالات والخيال من قوة التأثير في تشكيل أفکار الناس وميلهم ما يفوق بكثير المعلومات والطرح المنطقی؛ مما يؤكّد أن بني البشر مخلوقات عاطفية في المقام الأول.

وهكذا فتجدد الوعي يتطلّب أول ما يتطلّب أن يعرف الوعي على نفسه ومكوناته؛ والتحديات التي تواجهه، وأن يتتصف لذاته من ذاته، فإلى أي حد سيكون ذلك ممکناً؟.

لبيها،
نذكر
بقين،
شاشة

طريقه،
ضوء

حلول
مع لأي
دقائقنا،
الأحيان
مشاعر
نفعله.
مه حتى
والتخلي
تشكيل
ما يؤكّد

عي على
نه، فإلى

حول العلم والمعرفة

أهمية المعرفة:

إن ما ندركه، وما نشعر به، وما نرغب فيه، هو الذي يشكل وعينا. العنصر الأساسي من هذه الثلاثة في تنمية الوعي وتنظيمها هو (الإدراك).

\ قبل اختراع الكتابة كانت الأذن هي المنفذ الأساسي، وما زالت ذات أهمية بالغة، لكن بعد أن صار الكتاب، هو المستودع الرئيس للعلوم والمعارف، صار العين الدور الأهم في تلقّي المعرفة الراقية والمنظمة والمترابطة. إن الإمكانيات العقلية التي وهبها الله - تعالى - للناس شبه متساوية على مستوى الأمم، فليس هناك أمة مختصة بالنابهين، وأخرى مختصة بالأغبياء، لكن من الواضح أن هناك أممًا أفضل وعيًا من غيرها، وهذا في الحقيقة يعود في المقام الأول إلى المعرفة والخبرات التي يتعرض لها أبناؤها.

إذا أردت أن تعرف قيمة العلم في حياتنا، فتصور إنساناً مجرداً منه، ثم تأمل في نوعية تصرفاته وعلاقاته، وفي مهاراته وتعلّماته، وقدرته على الوعي بذاته وبما حوله؛ وأنذاك فستتجدد معاني التوحش والفوضى والعدوان والخرافة والكلالة، تسربل وجوده كله.

إن القراءة والكتابة، ومعاناة شؤون المعرفة، كانت موضع اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية على نحو مدهش؛ وحين نهضت الأمة، وقامت حضارة الإسلام الزاهية تحول مركز السلطة في حياة العرب من (القوة) إلى (المعرفة) أي من البهيمية إلى العقل، ومن الظلم إلى العدل، ومن الهمجية إلى النظام. وقد شاع ذلك بين الأمم، وصار معلماً من معالم حياة أمّة الإسلام.

\ يقول الأسباني (أديلارد) لابن أخيه: تعلمت من العرب شيئاً واحداً، يتلخص في: «إذا كانت القوة هي التي تقودك، فهذا معناه أنك دابة، يقودها رسن». فسبحان محول الأحوال! .

إذا وجدنا أمة تحتكم إلى القوة بدل المعرفة، فهذا يعني أنها أمّة جاهلة، أو شقيّة، لم تنتفع بما أنّاهَا الله من علم، وهي إلى جانب ذلك أمّة مزدوجة الشخصية؛ لأنّها تلقن أطفالها في المدارس أثيل القيم وأعلاها، لكنّها في حياتها العامة محكومة بالأهواء والشهوات وسلطان المنافع الشخصية ...

في عصرنا الحاضر أخذت منابع القوة، تحول مجاريها نحو مجرى ينبع واحد هو ينبوع (العلم)؛ بمعنى أن القوة العاشرة، لم يعد بإمكانها أن تتحقق ذاتها على نحو واضح ومقبول من غير (العلم)؛ إذ إن عليها أن تتخذ منه ظهيراً أو أساساً أو ستاراً، وهذا ضاعف من مشكلات الأمم التي لم تتنا من العلم إلا القليل، وجعلها هامش المناورة أمامها محدوداً.

المال في زماننا هذا هو المحور الرئيس الذي يدور حوله الكثير الكثير من مفردات التقدم المادي اليوم . العلم اليوم ليس شيئاً موازياً للمال - كما كان الشأن في الماضي ، وإنما هو مصدر للمال والثروات العظيمة ؛ فمن خلال التقدم المعرفي ، وتطبيقاته المذهلة ، تضاءلت مصادر الثروة الأخرى : الزراعة والرعى والثروات الطبيعية والجهد العضلي ... بل صار أداء هذه المصادر والأوعية على نحو جيد في تحسين نوعية الحياة مرتبطة بقيامتها على أساس علمية متينة .

يقول (ثورو) الاقتصادي الأمريكي المرموق: إن ثراء الأفراد والبلدان، لم يعد يعتمد على نفس العناصر التي كانت سائدة في السابق؛ ففي السابق كان توفر الموارد الاقتصادية أهم عنصر في المعادلة الاقتصادية؛ وفي القرن الحادي والعشرين ستتصبح قوة العمل والتعليم هما السلاح التنافسي الأول، ولن تعتمد الميزة التنافسية على ثروات الموارد الطبيعية؛ إذ إنه يعتقد على نحو عام أن الصناعات الرئيسية السبع للعقود القادمة هي (الإلكترونيات)

الدقائقية، والتقنية الحيوية، وصناعات المواد الجديدة، والطيران المدني، والاتصالات، وأجهزة (الروبوت) المزودة بأجهزة القطع والتشكيل، والحساب الآلية، والبرامج. وهذه كلها صناعات المقدرة العقلية. وأي منها يمكن القيام به في أي مكان على وجه الأرض. والموقع الذي ستقام فيه، يتوقف على من يستطيع تنظيم المقدرة العقلية من أجل السيطرة عليها. في القرن القادم ستكون الميزة التنافسية من صنع الإنسان.

إن المعرفة التي بحوزتنا هي الوسيط الذي ندرك من خلاله الوجود المادي والمعنوي، والواقع التاريخي والواقع المعيش. وهذا الوسيط يتم تطويره عبر الخبرة البشرية، وعبر الكشف والبحوث المتقدمة.

مشكلات العالم تزيد لأسباب عديدة، أي أن الواقع يتغير، وهو بتغييره يفرض علينا سلوكيات واستجابات جديدة، لكن إذا لم نطور معارفنا لتظل على صلة بما هو جديد ومتتطور، فإن ذلك سيعني أن الصورة التي نرسمها عن الوجود صورة متخلفة، وهذه في الحقيقة أعمق مشكلة يواجهها الوعي، وهو يحاول استخراج مستخلصات عما يجري في البيئة التي يعيش فيها.

اتساع العلوم والمعارف يسير على وتيرة متضاعدة؛ ويذكر بعض المغرمين بالتقديرات^(١)، أن تسعة أعشار العلماء الذين أنجبهم العالم في تاريخه ما زالوا أحياء بينما اليوم. وأشار بعضهم إلى أنه لو جمعت المعرفة في بداية الحياة على سطح الأرض حتى السنة الميلادية الأولى، فإنها تكون قد تضاعفت مرتين سنة ١٧٥٠، ثم ثمان مرات عام ١٩٥٠، ثم ست عشرة مرة عام ١٩٦٧؛ مما يعني أن الكم المعرفي، يتضاعف بصورة كبيرة في فترات قصيرة، قد لا تتعدي عشر سنوات.

(١) كل الأرقام المتعلقة بالبيئة والتقدم الحضاري والإنتاج المعرفي، تحتوي على مجازفات كبيرة، وهي في أفضل حالاتها، لا تعدو أن تكون مؤشرات يستأنس بها، ليس أكثر.

هذه الوضعية ذات مدلولات خطيرة، منها: أن القول القاطع في أمور كثيرة، بات يتطلب كمية كبيرة من المعلومات، كما أن اتخاذ قرار ما في أي مجال من المجالات، صار بحاجة إلى مراعاة معطيات كثيرة، وإلا كان مجهول النتائج. هذا كله يعني أن جهلنا يزيد مع أن المؤشرات السطحية، تشير إلى غير ذلك؛ وهذه الوضعية صارت مصدرًا للشعور بالغرور إلى جانب إظهار التعلم لدى أعداد كبيرة من الناس، وصار ما هو ملحوظ الآن ليس تعليم من لا يعرف، ولكن - قبل ذلك - إقناعه بأنه لا يعرف، وأنه مهما بذل من جهد في التعلم، فإنه سيظل قاصرًا عن القبض على ناصية المعرفة الكلية.

إلى جانب كل ما تقدم أضحتي من الضروري على الواحد منا أن يأخذ بعين الاعتبار - على نحو أكثر جدية - ما لا يعرفه مما يدخل في دائرة اختصاصه واهتمامه شأنه الخاص، وهذا في تصوري يكشف عن الحسن التقدي لدلي الواحد منا أكثر مما يكشفه تقديره لما يعرفه.

إن كثيراً من الجدل العقيم والخلافات المستطيلة في الزمان والمستعرضة في المكان، ما كان له أن ينتشر على هذه الصورة، لو لا كثرة الجهل، حيث تغيب القاعدة العلمية المشتركة، وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: «العلم نقطـة كثـرها الـجـاهـلـون». وروي عن الغزالـي أنه قال: «لو سـكتـ من لا يـعـلمـ لـسـقطـ الخـلـافـ»^(١).

ماذا سنقول بعد هذا وكثير من شبابنا معرض عن المعرفة الجيدة، ومنصرف إلى مشاهدة التلفاز والرياضة، وإذاقرأ قرأ كثيراً مما لا ينفعه، ولا ينهض بمستواه العقلي... مع أن التحديات الهائلة التي تواجه أمة الإسلام تتطلب الكثير من القراءة، وقبل ذلك الارتفاع بتنوعه ما نقرأ؟!

ومع كل هذا، فإن علينا أن نؤكد في كل مرة أن العلم ليس مطابقاً للعقل، ولا هو الدواء الذي سيساعدنا على التخلص من كل داء؛ فالفساد

(١) يعني كثيراً منه.

بور
أي
نان
به،
لب
بلبيم
من

ا أن
دائرة
حسن
مان
كثرة
ـ أنه
ـ سكت

ـ بيدة،
ـ ففعه،
ـ هـ أمة

ـ طابقاً
ـ الفساد

الإداري، والانحطاط الخلقي - مثلاً - كافيان لتدمير مجتمع بأكمله مع وجود الجامعات ومراكز البحوث. فالعلم - أيًا كان موضوعه - ما هو إلا أحد النظم المهمة التي تمنع المجتمع توازنه، لكنه إذا لم يكن مؤطراً بعقيدة صحيحة، ومتزامناً في عمله مع نظم سياسية وأخلاقية... جيدة، فإن قدرته على النهوض بالحياة، ستكون محدودة.

جوهر المعرفة:

الرؤية الإسلامية لـ (العلم) أنه - على نحو عام - وسيلة، وليس غاية في نفسه، وذلك ليس للاحتفاء بالأشياء العملية فحسب، ولكن لأن المعرفة التي لا ندري لماذا نكتسبها تفقد الكثير من معناها وفلسفتها وتماسكها، أي أن بنيتها نفسها تكون مشوهة حين تكون المعرفة عبارة عن وحدات منتظمة، فإنها تحفظ - ولا ريب - بشيء من قيمتها، فهي بمثابة قطع ذهبية، لكن إذا نجحنا في أن نستخرج منها رؤية متكاملة للحياة أو منهجاً متاماً للبحث والتحليل، فإنها تكون بمثابة منجم من الذهب.

وسأسلط الضوء على هذه القضية من خلال النقاط التالية:

- إن التاريخ لا يكرر نفسه لأسباب عده، لكن سنن الله - تعالى - التي مضت في الذين خلوا من قبل، تظل فاعلة ومهيمنة في حياة الناس اليوم وحياتهم غداً؛ مما يعني أن علينا ألا ننظر إلى أحداث الحياة على أنها أشتات من أنشطة البشر أو الوجود، ما دامت تخضع لنظام أعلى، ولنظم فرعية كثيرة.

إن بإمكاننا أن نستخلص مما يبدو أنه مجرد أحداث ووقائع وروايات قوانين تشكل لنا في النهاية رؤى كلية، تساعدنا على أن نعمق نظرتنا للوجود، كما تساعدنا على الوصول إلى المزيد من القوانين أيضاً.

من المؤسف حقاً أن نظام السرد الذي اتبع في كتابة تاريخنا، لم يظل أسلوباً في عرض أحداث التاريخ فحسب، وإنما تحول إلى أسلوب عام في

التعامل مع المعرفة، مما جعل المعارف عامل تشتيت للوعي بدل أن نملأه بها أصولاً للاستيعاب والمحاكمة.

عدم الاهتمام بكشف السنن التي تحكم حياتنا لم يؤد إلى عدم الاستفادة من تلك المعلومات في امتلاك منهج جيد للفهم فحسب، وإنما أدى أيضاً إلى سهولة تشويه المعلومات وتزويرها، والدس فيها. ويبعد أن ذلك كله نابع من عدم فهمنا لعلاقة المعرفة بالوعي.

إن مهمتنا أن نشكل من المعارف المتناثرة والمتراءكة التي نحصل عليها إطاراً علمياً، يساعد وعيانا على الكشف عن الحقائق، ولا سيما عند وجود معطيات ناقصة، أي الانتقال من مقدمات ناقصة إلى نتائج متناسبة ومقنعة، وهذا لن يتم إلا إذا أعطينا للتحليل والربط بين المعارف المختلفة جل اهتمامنا.

وبإمكان أسلوب في الاستيعاب، كالحوار والمناظرة أن يساعدنا كثيراً في هذا الباب.

من خلال الإطار العلمي والنظرة العلمية المدققة نستطيع أن نوظف الأنماط والنماذج العلمية في ارتياح آفاق المجهول والتخطيط للمستقبل.

٢ - إن التحدي الذي يواجه أمة الإسلام اليوم يتمثل في تحسين مستوى عطاءاتها وإنجازاتها في كل المجالات من أجل الارتقاء بمركزها الدولي العام، ومن أجل تأمين درجة من الاستغناء والاستقرار لمجتمعاتها.

وهذا يتطلب أولاً اكتشافاً للذات والإمكانات وأساليب العمل. وأداة ذلك هي المنهج العلمي الذي كوننا.

بوسع الإطار العلمي أن يساعدنا على تحويل معلوماتنا المختلفة إلى عناصر إنتاجية، تحسن نوعية الحياة. وهذا التحويل هو الذي يحول دون وجود ازدواجية في شخصية الأمة، تظهر من خلالها الفروق بين ما تعلم وما تعمل.

وليس ذلك فحسب، بل إن تحويل المعرفة إلى عناصر منتجة، قد

يكون أفضل واق من اشتغال المجتمع على عناصر تؤدي في النهاية إلى تحلله أو انفجاره. وهذا ما ألمسه في تجربتنا الحضارية العريضة؛ فعندما أخذت النهضة الإسلامية في الجمود والتراجع كانت القوى النافذة في المجتمع آنذاك، تدفع العلماء - مع ما يحملونه من معارف - للعيش على هامش الحياة، فحجب نور العلم عن توجيه الحياة الاجتماعية؛ مما جعل المجتمعات المسلمة آنذاك تعاني من الخراقة والركود والتحلل والتعانف.

إن علينا أن نتساءل دائماً ما قيمة ما نحمله من معارف، وما نصوغه من مناهج إذا لم ينعكس على أسلوب حياتنا وتعاملنا ببعض؟!

إن حاجتنا إلى الابتكار في إدارة مجتمعاتنا، وحل مشكلاتها، وتوجيه طاقاتها على النحو الذي يحقق فلاحها وسعادتها - لا تقل في حال من الأحوال عن الحاجة إلى الابتكار الفني والتقني. وأعتقد أن ما لدينا من مشكلات اجتماعية واقتصادية كافية على نحو واف لتحريرك ما في عقولنا، وتججير ما في نفوسنا من إمكانات وقدرات إذا استطعنا توفير بعض الشروط.

٣ - إذا استطعنا التوصل إلى بعض المقولات والمستخلصات المعرفية، فإن علينا أن تكون على وعي بأن ما نصل إليه من ذلك، لا يحمل في ذاته كل عوامل صدقه ونجاحه وقدرته على إصلاح حال الناس، فهناك دائماً عوامل خارجة عن طبيعة النظام المعرفي، وتلك العوامل، هي التي تحدد مدى فاعلية ذلك النظام. عقيدة الأمة ومبادئها الكبرى، وعلاقتها الراسخة، ومفاهيمها الأساسية، هي التي تتحكم في هضم الأمة للمعارات الجديدة، وهي التي تحدد درجة حساسية المجتمع نحوها؛ وعلى سبيل المثال فإن الأطر المعرفية التي تمجد النجاح الدنيوي، وتتناسى النجاح الأخرى، لا تستطيع أن تلامس البنية العميقية لذاتية الأمة، كما لا تستطيع أن تستثمر طاقاتها للنهوض وبذل الجهد الفائق. والمعلومات التي تتعلق حصول السعادة على تضخيم الاستقلالية والفردية سترفض، لأن الصلات الاجتماعية لدى المسلمين متينة وأسرة وهكذا...

إذا اتضح هذا فإنه يمكن القول: إن كل الأفكار الإصلاحية التي استعيرت من خارج المنظومة الفكرية والمعرفية الإسلامية، لم تستطع تقديم الكثير، بل أوجدت انقساماً في وعي الأمة، وأثارت مشاعر الإحباط.

إن المقوله الواحدة تكون ذات وقع متعدد بحسب النظام الرمزي للذين يتلقونها، وبحسب ملائمتها لمجمل الركائز والبني الثقافية المتجددة في مجتمعاتهم، ويجب أن يؤخذ هذا بعين الاعتبار.

المعرفة المعاصرة:

ليس المقصود بالمعرفة المعاصرة، تلك المعارف التي أنتجت في العصر الحديث، وإنما المقصود ذلك اللون من المعرفة الذي يفرض العيش في هذا الزمان توفره وتسلحتنا به.

إن معرفة المسلم بأمور دينه، ومشكلات أمنه، إلى جانب الإمام بشيء من تاريخها، وبعض المقدمات التي تحتاجها للرقى والنهوض إن هذا كله مطلوب توفره في كل عصر؛ لأنه يشكل الأطر التي تتفاعل فيها كل المفردات المعرفية، التي سنكتسبها على الصعد المختلفة. ولذا فإن من الممكن أن نرى أشخاصاً منغمسين في المعطيات العلمية إلى آذانهم، لكننا لا نعد ثقافتهم معاصرة، وذلك لأن المعلومات التي لا نستطيع دمجها في أصول ومبادئ ونظم ونماذج عامة، تظل مشتبة، وأيضاً قاصرة، لأنها آنذاك لا تجدد سوى جزء يسير من الوعي. وفي المقابل فقد نجد من يملك ثقافة شرعية وتاريخية ممتازة، لكن بعده عن فقه تحديات الواقع ومتطلباته جعله قاصراً عن توظيف ذخيرته العلمية، كما جعله معزولاً عن التأثير الملائم في أبناء عصره، وعن تصريف شأنه الخاص على الوجه الأمثل.

ويبدو على نحو عام أن في البرمجة الجينية للبشرية ميلاً حاداً إلى التطرف، فنحن نرى - على الصعيد المعرفي - من يميل ميلاً شديداً إلى التخصص، حيث يستغرق جهده ووقته وطاقته؛ على حين نرى أقواماً لا يحصون عدداً، يقرؤون كل ما يقع تحت أيديهم دون أن يوجهوا عنایتهم

التي
تقديم

برمزي
تجذرة

ت في
العيش

الإمام
إن هذا
بها كل
فإن من
، لكننا
جهما في
ها آنذاك
ك ثقافة
نه جعله
لائم في

حاداً إلى
ديداً إلى
أقواماً لا
عناتهم

إلى شيء خاص، يتمكنون مع الأيام من إثراه وتطويره والإضافة إليه. لا ريب أنه لا يمكن تطوير أي علم من غير إفراغ الجهد فيه من قبل حشد كبير من العلماء، لكن حياتنا المعاصرة، لا تتطلب التقدم العلمي والتقني والاقتصادي فحسب، بل صار من الصعب اليوم الاقتناع بأن النمو الاقتصادي والتقدم التقني، يمثلان هدفين واضحين ومستقلين بذاتهما؛ لكن يبدو أن لذة الاكتشاف والإبداع التي يجدها المشتغلون بالبحث العلمي، تغريهم بالانزدال عن العالم الخارجي؛ وكلما زاد انزعالهم صارت عودتهم إلى التفكير بالشؤون العامة أصعب.

الإغراء في التخصص، وفي الأعمال البحثية، أفرز مشكلات عدة، منها أن المشتغل بالتخصص يجد نفسه كلما تقدم به الزمن منهمكاً في أمور فرعية، وهذه الأمور الفرعية - ولا سيما في المجال الإنساني - تكون في العادة خارج نظام تحديات الواقع وعلاجاته، والذي يتطلب عادة طروحاً ورؤى أكثر عمومية وأرحب أطراً. أضف إلى هذا أن البحث في الأمور الفرعية، لا يؤدي - في الغالب - إلى إحداث تطورات مثيرة في التخصص. فالتطورات الكبرى رهن بمعالجة أسس العلم وفلسفته. والغارقون في المسائل الدقيقة، لا يكونون في العادة مهينين ذهنياً للتفكير في القضايا الكبرى في تخصصاتهم.

العزلة التي يعنيها المتخصصون ليست اجتماعية فحسب، وإنما هناك عزلة معرفية عن باقي فروع العلم. والذي يفعل ذلك يتجاهل وحدة المعرفة وتدخلاتها والإمكانية الهائلة للتقدم العلمي التي يمكن أن توفر عن طريق الانفتاح على العلوم الأخرى.

ولست أدري كيف يمكن فهم علم ما دون فهم تاريخه، ودون نظرة فاحصة للعلوم المتعلقة به، وهل يمكن لعالم الاجتماع مثلًا أن يتجاهل المعطيات العلمية المستجدة على صعيد علوم الإنسان والنفس والتاريخ والاقتصاد والسياسة؟

أضف إلى كل ما سبق أن المشاكل الأساسية التي تواجه البشرية، هي مشاكل خلقية واجتماعية في المقام الأول؛ والشأن الاجتماعي نسيج جاء كل خيط منه من بيت، ولا بد لمعالجته من مشاركة عامة وفعالة من كل القوى الثقافية، وإلا عبث فيه العابثون والفاشيون والاستغلاليون... .

أما الذين يقرؤون في كل علم دون هدف محدد، فإن مشكلتهم متعددة الرؤوس، فهم أولاً لا يجدون معنى للقراءة المكثفة والمستمرة ما دام ليس هناك هدف محدد، يسعون إلى تحقيقه من وراء نشاط القراءة. ثم إن رؤيتهم للأشياء تظل متشظية، وكثيراً ما يقعون ضحية لآراء شاذة، اطلعوا عليها؛ فعدم تنسيق نشاطهم التعليمي، يحرّمهم من المقارنة بين الآراء المتعددة في المسألة الواحدة. وبعد هذا وذلك فإن هذا النوع من الاطلاع، لا يفيدهم في تطوير مركبهم العقلي، ولا في بلورة نماذج فكرية خاصة.

وعلى هذا فالمعرفة المطلوبة اليوم معرفة متخصصة، لكنها منفتحة على الشأن الاجتماعي، ومنفتحة على التخصصات الأخرى، وكلما كان التخصص أقرب إلى ما نهتم به، كان الانفتاح عليه أوجب.

إن عصرنا هذا عصر كل ما فيه مصنوع ومخطط ومبرمج، ولذا فإن المشكلات التي نعيش فيها ليست مفرزات طبيعية لاجتماع الناس بعضهم مع بعض، ولا لأهواء الناس وحرصهم على مصالحهم الخاصة فحسب، وإنما هي - إلى جانب ذلك - نتائج ما يحاكم من خطط ومؤامرات يديرها الأقوياء من أجل مزيد من الاستعباد للضعفاء، وهذا يعني أن مواجهة تلك المشكلات، ينبغي أن تتم على أساس علمية؛ إذ لا يُفلِّ الحديد إلا الحديد. وفي هذا الصدد نجد من يتكلم عن مؤامرات اليهود ودسائسهم، ومن يتحدث عن هيمنة الغرب على العالم دون إيجاد أي مركز مرموق يخصص دراساته لكشف تلك المؤامرات، والبحث في أسباب قوة الغرب أو قوة اليهود. والسلاح الذي تستخدeme في كل يوم هو الشجب والعويل

هي كل رى هم ما نم نة، بين ترية حنة كان فإن ا مع إنما نوبياء تلك ، إلا ، هم، بمق غرب موبيل

ومر الشكوى . وببعضنا يرى أننا لن نجد طريراً للخلاص إلا عبر انهيار الغرب ، فيجعل دينه الحديث عن ذلك ! .

حتى تكون معارفنا معاصرة وذات أثر في تغيير واقعنا ، فإن عليها أن تكون ثرية بالرؤى والمفاهيم والطروحات التي تعالج ما طرأ على حياة الناس عندنا من تغيرات جذرية ومشكلات مستفحلة بسبب الانتقال من حياة البدائية وحياة الريف إلى المدن المليونية الآخذة في التضخم ، إلى جانب معالجة المشكلات الناجمة عن التطور التقني المذهل الذي خلط العالم بعضه ببعض ، وفكك الكثير من الثقافات المحلية ، والسياسات التربوية والاجتماعية . وأعتقد أننا بحاجة ماسة إلى نشر المعارف التي توضح حدود الحلال والحرام ، كما توضح مقومات الشخصية الإسلامية ، وتدل الناس على سبل المحافظة عليها . وذلك وحده لن يكون كافياً في مواجهة السهل المتدقق من الأزمات ، بل لا بد أن ننمي كل المفاهيم والأفكار والمعارف التي تساعد الشباب على الشعور بالمسؤولية ، وتلك التي تحفز فيهم روح المبادرة الشخصية ، إلى جانب تعزيز الاتزان الداخلي والذكاء المبدع .

كل ما ذكرناه مشروط بأن نتعلم كيف نقرأ القراءة المثمرة ، وأن نتعلم مع هذا وذلك كيف نزيد رصيدها من المفاهيم المتعلقة بالنهوض الحضاري .
ولا بد مع هذا وذلك أن نطلق أكبر قدر ممكن من مبادرات (الميثاقية) والحوارات ، فالآفكار لا تنضج إذا لم تلُكها ألسنة المناظرة ، وإذا لم تتسلط عليها أنوار المراجعة والنقد .

حول الأخلاق والقيم^(١)

إذا كان وعي الإنسان عرضة للكثير من التغير، فإن جوهره أقرب إلى أن يكون ثابتاً؛ وذلك الجوهر ذو مطالب أساسية، لا يُتنازل عنها في حالة من الأحوال؛ لكن الوعي قد يدفع بتلك المطالب إلى الصنوف الخلفية، وهي إذ تصبح هناك تنتظر الفرصة المواتية، لتعود إلى المقدمة، وتمارس ضغوطها من جديد. والذي يتأمل في أحوال الأمم والأفراد، يجد أنه لا يتم أبداً التخلّي عن أية قيمة أو أي خلق من الأخلاق تخلّياً تاماً - وإن ظهر عكس ذلك - فهناك مد وجذب في الاهتمام بخلق ما، وإن شئت فقل: هناك تغيير شبه مستمر في سلسلة القيم بحسب المعتقد والتربية والثقافة والتقاليد، والظروف التي يمر بها الفرد أو المجتمع؛ ولذا فإننا - مع الأسف - بتنا نلمس في حياتنا العامة دورات أخلاقية، تشبه الدورات الاقتصادية، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن هناك صراعاً رهيباً وصامتاً تخوضه الأمم للدفاع عن مطالب روحها وحياتها، ولو لا ذلك لانتهى الوجود المعنوي لبني البشر، وهذا يعني نهاية الحياة برمتها.

هناك افتتاح متزايد بأن الصحة البدنية التي حصل عليها البشر، لم توأكها صحة روحية، بل إن الروح تراجعت، وأخذت تص محل، وصار من الواجب عمل شيء لصلاح هذا الخلل. كان بإمكان المواهب العقلية

(١) يمكن تعريف القيم بأنها عبارة عن تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية معتمدة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط المختلفة.

أما الأخلاق فهي أحكام قيمة تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن والقبح. وعلى هذا فالقيم أوسع دلالة من الأخلاق.

المتألقة والاكتشافات العلمية المتنامية أن تدعم الوجود المعنوي للناس، لكن مما يؤسف له أنها سمت منابع الإيمان، وشوّهت صورة الدين في وعي معظم الناس، ولم يحدث ذلك بسبب التناحر بين العلم والدين، ولكن بسبب ظن كثير من العلماء بأن المزيد من التقدم التقني وامتلاك (النظرة العلمية) في التعامل مع الأشياء، سوف يحل مشاكل الإنسان، ويغنه عن البحث فيما وراء المادة. وقد ساد هذا الاعتقاد طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لكن الأحداث الهائلة التي وقعت في القرن العشرين (وآخرها مذابح مسلمي كوسوفا والشيشان) جعلت الكثيرين من عقلاه الغرب والشرق، يعيدون النظر في ذلك، وبدأنا نسمع هنا وهناك بعض الأصوات التي تنادي بضرورة إعادة القيم الروحية والخلقية إلى مكانها الطبيعي في تسيير دفة الحياة؛ حتى لا يقودنا الاستسلام الأعمى للماديات إلى دمار بات مائلاً للعبان.

التدهور في تماسك الشخصية الذي نلمسه أينما توجهنا، سببه عدم نمو الروح وتقدمها، مما أدى إلى فقدنا فضيلة سمو الذات، وترفعها الصغار والسفاسف.

وعي الناس بحاجاتهم الروحية والخلقية، بدأ يتحسن نتيجة الشعور بانسداد الآفاق أمامهم، وصار كثير من يملكون ناصية المعرفة، لا يتساءلون على نحو جوهري عن كيفية تحقيق احتياجات الإنسان من المأكل والملبس والمسكن والتعليم، وإنما عن كيفية الوصول إلى تفسير ذي مغزى للتجربة الإنسانية، فالناس يرغبون في إضفاء المعنى على ما يحدث لهم؛ وهناك اعتقاد بأن اكتشاف أنظمة المعنى المتصلة بالجوهر الإنساني، سيجعلنا قادرین على تلمس التوازن الأعمق لوجودنا الكلي، وحين يحدث ذلك، فإنه سيحظى بأوسع قبول اجتماعي، كما أنه سيحل مشكلات كثيرة، لم يجد لها البشر إلى الآن أي حل.

وبعد هذا وذاك يمكن القول: إن التبدل الجوهري الذي حدث في موضوع القيم هو في الأساس الذي تقوم عليه القيم: هل هو مرجعية دينية،

الم
ما
لاغ
فالو
بالا
جاء
عائمة
كل
آخر
الأه
تس
الله
نكر
للإ
وم
وفقا
لن
٢
—
(1)

أو هو أساس عقلي، أو هو مشروعية اجتماعية؟ وهذا ذو أهمية بالغة في هذه المسألة؛ لأن الإطار المرجعي للأخلاق والقيم لا يشكل جهة الإلزام فحسب، وإنما يحدد طرق التربية، وتكوين الشعور الأخلاقي فيها، أو ما يسمى بـ(الضمير). ومن الواضح أن الإطار المرجعي في الحضارة المادية الحديثة هو مزيج من أحكام العقل، ومحضلات الخبرة، وتواططات المجتمع. أما عند المسلمين فإن الإطار المرجعي - على نحو عام - يستمد تكوينه من الوحي على ما هو معروف.

وقد بدأ بعض الغربيين يدرك هشاشة الإطار العقلي والاجتماعي، وإمكانية شطبه، وتجاوزه؛ ولا سيما عندما تضعف سلطات الدولة، أو يتعرض المجتمع لأزمات حادة. الأخلاق إذن لم تتطور، لكن هناك شعور بالحاجة إلى نوع من التوظيف المبصر للقيم والأخلاق التي نؤمن بها في حركة الحياة؛ لستمد من تجلياتها المتتجدد ألقها وحيويتها.

إن تحسين وعيينا بمسائل الحياة الروحية والنمو الأخلاقي، يتطلب تسلیط الضوء على بعض الأخلاق النظرية والقيم العملية، والمشكلات التي تسبب الازدواجية الأخلاقية في الحياة العامة، وسنحاول ذلك في الآتي:

الإيمان اكتشاف للذات:

أعظم قيم الوجود، وأساس كل القيم، هو الإيمان بالله - تعالى - الإيمان الذي يدخل صاحبه في دائرة الملة الحنيفة. ونظرة المسلم إلى الإيمان تختلف عن نظرة أصحاب الملل الأخرى، لأنه يعني بالنسبة إليه عقد استسلام الله، وعقد التزام بأمره، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ وهذا هو بالضبط الذي يجعل من الإيمان إطاراً مرجعياً لكل القيم والأخلاق والمعايير التي تشكل رؤى المسلم وسلوكياته المختلفة.

الإيمان ليس معلومات عن الله - تعالى - ورسوله واليوم الآخر... يخترنها المسلم في ذاكراته فحسب، وإنما هو بلورة لمنظور يكتشف المسلم من خلاله نفسه، كما يكتشف واجباته ومصيره وإنجازاته وأزماته.

لغة في
الإلزام ،
أو ما
المادية جتمع .
يستمد
نماعي ،
رلة ، أو
شعور
بها في

يتطلب
ت التي
لي :

تعالي -
سلم إلى
سبة إليه
، معنى ؛
الأخلاق

خر . . .
المسلم

إن الإيمان حين يتمكن في القلب ، وتنعم به الروح يُحدث في كيان المسلم ما يشبه الزلزال ، حيث يعيد صياغته على نحو مختلف كلباً . وهذا ما حدث لسحرة فرعون ، فإنهم كانوا يستخرون كل إمكاناتهم وخبراتهم لأغراض دينية ، أشرفها (الارتزاق) من وراء أعمالهم : « وَجَاءَ السَّحَرَةُ فَرَعَوْنَ قَالُوا إِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُنَاهَّذِينَ »^(١) . وحين أكرمههم الله بالإيمان ، وتلقوا التهديد القاسي من فرعون أجابوا بقولهم : « لَنْ نُؤْفِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَأَقْضِنَا مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا مَمْنُونٌ إِنَّمَا يُغَفَّرُ لَنَا خَطَّابُنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْبَشَرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَنْتَقُولُ »^(٢) . من خلال الإيمان يكتشف المسلم قيمته الحقيقية ، فتعظم ذاته ، وتهون كل الأشياء الأخرى لديه بما فيها الحياة الدنيا نفسها . ويكتشف من وجه آخر ضالته أمام ربه - جل وعلا - فيتخلص من مشاعر الكبر والأنانية ويرى الأمور على حقيقتها ، كما هي دون تلوين ولا تزيين .

إن الشيء الذي يكاد يعادل صفاء العقيدة ونقائها هو فاعليتها في تسخير كل إمكاناتنا من أجل ما نؤمن أنه حق وخير؛ وقد قال أحدهم: « الكل امرئ دينان: دين معلن ودين حقيقي؛ ودينك الحقيقي هو الذي تكسر حيالك من أجله»!

إن وعي كثير من المسلمين اليوم مغيب عن هذه الوظيفة الجوهرية للإيمان ، وذلك بسبب سيطرة التقاليد والبرمجة البيئية على مفاهيمنا ومشاعرنا ، حيث إن تناول معظم الناس لمسألة الإيمان والالتزام - عامة - يتم وفق ما هو سائد في مجتمعاتهم؛ مما يعني أن ملامسة جوهر الإيمان وحقيقة لن تتم إلا من خلال انتفاضة كبرى للوعي ، تعيد الأمور إلى نصابها .

٢ - الهوية فيض متعدد:

يمكن أن نعرف الهوية بأنها: «مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص

(١) سورة الأعراف: الآية ١١٣ .

(٢) سورة طه: الآيات ٧٢، ٧٣ .

والترميزات التي تجعل أمة ما تشعر بمعايرتها للأمم الأخرى». الإسلام بعقائده وأركانه وأحكامه القطعية، يشكل أساس الهوية الإسلامية، كما يشكل الإطار العام لحدود تجديد الهوية وإعادة إنتاجها. وللروافد التاريخية والجغرافية واللغوية والجمالية والثقافية المختلفة دور مهم في بناء الهوية، وتمكن أصحابها من وعي ذاتهم، ووجوه المفارقة التي تميزهم عن غيرهم.

تعرف الأمم والأفراد على هويتهم الخاصة يعني وعيهم بذاتهم، كما يحدد موقعهم بين الأمم، ويساعدهم على تحديد أهدافهم، وبلوره مشكلاتهم؛ فالأعمال الحضارية الكبرى، لا يتم إنجازها إلا من خلال تعرف الأمة على واقعها وموقعها، وعلى الحالة التي تهدف إلى أن تكون عليها.

هناك موقفان متطرفان من مسألة الهوية:
الأول موقف يرى في الهوية معطى جاهزاً ثابتاً، توارثه الأجيال دون أن تنقص منه، أو تضيف إليه شيئاً؛ فهي أقرب إلى أن تكون (ماركة مسجلة)، فلا تغيير ولا تبدل فيها.

وكان هذا الفريق متاثر بالمنطق اليوناني الذي يرى في هوية الشيء ماهيته وذاته الثابتة. ولذا فإن هذا الفريق، لا يطلب من الناس أي جهد في تحقيق الهوية وبلورتها، وإنما يطلب منهم الإيمان بها فحسب. وهم بذلك يعزلون هوية الأمة عن سياقها التاريخي والاجتماعي، و يجعلون مدلولاتها ورمزياتها وتجلياتها معزولة عن الجهد البشري على صعيد البناء الذاتي، وعلى صعيد الصراع مع الآخر المخالف والمعادي. وهذه الرؤية تغلب على توجه الخطاب الإسلامي المعاصر.

الموقف المتطرف الثاني، يتجلّى في النظر إلى (الهوية) على أنها نواتج الإبداعات والمبادرات التي تقوم بها أمة ما على صعيد بنائها الداخلي وصراحتها مع غيرها من الأمم الأخرى. وهذا الموقف يكاد ينكر الثوابت التي تشكل القاعدة الروحية والأخلاقية والتاريخية التي تنطلق منها الأمم في

لهمه
دور
مارقة
، كما
يلورة
خلال
تكون

دون
(ماركة)

شيء
بهد في
 بذلك
لولاتها
لذاتي،
ب على

لى أنها
الداخلي
الثوابت
أمم في

تحقيق (هويتها). وأصحاب هذا الموقف يتحسّسون من الاعتراف بكون الإسلام يشكل أساس الهوية لدى العرب ولدى الشعوب التي تؤمن به. وهذا في الحقيقة دمر كل أرضية مشتركة، يمكن أن يلتقي عليها أبناء التيارات المختلفة من أجل تحليل أزمة الواقع، ورسم أهداف المستقبل، بمعنى آخر جعل محددات ذاتنا بما هي واقع وتطلع موضع جدل. وحين تصل الأمة إلى هذا الحد من التزاع والاختلاف، فإنه يستحيل عليها أن تقوم بمبادرة حضارية ذات قيمة، وإنما تشغّل النخبة فيها بهدم نفسها، مما يفضي إلى التاكل الداخلي!

في تصورنا أن الهوية لا يمكن أن تتشكل نتيجة تفاعلات وإنجازات وموافق عشوائية، لا ينظمها نظام، ولا يؤطرها إطار، حتى الأمم التي ليس لها دين سماوي فإن قيمها العليا وموروثاتها الثقافية، إلى جانب مقولات مفكريها وحكمائها - تشكل مجتمعة قوام هويتها، والروح الذي يسري في معظم إنتاجها الحضاري . . .

الإسلام - كما ذكرنا - أساس هويتنا، والمملهم الأكبر لكثير من أنشطتنا في الحياة، لكن الهوية ليست أحكاماً تضمّنها لائحة تنفيذية، ولا تجسيدات عملية لها، ولذا فإن إحساس المسلمين بهويتهم، يتفاوت تفاوتاً كبيراً بين العالم والمفكر والمخطط الاجتماعي، وبين الأمي والعامل . . . ويكون على مقدار الفهم لأصول الإسلام وأصول الحضارة الإسلامية ومعالم التجربة التاريخية للأمة، ويحسب الانتماس في معايشة الواقع واستيعابه، والعمل على التأثير فيه، كل من يعيش في مجتمع مسلم، يتلمس معالم هويته، لكن الانفعال بتلك الهوية، والاعتزاز بها ورفدها، لا يكون لدى الذي يحمل اسمًا إسلامياً، وهو مع ذلك ملحد، أو جاسوس يعمل لصالح الأعداء، أو متخلل من قيود الفضيلة - فهذا يصعب عليه فهم رمزيات الهوية الإسلامية، والإحساس الحسن بها، لكن عامل التاريخ واللغة والمكان ورسوم الثقافة الشعبية والمصير المشترك . . . كل ذلك يولد لديه درجة من

الوعي بهوية الأمة، وهذه الدرجة هي النقطة التي يمكن أن تصبح رأس جسر للعبور نحو التصحيح والإصلاح.

ومن وجه آخر فلا يمكن القول: إن المفردات التي تشكل الهوية مبتوة الصلة بإنجازات الأمة في الماضي والحاضر؛ إذ إن هناك الكثير الكثير من القواسم المشتركة بين أمم الأرض على صعيد القيم، وعلى صعيد الأماني والتطلعات والأهداف، لكن الذي يعطي تلك القواسم نكها الخاصة لدى كل أمة هو التجربة الشعورية والتاريخية إلى جانب الظروف الحاضرة، وتربيات سلم القيم والمشكلات والتحديات التي تواجهها.

النظام اللغوي هو الواسطة التي نستخدمها في الإحساس بكل المعاني التي نشعر أن هويتنا تتشكل منها، وهو نظام فاقد بطبعه، ومدلولاته كثيراً ما تكون واسعة وغامضة؛ وتجسيدها في النظم والواقع، هو الذي يبلورها. وعلى سبيل المثال فإن وجود (*الْعَمَرَيْنِ*)^(١) في تاريخنا أعطى مفهوم العدل - باعتباره أحد مكونات الهوية - التجسيد الذي يوضحه، ويحوله من قاسم مشترك بين البشر إلى مؤشر خصوصية ثقافية. وقل مثل هذا في كل ما يعد في نظر منظوماتنا الرمزية والقيمية أعمالاً رائدة وراقية.

الهوية بهذا الاعتبار تظل مشروعأً تحت التأسيس، وليس هناك نقطة ما يكتمل عندها إنجازها، كما أن تحقيقها على نحو تام، ليس ممكناً، والكمال هنا شيء نقاربه، ونناهله، وليس شيئاً نستحوذ عليه.

ومن هنا نرى أن الهوية بحاجة إلى تجديد مستمر، يبلور مفرداتها، ويدفعها نحو التجسيد والتحقق، بما يضفي عليها من خصوصية مشاعر الأمة ومقاهيمها وأنشطتها.

أزمة الهوية:

إذا لمحنا في هويتنا الإسلامية أثر الأصول والثوابت الإسلامية،

(١) هما عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

س
رية
نير
لمى
تها
رف
ياني
ثيراً
ها.
ل -
اسم
بعد
ة ما
نما
تها،
الأمة
مية،

ولمحنا أثر الجهد البشري في إبداع الصيغ الجديدة لتجليات الهوية، استطعنا القول: إن تهميش الثقافة الإسلامية - وكل ثقافة لا تبنيها دولة تميل إلى التهمش - الأصيلة في كثير من بلاد المسلمين، أدى إلى ضعف إحساس الأجيال الجديدة بهويتهم، وأضعف حساسياتهم تجاه الوافدات الأجنبية؛ مما سهل على القوى الثقافية القاهرة اختراق العديد من جوانب ثقافتنا، وجعل الشعور بخصوصيتنا الثقافية موضع تساؤل.

ومن وجه آخر فإن دخول الأمة في مرحلة التراجع الحضاري، سوف يعني الكف عن تجديد الهوية ويعنها وإعادتها إنتاجها، مما يحولها إلى أشياء يتم تلقينها للناس دون أن تعني لهم الكثير، فهي لا تحرکهم نحو خير، ولا تردعهم عن شر، وبذلك تحول إلى عباء على الذاكرة.

ويمكن القول: إن أمة الإسلام تشعر بتآزم هويتها في حالتين:

١ - حين تشعر بوجود هوة كبيرة فاصلة بين قيمها وسلوكها، وبين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، حيث تشكل المفارقة الكبيرة مصدر تمزيق للذات وتشتيت للوعي؛ بل إن استفحال ذلك قد يؤدي إلى زعزعة الثقة بالقيم نفسها، على نحو ما ذكر من أن «المعاصي بريد الكفر».

٢ - حين تقارن^(١) الأمة حالها بحال غيرها من الأمم، فإن تلك المقارنة تكون مصدراً للشعور بالتأزم إذا وجدت أن كل ما عليها أن تنجزه، يتم إنجازه عند غيرها، على نحو ما نلمسه اليوم عند المقارنة بين كثير من أحوال المسلمين وأحوال الغرب.

نشوء أزمة الهوية، هو نشوء داخلي محض، وذلك بسبب جمود الفعل الحضاري، واتساع الهوة بين النظرية والتطبيق، لكن الوعي لا يقلق من ذلك التأزم، ولا تتضح له أبعاده إلا حين تتم المقارنة بين جيل سابق وجيل لاحق من أجيال الإسلام، أو بين أمة الإسلام وأمة أخرى.

(١) كثير من العلوم والمفاهيم والمشاعر، ينشأ نتيجة مقارنة ظاهرتين مختلفتين أو مقارنة مستويين لظاهرة واحدة.

بعض المفكرين المسلمين أرخ ل بدايات تأزم الهوية الإسلامية بما فعله عبد الله بن سبأ من إيقاع الفتنة بين المسلمين على المستوى العقدي والسياسي، وبعضاً من يجعل بداية الأزمة - على نحو فعلي - عند دخول نابليون مصر بمطمعه ومدفعه. والحقيقة أن أزمة الهوية حين تستحكم، تشبه إلى حد بعيد (الفتنة الثقافية) والتي هي عبارة عن اضمحلال القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، والعجز عن اتخاذ القرار في المسائل الكبرى والمصيرية.

وهذا يجعل أزمة الهوية أزمة داخلية؛ ومن طبيعة التأزم الداخلي أنه يفتح الأبواب أمام الغزو الخارجي. ومن وجه آخر فإن الهوية نسيج من مفردات كثيرة ومتراكبة وغامضة - في كثير من الأحيان - ولذا فإن من الممكن أن يشعر الناس بتأزم هويتهم في مجال من المجالات، على حين يشعرون بألقها ووضوحها في مجال آخر.

ومن المعروف تاريخياً أن الجانب السياسي في حضارتنا هو أول جانب أصابه العطب؛ وحين كانت الدولة العباسية على حافة الانهيار كان الازدهار على الصعيد العلمي والصناعي في أوجه. واليوم لا يشعر المسلم بالدونية حين يقارن حال الأسرة لدينا بحال الأسرة في الغرب، بل يشعر بالفخر والاعتزاز، لأن نظامنا الاجتماعي أفضل من نظامهم، بما لا يدع مجالاً للمقارنة؛ لكن حين يقارن المسلم أوضاعنا السياسية والصناعية فإنه لا يستطيع أن يفر من الإحساس بالتأزم.

ولانا لنذهب إلى أكثر من هذا إذ نقرر أن درجة من الشعور بانسداد الآفاق والدونية، لا تكاد تفارق أيام هوية، ففي أزهى عصورنا الحضارية كان للشكوى من سوء الأحوال آدابها ورموزها وثقافتها. وهذا في حدود ما يعد علامة حيوية ويقطة، فإذا زاد صار مرضًا. وهذا كله يعني أن من غير الممكن تحديد بداية التأزم لأية هوية.

الذي أود أن أشير إليه في ختام هذا أن حل أزمة الهوية لن يكون إلا من خلال إعادة تنظيم حياتنا الشعورية والأخلاقية والعلقانية في ضوء ثوابت

فعله
قددي
خول
تشبه
على
كبيرى
ي أنه
ج من
ن من
حين
ر أول
ر كان
مسلم
يشرع
يدع
فإنه لا
انسداد
ية كان
ما يعد
ن غير
ون إلا
ثوابت

المنهج الرباني الأقوم، وإلا من خلال تحقيق درجة من الندية للأمم الأخرى في مجالات الإنتاج الحضاري كافة. ومن غير هذا وذاك ستكون الشكوى من تأزم الهوية مضيعة للوقت والجهد.

الأخلاق والبيئة:

هذه القضية على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية، وأعتقد أنها من أكثر القضايا التي نالها الإهمال في القديم والحديث؛ والدليل على ذلك أننا قلماً استطعنا تأسيس استجابات، تقوم على الاهتمام بإدراك طبيعة العلاقة بين المثالي والواقعي، بين دواعي الأصل والنموذج، وبين دواعي الضرورة وحاجات الجسد والبقاء على قيد الحياة. ومثل هذا الأمر يتطلب فيضاً من البحوث والدراسات التي تتناول الجوهر الإنساني وطبيعة تشكل القيم، إلى جانب تناول طبيعة تأثير المُناخ والزحام وضغط العمل والكبت والفقير والجوع والجهل والاستبداد والرخاء الشديد والاغتراب والمغربات الجنسية والفساد الإداري... في ترتيب سلم القيم لدى الناس، وتغيير أمزجتهم وتنظيم ردود أفعالهم... وعدم الاهتمام بذلك - دليل على أن هذه المسألة لم تدخل في منطقة الوعي لدينا. ولعل ألم斯 بعض الأفكار المتعلقة بهذه القضية عبر النقاط التالية:

أ - إن تأثير البيئة الطبيعية والاجتماعية والثقافية في الناس ليس واحداً؛ فالموروثات الجينية، والتربية الخاصة التي يتعرض لها الفرد، إلى جانب مستوى التعليم الذي تلقاه، ومدى نجاحه في إقامة علاقات اجتماعية جيدة... كل ذلك يمنع وقع المؤثرات البيئية الكثير من الخصوصية والنسبية، حتى إنك لتجد ذلك في حياة الأسرة الواحدة.

وأعتقد أن ما هو متوفّر من أفكار ومعلومات في هذا الشأن، ما زال غير كاف، لكن يمكن القول على نحو عام: إن الوضع العام لعملية التأثير البيئي في القيم والأخلاق يشبه إلى حد ما تأثير الأمراض الفتاكـة في الناس؛ فنحن لا نستطيع أن نقول: إن كل من تناول مواداً مسرطنة، سيصاب

بالسرطان؛ لأننا بذلك نغفل موقف الجسم الذي تلقى تلك المواد، فإذا لم يكن لديه القابلية للإصابة، فإنه لا يصاب.

وكذلك يمكن القول: إن تأثير الفقر والفساد الإداري أو الحرارة المرتفعة في أخلاق الناس، لا يكون دائماً متساوياً أو ظاهراً. ونحن نعرف أشخاصاً كثيرين أفسدتهم الشدائـد وحالات العوز المادي، كما نعرف كثيرين غيرهم صنعت منهم الظروف الصعبة عصاميين من الطراز الأول.

ويبدو أن عدم وضوح تأثيرات البيئة في الأخلاق هو السبب الأعمق الذي يقف خلف إهمالنا لدراسة حدود العلاقة بينهما؛ إذ إن الوعي يميل إلى التعامل مع الظواهر المطردة وال مباشرة.

ب - إذا تأملنا في مجمل تعليمات الشريعة الغراء وجدنا أنها تعمل في اتجاهين مختلفين، لكن محصلتهما واحدة، وهي تحرير الإنسان من عبودية الظروف القاهرة ليعيش بكمـل قوـاه، ولـيقوم بأداء واجباته على أحسن وجه.

أما الاتجاه الأول فيتمثل في حث الإسلام للمسلم على العمل، وبذل الجهد في كسب الرزق، إلى جانب حثه على ترشيد الإنفاق، وذم التبذير والإسراف وإضاعة المال... وكل ذلك في سبيل تحجيم الفقر والعوز إلى أقصى حد ممكن. وقل نحواً من ذلك في حث الإسلام على إقامة العدل بين الناس، وأداء الموظفين لواجباتهم، وابتعدـهم عن التقصير، وأخذ الرشوة... وذلك حتى لا تغري النماذج الفاسدة بقية أفراد المجتمع بالالتحاق بها. ستر المرأة والأمر بغض البصر، والنهي عن سماع الكلام الفاحش والمثير، وتيسير نفقات الزواج... كل ذلك يصب في هدف واحد، هو إيجاد بيـة ملائمة للعفاف، والبعد عن الوقوع في المحرمات...

أما الاتجاه الثاني، فنجد فيه الأحكام والتوجيهات والأديـيات التي ترفع من درجة مناعة الفرد المسلم ضد تأثيرات البيـة المختلفة، فإذا لم يمكن تحسين البيـة، فإـنه يظل من الممكـن تقوية المقاومة لدى الإنسان حتى

لما

مراة

عرف

ثيرين

عمق

يميل

نعمل

ن من

حسن

ويند

لتبذير

ز إلى

العدل

وأخذ

جتمع

لكلام

هدف

...

ترفع

يمكن

حتى

يفيض الله - تعالى - الظروف المواتية؛ ونجد ذلك واضحاً في نحو قوله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم فإنه له وجاء». فالزواج يوفر البيئة الجيدة للعفاف، لكن إذا كان غير ممكناً، فإن الحل الثاني يكمن في أن يحد الفرد من قابليته للتاثير بالظروف المحيطة. وفي هذا الإطار نجد تعاليم الشريعة الغراء تحت المسلم على الإكثار من ذكر الله - تعالى - ودعائه والتعبد له؛ لأن ذلك يصله بینبوع للقوة والعون، لا ينضب؛ وهو إلى جانب ذلك مطالب بالحلم والصبر والمجاهدة في ذات الله، وإيثار الآخرة على الدنيا في كل موضع تزاحمان فيه، وهذا كله يشد من أزر المسلم في السيطرة على رغباته.

والإسلام لا يكتفي بكل هذا، بل يأمر المسلم أن يحاول صنع بيئه صغيرة خاصة به، تكون بمثابة عازل بينه وبين تأثيرات البيئة العامة، والتي كثيراً ما تكون سلبية وسيئة؛ ونجد في هذه السبيل حث الإسلام المسلم على اختيار الزوجة الصالحة والجليس الصالح، وعدم الإقامة في دار الكفار - إلا لحاجة محددة - إلى جانب البعد عن الوظائف والأعمال التي تتعرض فيها استقامته وسلامته الأخلاقية للخطر.

والإسلام في كل مرة يرمي إلى معالجة مشكلات المسلم من أفقين اثنين: أفق فردي وأفق اجتماعي؛ إذ إن على المسلم أن يقاوم تأثيرات البيئة، وعلى الجماعة المسلمة أن تساعده على ذلك. وبتعبير آخر، فإن على كل مسلم أن يساعد كل مسلم - مهما كان ذلك ممكناً - على أن يظل حراً مستقيماً صالحاً في كل مجال من مجالات الحياة، وفي كل موقف من المواقف. وما نجده في هذا حثه على الأخذ على يد الظالم، ونصرة المظلوم حتى يأخذ حقه، والنهي عن مدح الرجل في وجهه، حتى لا يوقعه ذلك في الكبر والغرور، والرضا عن النفس إلى جانب الحث، ورعاية الأيتام، والإنفاق على الأرامل والمساكين وغير ذلك... وهذا كله يشكل نظاماً رمزياً كاملاً للأمة، تستوحى منه خطتها في معالجة هذه المسألة الشائكة.

ج - نحن نؤمن بمطلقية القيم وعموميتها؛ إذ على المسلم أن يكون كريماً ما دام بذلك يسمى كرماً، وأن يكون وفياً ما دام وفاؤه يسمى وفاء، وأن يكون رحيمـاً ما دامت رأفتـه تسمى رحمة وهكذا... هذه المطلقيـة في القيم، هي سـر قوتهاـ، وهي سـر ضعفـها في آن واحد؛ إذ إن عدم امتلاـك الوعي لحدود بـيـنة للقيم والأـخـلـاق يجعلـها مـرـتهـنة لـتـجـسـيدـاتـهاـ في سـلـوكـ الناسـ، فـسـقـفـ الـكـرـمـ وـعـبـتـهـ - مـثـلاـ - شـيـثـانـ يـرـسـمـهـمـاـ الـكـرـامـ. وـقـلـ مـثـلـ ذلكـ فيـ الشـجـاعـةـ وـحـسـنـ الـجـوـارـ وـالـلـطـفـ وـالـأـنـاقـةـ... لـكـنـ أـولـنـكـ لاـ يـجـسـدـونـ هـذـهـ الـمعـانـيـ فيـ سـلـوكـاتـهـمـ عـلـىـ نـحـوـ مـعـزـولـ عـنـ التـرـبـيـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـلـاـ عـنـ الـظـرـوفـ وـالـأـوضـاعـ السـائـدةـ.

وهـذـاـ كـلـهـ يـجـعـلـ الـقـيـمـ نـسـيـةـ فـيـ تـجـليـاتـهـ، أـيـ إنـ الـوعـيـ حـينـ يـتـعـرـفـ عـلـىـ الـقـيـمـ، يـتـعـرـفـ عـلـيـهـ عـلـىـ أـشـيـاءـ نـسـيـةـ، فـمـاـ مـنـ كـرـيمـ إـلـاـ هـنـاكـ مـنـ هوـ أـكـرـمـ مـنـهـ، وـمـاـ مـنـ صـبـورـ إـلـاـ هـنـاكـ مـنـ هوـ أـصـبـرـ مـنـهـ وهـكـذاـ... وـبـمـجـرـدـ أـنـ تـسـتوـعـ الـقـيـمـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ تـصـبـحـ خـاصـيـةـ لـتـأـوـيـلـ وـتـفـسـيرـ؛ إـذـ مـنـ السـهـلـ عـلـيـنـاـ القـوـلـ: إـنـ مـاـ كـانـ سـائـدـاـ لـدـىـ الـعـربـ مـنـ كـرـمـ وـشـجـاعـةـ، لـمـ يـكـنـ تـفـوقـاـ سـخـصـيـاـ أـوـ عـرـقـيـاـ، بـمـقـدـارـ مـاـ كـانـ اـسـتـجـابـةـ لـمـقـنـصـيـاتـ وـحـتـمـيـاتـ بـيـئـيـةـ، فـرـضـتـهـ طـبـيـعـةـ الـعـيـشـ فـيـ الصـحـراءـ؛ حـيـثـ لـاـ دـوـلـةـ وـلـاـ قـانـونـ، وـلـذـاـ فـمـتـىـ يـحـافـظـ الـمـرـءـ عـلـىـ حـيـاتـهـ وـمـمـتـلـكـاتـهـ، فـإـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ قـوـتـهـ وـمـهـارـتـهـ الـشـخـصـيـةـ.

وـعـدـمـ وـجـودـ أـمـاـكـنـ لـاـسـتـراـحةـ الـمـسـافـرـينـ وـمـبـيـتـهـمـ، حـمـلـ النـاسـ فـيـ الـجـزـيرـةـ عـلـىـ تـنـمـيـةـ رـوـحـ الـمـجـانـيـةـ، وـعـادـاتـ الـضـيـافـةـ الـمـشـهـورـةـ وـالـمـعـرـوـفـةـ عـنـهـمـ. وـصـارـ مـنـ السـهـلـ عـلـىـ كـلـ وـاحـدـ الـيـوـمـ أـنـ يـقـوـلـ: إـنـ فـلـانـاـ أـكـرـمـ مـنـهـ، لـأـنـ لـدـيـهـ مـاـ لـمـ يـسـاعـدـهـ عـلـىـ ذـلـكـ... وـهـكـذاـ أـضـحـيـ منـ الـمـمـكـنـ (تأـوـيـلـ الـقـيـمـ) وـالـتـنـصـلـ مـنـ تـبعـاتـهـ؛ وـلـاـ يـبـقـىـ لـهـ مـنـ حـمـاـيـةـ بـعـدـ ذـلـكـ سـوـىـ مـاـ يـمـلـيـهـ الـعـرـفـ الـاجـتمـاعـيـ وـالـمـفـاهـيـمـ الـجـمـاعـيـةـ الـمـتـعـلـقـةـ بـالـقـيـمـ، وـالـمـتـغـيـرـةـ مـنـ مجـتمـعـ إـلـىـ مجـتمـعـ، وـمـنـ عـصـرـ إـلـىـ عـصـرـ.

كون
ناء،
في
للاك
لبوك
ذلك
دون
عن

مرف
. من
 مجرد
: من
 ، لم
 بيات
 ولذا
 قوته

، في
بروفة
أكرم
سحى
ة بعد
لقيم،

ومن وجه آخر فإن لدى كل أمة من الأمم ما يسمى بـ (السلم القيمي)، فالوعي إذ يصنف الأخلاق المنحطة، لا يجعلها في مرتبة واحدة، كما أنه حين يتعرف على القيم النبيلة، فإنه لا يمنحها مكانة متساوية؛ ولذا فإن القانون الذي يحكم جميع القيم في كل أنحاء العالم، هو أن القيم الدنيا يضحي بها من أجل القيم العليا؛ فالمحافظة على وقت العمل قيمة، لكن حين يتعرض أحد العاملين معي للخطر، فإن قيمة إسعافه أعلى من قيمة الاستمرار في العمل، وسيكون من غير المشروع أو المقبول أن أترك إنساناً يحترق حتى لا أوقف (ماكينة) في مصنع، أو حتى لا أفوّت عقد صفقة مع أحد العملاء....

وهذه الوضعية تشكل مدخلاً آخر لتأثير الظروف والبيئات في أخلاق الناس. والشريعة الغراء أخذت الظروف والمتغيرات بعين الاعتبار؛ فـ «الضرورات تبيح المحظورات» ويمكن للفتوى أن تتغير بحسب تقدير المفتى للمصالح والمفاسد المترتبة على تصرف ما، حيث يدفع الضرر الأشد بالضرر الأخف؛ فقتل النفس يدفع بشرب الخمر، حيث لا يكون مناص من وقوع أحدهما. ومن المعروف أن حد الزاني غير المحصن هو الجلد؛ لكن حد الزاني المحصن هو الرجم؛ لأن وجود زوجة يوفر مسلكاً مشروعأً لقضاء الرغبة الجنسية، لا يجده العزب.

وقل مثل هذا في القيم الإيجابية، فالتوافق يُتخلّى عنها من أجل أداء الفرائض عند التزاحم وهكذا... وقد بات كثير من الموظفين في بعض بلاد الإسلام، يسُوغ لنفسهأخذ الرشوة من المواطنين، ما دام هناك اتفاق على أن الدولة التي تستخدمه، وتستنفذ جهده ووقته، لا تدفع إليه ما يؤمن له الحد الأدنى من العيش الكريم.

وهكذا تتغير النظرة إلى الواجبات والممنوعات على الصعيد الشخصي في البداية، ثم يستجيب المجتمع إلى ذلك، وتتغير الرؤية؛ لتمثل وجهة المجتمع كله أو جله. ومن المشهور أن الناس في الصدر الأول كانوا

يتأسفون لحال من تفوته تكبيرة الإحرام خلف الإمام، لكن مع تطاول الزمن، واندراس شعيرة الصلاة في بعض المجتمعات، صار يُنظر إلى من يقيم الصلاة في بيته على أنه تقى متمسك. وفي مجتمعات أخرى، ينظر إلى من يحضر صلاة الجمعة على أن فيه خيراً - أي ليس بملحد - وهو أفضل من فلان وفلان... فالمعيار الأخلاقي - في نظر الناس على الأقل - ليس مطلقاً كما قد نتوهم - بل هو معيار يتمتع بالنسبة، ويُخضع في صرامته لمعطيات الظروف والأحوال المختلفة.

د - من أفق كل ما ذكرناه وباعتباره تفصيلات وتوضيحات يمكن القول: إن استقراء سنن الله - تعالى - في الخلق، إلى جانب التبصر في حياتنا الأخلاقية والقيمية، يكشف لنا عن تأثيرات واضحة للبيئة والأوضاع المعيشية المختلفة في قيمنا وأخلاقنا، مما نتمتع به من خصائص وإمكانات ومعتقدات، لا يعمل في فراغ؛ وفاعليته وجودة أدائه، سوف تتأثر على نحو ما بالوسط الذي يكتنفه، تماماً كما هو الشأن بالنسبة لمن يريد تسوق بعض الأشياء، فإن أسعار السوق هي التي ستحكم على قيمة ما في جيبه من نقود البيئة الطبيعية ذات أثر لا ينكر في أخلاق الناس ونشاطهم وإنماجهم، فالبيئات شديدة الحرارة والرطوبة، تبعث على الخمول والكسل، وتجعل طموحات الناس محدودة؛ وهذا أحد التفسيرات الرائجة لتخلف أفريقيا.

والشعوب الثرية اليوم حاربت الحر بالمكيفات، وحسنت أداء الإنسان. وفي المقابل فإن سكان المناطق الجلدية (الأسكيمو) بذلوا كل طاقتهم من أجل توفير الغذاء والدفء، فهم يخوضون حرباً يومية من أجل البقاء، وهذا حال دون تمكّنهم من تطوير أي نظام ثقافي أو اجتماعي أو سياسي ذي قيمة، فالضرورات تصرف الاهتمام عن الكماليات، ما لم يتم إشاعها وتلبيتها.

وبما أن (وعينا) مغرم بالتقاط الأمثلة والنماذج الشاذة، فإن لدينا كثيرين ممن يجادل في هذا الأمر، ويقولون: إن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يعيشون في بيئه حارة جداً، ومع هذا فإن ذلك لم يحد من نشاطهم، ولا من طموحاتهم؟

وهو لا ينسون أن الطاقة الروحية الهائلة التي فجرها فيهم النبي ﷺ هي طاقة استثنائية بكل ما تعنيه الكلمة. وتلك الطاقة عَلَتْ بأصحابها فوق تأثيرات البيئة وال الحاجة والعصبية والضعف الجسدي، أي جعلت عطاءهم كله استثنائياً. ومن وجه آخر فإن المعلومات المتوفرة لدينا عن الصحابة الكرام معلومات محدودة، وهي على كل حال تتعلق بعدد محدود منهم، قد لا يتتجاوز خمسة آلاف. ومن وجه ثالث فإن تأثيرات البيئة يمكن تجاوزها على نحو جزئي، وبتكلفة عالية؛ فاللحم المجمد على درجة عشرين تحت الصفر، يمكن سلقه، لكن بتكلفة أعلى من تكلفة سلق لحم حرارته عشرون فوق الصفر.

تكليف العيش الكريم تزداد اليوم، وموارد كثير من الدول الإسلامية، تتراجع، والبطالة تنتشر... وكل هذا قد رفع درجة المعاناة لدى كثير من المسلمين، وجعل أعداداً متزايدة منهم، تنضم إلى نادي البائسين والمحرومين.

مدن (الصفيف) صارت تعج في بلدان عديدة بمئات الآلاف من الكبار والصغر، وهناك تلقى العجائب، حيث الزحام والحرمان من الماء النقي والكهرباء والصرف الصحي، فضلاً عن الطبابة والدواء. في تلك المدن يتتوفر شيء واحد هو البيئة المثالية للتحلل الأخلاقي والفساد السلوكي وإدمان المخدرات، والنزاع والشجار؛ إنها أفضل بيئة لقتل الهمة وتبخير الطموحات...

هناك من يدعى أن بإمكان الناس أن يكونوا أحراضاً وهم يتضورون جوعاً، جاهلاً أو متجاهلاً أن الكرامة والحرية، ليست شعارات ترفع، بمقدار ما هي نوافذ للخروج من عالم القهر والضرورة إلى عالم الخيارات المتعددة.

إن مما تعلمناه من تربيتنا ومناهجنا المدرسية أن المشكلات الأخلاقية ذات جذور أخلاقية، وكذلك المشكلات الاقتصادية والاجتماعية... ولم نتعلم أبداً أن المشكلات الأخلاقية قد لا تتبع من تربية سيئة، ولا من مزاج

رديء، أو تعليم قاصر، وإنما من بيئة اقتصادية متربدة، تدفع الناس دفعاً إلى الشخ والرذيلة، وتجعل همومهم ونشاطهم في الكفاح من أجل البقاء على قيد الحياة. وفي تصوري أن وعيها بحاجة إلى صدمة، حتى يصحو على هذه المعاني، وتلك الصحوة هي البداية لعمل جديد نافع، يعيد الأمور إلى نصابها.

إن الظروف الصعبة، حين تتحول إلى أوضاع دائمة، تحدث تبدلاً نمطياً في السلوك، وتكون الضحية هي الأجيال الجديدة التي ولدت في ظلها، كتلك الأجيال التي تعيش اليوم في مجتمعات استمرا الناس فيها أكل الرشوة والمآل الحرام، فإن الرسالة الأخلاقية والتربوية التي تبعث بها الأمهات إليها، تكون رسالة مغشوшаً ومشوهةً. وقل مثل ذلك في المجتمعات التي استحكم فيها الظلم والاستبداد، حيث تصبح الوصية التي لا يُمل تكرارها هي التوعية من خطورة الكلام أو رفع الرأس، أو السير في غير اتجاه قطيع الأعوام.

وقد ترك ذلك آثاراً لا ريب فيها في سلوك الناشئة وموافقهم الأخلاقية وردود أفعالهم.

ولا تقتصر خطورة البيئة السيئة على هذا فحسب، بل تتجاوزه إلى ما هو أسوأ؛ حيث إن الممكن أن تُوجَّد أطراً مرجعية وإحالات عقلية وشعورية جديدة، يرى الناس أنفسهم من خلالها، كما يرون العالم، أيضاً، إذ إن الصغار، يستلهمون سلوك الكبار، ويتخذون منه نماذج للاقتداء؛ فقدرة الوعي البشري على التعرف على الحق والخير الصافيين والمجردين عن التجسيد السلوكي محدودة؛ والتجسيد المشوه للقيم يقزمها، أو يحرفها عن وجهها في النهاية.

هـ - إذا ما أردنا للتفتح الأخلاقي أن يبلغ مداه، وإذا ما أردنا للتسامي الشخصي أن يظل طليقاً، فإن علينا أن نقوم بثلاثة أمور:

١ - أن نعمق فهم الناس بأهمية الاستقامة الخلقية، ومحورية القيم في

فلاحنا الأخرى ونجاحنا الدنيوي، وأن نسلط أشعة النقد والتمحيص على السلوكات الخاطئة، وأن نجعل من الجامعات والمدارس والمحاضن التربوية الأخرى، والوسائل الإعلامية، منابر لمناقشة أشكال التصدع بين الرمز والخبرة، والمثال والسلوك في حياتنا الاجتماعية.

٢ - ألا نزهد في الوعظ والتذكير، والترغيب والترهيب؟ فالخير موجود في الناس، ورُبَّ كلمة لا تلقي لها بالأ، تتفاعل في نفس سامعها، إلى أن تغير توجهه وسلوكه، وتاريخنا مملوء بالقصص التي تحكي ذلك. ومن الملاحظ على الكثير من أدبياتنا الحديثة إهمال هذه المسألة، ولا يكاد يذكر الوعظ إلا في سياق الذم، على حين يعد التنظير والتحليل هو الأسلوب الأرقى في التغيير، مع أن الله - جل وعلا - يقول: «**فَذِكْرٌ إِنْ تَفْعَلُ الذِّكْرَ**»^(١). إن التنظير لا يعني عن الوعظ، كما أن الوعظ لا يعني عن التنظير، فلكل مقامه ومجاله.

٣ - السعي إلى تحقيق نهضة عامة في الأمة، أي إيجاد المُناخ الذي يساعد الأخلاق على النمو، و يجعل تكاليف الاستقامة الأخلاقية في نطاق المأثور والمقبول. ولا بد أن تكون قادرین على ترجمة كل ما نحصل عليه من تحسن مادي ومعيشي إلى تقدم خلقي، أي ترجمة التقدم العمراني إلى تقدم مدني، تُعطى الأولوية فيه لمعانی الإيمان والروح والنمو الداخلي.

أصداء الانحطاط:

القيم التي يؤمن بها الناس، هي أساس البناء الحضاري وروحه. وكل تجارب الأمم ناطقة بعمق استخدام النظام والقانون والقوة والقهر في تسخير الحياة العامة، وتحقيق التقدم الإنساني ما لم يرتكز كل ذلك على أساس من معتقدات الناس وأخلاقهم. وحين يحدث تقدم حضاري مع تخلف قيمي

(١) سورة الأعلى: الآية ٩. ويدرك بعض المفسرين أن (إن) في الآية معناها قد، أي قد نفعت الذكرى.

مدني، فإننا نصطدم دائمًا بمخلوقات عجيبة، مركبة من أجسام بشر، ونفوس وحوش. وترى آنذاك قدرات فائقة وإرادات مشلولة. وتشكل المخالطة السطحية واللقاءات العابرة انطباعات رائعة لديك، لكن المعاملة والزملاء والاحتكاك الطويل، تعلمك أشياء تمنى أنك لم تخبرها!

هذه هي حالة الأمم حين تراجع القيم، وتسيّر حركة الناس اليومية العاجاث والأهواه والمطامع والمصالح الضيقة. ولذا فإن مسألة الأخلاق والالتزام الداخلي الذاتي شغلت من النصوص والأدبيات الإسلامية عامة مساحات لا يستهان بها.

الجاذبية التي يتمتع بها رجالات صدر الإسلام، والاحترام العميق الذي ينالونه على مدار التاريخ لم يكن ينبع إلا من القيم التي كانوا يدعون إليها، ويتمثلونها، ويضسحون من أجلها.

بعد وفاة النبي ﷺ شعر الناس بأن تبدلًا ما قد بدأ يتغلغل في حياتهم، وكان تشخيصهم جميًعاً أن التبدل هو تبدل قيمي، يمس صميم الدين، حيث أخذ الاهتمام بالشأن الدنيوي، يتمدّد، ويتجسد في سلوكيات وموافق كثيرة، وكان ذلك - بالطبع - أساساً لتراجع العديد من القيم النبيلة، ونشوء أفكار ومفاهيم وسلوكيات، لا تخلو من نوع من المغایرة لما كان عليه الأمر في عهد النبوة الظاهرة. ومع هذا فإن رسوخ قيم الإيمان والتقوى، إلى جانب شيوع العلم الشرعي، قد جعل التطور القيمي بطيناً، كما أنه لم يسمح بنشوء أساس مغاير للقيم؛ فرجاء ما عند الله - تعالى - والخوف من عقابه، بالإضافة إلى مشاعر الانتفاء إلى دين الله، وأمة الإسلام ظل يشكل البنية العميقة لكل أشكال الالتزام الأخلاقي.

ولا أريد أن أعرّج على وضع القيم والأخلاق في التاريخ الإسلامي المديد، فذاك حديث يطول، لكنني أريد أن ألمح إلى الانعطافة الكبرى في تاريخنا الأخلاقي، والتي حدثت عند اتصال المسلمين بالعالم الغربي في العصر الحديث، حيث التقى عالمان متباعدان في اهتماماتهما الأخلاقية، وفي

نظرهما للكون والحياة، لكن العالم الغربي كان في حالة من الصعود التنظيمي والصناعي؛ أما العالم الإسلامي، فكان يشكو التمزق وويلات الاستعمار، إلى جانب الفقر والجهل؛ مما أربك الوعي المسلم، وشوّش محاكمته الفكرية في كثير من الأمور، ومنها القضايا الأخلاقية.

المتمسكون بالقاعدة الأخلاقية الإسلامية معزولون - على درجات تختلف بين بلد وأخر - عن التيار العام، ويشعرون بالأزمة القيمية، لكن ما يستطيعون عمله ليس كثيراً. أما المعجبون بأخلاق الغرب، والمفتونون بأسلوب عيشه، فمع أنهم لا يشكلون نسبة عالية في المجتمع الإسلامي، لكن معظم مفاتيح القوة في أيديهم، مما مكنتهم من النجاح في خلخلة العديد من القيم، وصرف وجوه الناس عنها. نحن لا نعتقد أن بينما وبين الأمم الأخرى مقاطعة قيمية تامة، فهناك دائماً قيم وأخلاق مشتركة بين أمم الأرض كافة، لكن الذي يميز الوضع الأخلاقي لدينا عن غيره أمران جوهريان:

أ- الإطار أو جهة الإلزام الخلقي.

ب - السلم القيمي، أو تصنيف القيم، وتوزيعها، بين ما يعد قيمًا كيري، وما يعد قيمًا صغرى، قيمًا أساسية وقيمًا هامشية.

وبما أن حظ القوى المتنفذة في كثير من بلدان العالم الإسلامي من الثقافة الإسلامية محدود، فإنها لا تملك الحساسيات التي تساعدها على إدراك جيد للخصوصية الأخلاقية الإسلامية، والتي تساعدها وبالتالي على التنظير العجيد لمسائل التأثير الأخلاقي، ومسائل إعادة تهذيب القيم وبنائها وتوظيفها.

والذي نلمسه في كتابات كثيرة ممن جرى العرف على تسميتهم (العلمانيين) أنهم يحرصون الحرص كله على تدمير الإطار المرجعي للأخلاق الإسلامية، وذلك بنقل جهة الإلزام الخلقي من الوحي والتبعيد الله تعالى - إلى العقل والعرف والمصلحة. وهم إلى جانب ذلك حريصون على إعادة ترتيب السلم القيمي وفق الرؤية الغربية للأحياء والحياة، ظانين أن

ذلك هو الخطوة الأولى على طريق نقض غبار التخلف عن الأمة، وإعادتها إلى حركة التاريخ الذي خرجت منها منذ قرون عده.

وكان ذلك منهم وهماً ذا طبقات: فالقيم الإسلامية التي تحملها الجماهير الإسلامية، لم تكن هي السبب في التخلف الذي نعيشه، وإنما يكمن السبب في الظروف التي أدت إلى ضمور تلك القيم، وإبعادها عن وظيفتها في توجيه السلوك؛ والدليل على ذلك أن القيم التي تحارب اليوم بلا هواة، هي التي قامت عليها المدنية الإسلامية، التي أُلقت بإشعاعاتها على البشرية قرابة عشرة قرون من الزمان.

ووقعوا في الوهم مرة أخرى حين استسهلاً عمليّة التبديل الجذري للمنابع الأخلاقية للأمة، مع أن ذلك عمل في غاية التعقيد حتى عند الأمم التي ليس لها كتاب سماوي، ويحتاج إلى أوقات مديدة، وتغيير كبير في البيئة الثقافية كلها. أما أمّة الإسلام، فإن محاربة قيمها وأخلاقها، فتحت أعينها على جوهرية تلك القيم لصلاح شؤونها كافة، ومن ثم فإن الصحوة الإسلامية الحديثة، مدينة في جوانب من وجودها لأولئك الذين سعوا إلى هدم الأسس التي يمكن أن تقوم عليها.

والوهم الثالث الذي وقعوا فيه ظنهم أن ما حصلت عليه البشرية من تقدم عقلي وعملي، يمكن أن يكون أساساً لنمو أخلاقي؛ وهذا لا دليل عليه، فالأساس الأخلاقي يتوقف وجوده على النمو الشامل للشخصية، وبنيته العميقه ليست ببنية عقلية تقنية، وإنما هي بنية مكونة من الإرادة والمشاعر والعواطف في المقام الأول. وفي الشعوب والأمم (الصربي واليهود نموذجاً) - من قطع مسافات في التقدم العلمي والعمري، لكن أخلاقهم وقيمهم، لم تزد إلا انحداراً وتأسناً، والسبب في هذا أن قضايا الإيمان والأخلاق، لا تتموضع في نفس النقطة أو على نفس المستوى الذي تتموضع فيه قضايا العقل والعلم؛ ولذا فإن التقدم في أحدهما لا يعني بالضرورة التقدم في الآخر.

ادتها
ملها
 وإنما
ا عن
اليوم
اعاتها

جذري
الأمم
ير في
فتحت
صحوة
وا إلى
رية من
لا دليل
خصية،
الإرادة
الصرب
، لكن
ن قضايا
ي الذي
لا يعني

الذي دفع بعض الكتاب والمفكرين إلى ما ذكرناه من محاولة وضع أسس لقيم جديدة، وتدمير السند الديني للأخلاق، ربما كان نابعاً من فلسفة وضعية سوقية - سادت في الغرب في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - ترى في العلم والتقدم العماني النمط الأعلى الذي يصلح لتوجيه الاجتماع الإنساني والنهوض، ومن ثم فقد تم دفع التجارب الروحية والدينية والأخلاقية إلى هامش الوعي، وهامش الشعور أيضاً، وصار من يتحدث عن المسائل الأخلاقية موضع اتهام في نضجه، وفي استيعابه لمعطيات الحداثة! .

وكانت النتيجة لهذا هي الفراغ الروحي الرهيب لدى الكثير من شباب الأمة.

أما المصالح العامة وحقوق الضعفاء، فقد صارت هي الضحية الرئيسة للانحلال الخلقي. وما ذلك إلا بسبب تزهيد الناس بالأخلاق الإسلامية، إلى جانب العجز عن إقناع الشعوب الإسلامية بمرجعية قيمية وأخلاقية جديدة، تقوم على العقل والمنطق والعلم، بعيداً عن الإيمان. ولو لا الجهود المبذورة والمشكورة لكثير من الدعاة والمصلحين، والتي أعادت بعض التوازن إلى وضعنا الأخلاقي - لتحولت الحياة الاجتماعية - بمعناها الأشمل - إلى جحيم لا يطاق، ولرأينا من صور الانهيار القيمي ما لا يخطر على بال!

ومع كل هذا فإبني لا أزعم أن مشكلنا الأخلاقي، ما هو إلا صدى لمحاولات التخريب الفكري والأخلاقي الذي يمارسه بعضهم، وأن أخلاقتنا قبل قرنين من الزمان كانت على ما يرام، فهذا لا يقول به أي مدرك لطبيعة البناء الأخلاقي وحساسيته الشديدة للأوضاع الحياتية المختلفة.

ومن هنا يمكن القول: إن أزمتنا الخلقية والقيمية الحديثة، تبع من نوعين من التخلف:

الأول: ويتمثل في الهوة التي تفصل بين أجيالنا الحاضرة وبين

الم
فل
الم
للا
النا
مش
تعن
مم
الجي
كثـر
العا
(العـ
من
بذلـ
التفـ
ـلمـ
من
أنها
ـ 2ـ

المستوى المطلوب للتدين الحق، ونحتاج إلى الكثير من التقدم نحو الإسلام حتى نشعر بالاطمئنان إلى أن قيمنا الإسلامية، هي التي تحكم في وجودنا المعنوي والمادي.

الثاني: التخلف عن العصر؛ فنحن نعيش على هامش الفعل الحضاري، وكثير مما نسميه معاصرة، لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب الاستهلاك لمنتجات الآخرين العلمية والمادية. وهذا التخلف هو تخلف علمي وقيمي ونظمي، فكثير من القيم الإنتاجية والتنظيمية والاجتماعية، ضامر في حياتنا أو مشوه. والت نتيجة العامة لهذين النوعين من التخلف فشل العديد من أخلاق الانحطاط وقيم التدهور التي باتت تشكل عقبة كأداء في وجه التقدم الروحي والعمري الذي نسعى إليه.

نماذج من قيم الانحطاط:

نحن لا نرمي في هذا الكتاب إلى استقصاء كل ما يجدد الوعي المسلم، فذاك أمر يتتجاوز طاقة هذا الكتاب وطاقة كاته، ولكن الذي أريد أن أركز عليه هو ما أعتقد أنه ينبه الوعي، ويدفعه إلى صياغة مقولاته من جديد.

ولعلنا نلمس بعض النماذج من أصياء الانحطاط في المفردات التالية:

١ - الهروب من أداء الواجب:

تقوم العبودية لله - جل وعلا - على عدد محدود من المبادئ الكبرى، من أهمها شعور المسلم بأن عليه واجبات تجاه خالقه، وواجبات تجاه إخوانه ومجتمعه. وعلى مقدار ما يمتلكه من قوة الشعور بضرورة القيام بتلك الواجبات، تتحقق عبوديته، ويصبح سلوكه منضبطاً، وقابلأ للتفسير والفهم.

الشعور بالواجب خلق إسلامي عظيم، وهو أساس من أهم أسس

المجتمعات المتحضرة؛ وهذا هو الشعور الذي يخفف من دوران الفرد في ذلك مصالحه الخاصة، وهو الذي يوفر الأرضية النفسية للعطاء غير المشروط، وتقديم العون لآخرين.

من خلال الحملات المستمرة التي تستهدف تدمير السند الديني للأخلاق ضعف الحفظ الأخلاقي الذاتي، وصار الهم المسيطر على كثير من الناس هو حصد أكبر قدر ممكن من المนาفع، بقطع النظر عما إذا كان ذلك مشروعًا أصلًا. وزاد الطين بلة أنها فهمنا (الفردية) السائدة في الغرب والتي تعني الاستقلالية وتحرير الذات على أنها تحلل من الالتزام نحو الآخرين؛ مما ترتب عليه تراجع الاهتمام ببر الوالدين وصلة الرحم، وأداء حقوق الجار... ولو أنها فارنا بين الأعمال الوقفية القائمة الآن - على الرغم من كثرة المال - بالمؤسسات التي كانت في الماضي، لأدركنا ما يلقاء الشأن العام من إهمال. والنهاية التي يتعرض لها المال العام دليل آخر على أن (العدمية الأخلاقية) آخذة في الترسخ والانتشار.

لا شيء يغري بالانحراف كالانحراف نفسه، فبمجرد أن تتمكن فئة ما من تجاوز النظام والقانون، فإنها تشجع وتغري الفئات الاجتماعية الأخرى بذلك. ويتجزء عن ذلك ظلم وفساد، ويشعر كثيرون أن مجتمعهم لا يستحق التضحية، كما أن وطنهم لا يستحق الخدمة المجانية؛ وكما قال أحدهم: «لماذا أدفع عن مجتمع لم يساعدني في الوصول إلى حقي، كما لم يؤمنني من خوف، ولم يطعمني من جوع»؟!.

وحتى يستمر الهروب من أداء الواجب، فإن الوعي ينبع له ما يعطيه من فلسفات وتنظيرات قائمة على المزيد من الرضوخ للواقع السيئ، كما أنها أقل تساميًّا نحو المثل والقيم العليا.

٢ - الوسيلة عوضًا عن المبدأ:

الأصل دائمًا هو المبدأ، وما الوسائل والأسباب والأشكال إلا أشياء

نقطتها لخدمته. من حق القيم والمبادئ العليا أن تظل مستعلية مرفقة، وأن تظل فوق الاستغاد والتجميد الكامل، وهذا أحد منابع قوتها؛ فاللتقوى والكرم والجدية والدقة... معان وقيم، نقاربها، ولكن لا نستحوذ عليها، فما من تقى إلا هناك من هو أتقى منه. وما من تقى إلا يشعر أن تقواه ليست كاملة. القصور البشري بكل معانه وأفاته ومدلولاته، يكتنف علاقة المبدأ بالوسيلة، فيقضي بها على استعلائه، ويحولها إلى سجن له. وأحياناً تحل الوسيلة محل المبدأ.

ومع أن الجميع يعلن أن الغاية لا تبرر الوسيلة، إلا أن الصحيح أنه في حالة الانحطاط يكون هناك حرص شديد على الوسائل، على مقدار ما يتضائل الاهتمام بالمبدأ الذي ستخدمه تلك الوسيلة. وبمجرد أن يغفو الوعي، أو يرتبك، يأخذ المبدأ في التضليل والانسحاب من الفعل الحضاري. ويبدو أن المشكلة قديمة جداً؛ فقد شرع الجهاد في الأصل لتسهيل وصول الناس إلى الإسلام، ووصول الإسلام إليهم، لكن يلاحظ أنه بعد مضي الصدر الأول، صارت الفتوحات تستهدف الغنائم وأخذ الجزية؛ لدى بعض المجاهدين والقادة على الأقل^(١)، أي تحولت الوسيلة إلى مبدأ، إذ تراجع وقع الهدف في الحركة الجهادية.

المال في نظر المسلم أداة لقضاء الحاجات، والاستغناء عن الناس، والاستعانة على طاعة الله - تعالى - لكنه أمسى اليوم لدى كثير من الناس غاية في حد ذاته، وهم لا يعرفون ماذا يصنعون بما يكدسون من أموال. التنظيم في الأصل وسيلة لاستخراج القوة من الأفراد، وتوجيهها، ثم صار لدى بعض الناس غاية وهدفاً مستقلاً؛ وهكذا فالأمثلة أكثر من أن تحصى.

حلول الوسيلة في محل المبدأ، ليس شيئاً معزولاً عن التيه الذي

(١) حين تولى عمر بن عبد العزيز رَحْمَةُ اللَّهِ الخلافة وجد من سبقه قد فرض الجزية على بعض من أسلم، لأنهم يرون أنهم أسلموا كيلاً يدفعوا الجزية، فأعاد الأمر إلى نصابه.

دخله الإنسان المعاصر حين ضعفت حساسيته للغاية النهاية من الوجود،
وحين ضعف تلمسه للأهداف الكبرى التي عليه أن يجاهد من أجلها.

٣ - القوة عوضاً عن الرحمة:

في زمان الإقبال الحضاري تزدهر معانٍ ومفاهيم بعينها، ويكون
ازدهارها تعبيراً عن السمو الإنساني، وتعبيرأً عن الاستقرار والخير والنماء.
معاني اللطف والرحمة والسماحة والعفو والتضحيه، مضامين إسلامية رفيعة،
وهي في الوقت نفسه أركان ركيزة في المدنية الإسلامية. هذه المعاني
طليقة، لا تعرف قوقة المكان، ولا خصوصية العرق أو الجنس؛ ولذا
فإن الله - تعالى - وصف إرسال محمد ﷺ بأنه رحمة عامة: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(١) رحمة للقريب والبعيد، والكبير والصغير، والغني
والفقير.... وحين دخل ﷺ مكة قال لأهلها: ماذا تظنون أنني فاعل بكم؟
قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وذلك على
الرغم من كل ما فعلوه به وب أصحابه.

في زمان الانحطاط تعلو شؤون الجسد، وتتسع استخداماته على
حساب شؤون الروح والمعنى، ويسيطر على حسن الناس المباشر
والمحسوس والقريب. في زمان الانحطاط يتضاءل الحوار والتفاهم
والتنازل، ويغلب الهوى والإعجاب بالرأي. ومن أفق كل ذلك يكون حل
المشكلات.

في الحياة الاجتماعية دائمًا فراغات، تحتاج إلى ملء، ومسافات
تحتاج إلى تجاوز. في حالة المدنية والإقبال الحضاري تملأ الفراغات
بالرحمة والتسامح والعفو والصفح، لكن في زمان الانحطاط تملأ بالعنف
والقوة الغاشمة والتهديد والوعيد. وعلى مقدار ما تكون المسافة بين القوى
النافذة وبين الحق كبيرة يكون استخدامها للقوة. وبما أن كثيراً من نفوذها

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

قد تكون أصلًا على أرضية الباطل، فإن استخدامها للقوة سيكون من غير حدود.

إنها شرعة الغاب، حيث لا يجد الضعيف أمامه حلاً سوى الاستسلام للمصير المحتموم، وحيث لا يجد القوي في نفسه أي باعث على الرحمة، ولا في محيطة أي رادع عن العدوان؛ إذ إن من طبيعة الانحطاط أنه يهمش النبل والنبلاء، ويتيح للمتوحشين قوة إضافية!

٤ - الاهتمام بالإجماع دون مضمونه:

الاختلاف في الرأي والمزاج والرؤى الحياتية عامة سُنة من سنن الله - تعالى - في الخلق. والوعي بالخصوصية قد يكون عامل إثراء ونمو.

في القرون الأربع الأولى كان الناس يجتهدون ويختلفون، ويجعلون من الخلاف مادة للتحرر الذاتي من ريبة التقليد، وريقة القطيع، ولكنهم كانوا يعرفون أيضًا كيف يختلفون، أي يجعلون خلافهم مؤطرًا، يقف عند حد ترسمه الأصول والقطعيات، وهكذا تكون الأمم في أيام نهضتها. إن الاجتهاد يجعل الأمة تنفتح على الجديد والمغاير، ويتم من خلاله استعادة الفردي والخاص، والذي ينتهي عادة من خلال الرغبة الجامحة في الإجماع والتوافق.

في أيام الأفول الحضاري والانحطاط المدني، يفقد الناس الحس والحسد الاجتهادي، فهم يعجزون عن اكتشاف الأرضيات المشتركة للإجماع الوطني، فيسود بينهم التنافي والتنابذ، ويولد ذلك لديهم نوعاً من الوحشة، فيندفعون نحو النقيس وتبذل محاولات مستميتة من أجل (تنمي المجتمع) حيث يضيق الناس ذرعاً بالاختلاف والاجتهاد، ويرون النجاة في التوحد والتشابه.

والعلمة العاتية التي تحتاج العالم اليوم، يقودها الاقتصاد، ونظام التجارة العالمي. وهو نظام يعنيه أولاً حصد المكاسب وجنى الأرباح، وكل

ما عدا ذلك يُعد هامشياً. في ظل هذا النظام يصبح التنميط شيئاً مستحبأً، وهو مطلوب في إنتاج الأشياء من أجل سهولة التعامل معها. ومطلوب أيضاً في الناس من أجل سهولة قيادتهم والسيطرة عليهم. مقوله (الزبون دائماً على حق) الرائجة في عالم المال والأعمال س يتم من الآن فصاعداً تعميمها على مجالات عديدة، ففي الطب الخاص سيكون الشعار: المريض دائماً على حق. وفي التعليم الخاص سيقال: الطالب دائماً على حق. وسيقال فيما بعد: القوي دائماً على حق، ومن يملك دائماً على حق. وعلى الضعفاء والمحروميين السلام!

المهم أن يجمع الناس على شيء بقطع النظر عن مضمون ذلك الإجماع؛ فالتلتفيق هو سيد الموقف. والتسويات - من كل نوع - هي المهارة التي ينبغي أن يتعلمها الجميع مهما كان ذلك على حساب الرأي الحر، ومهما أدى ذلك إلى خيانة الحقيقة الناصعة. وهكذا يصبح الإجماع شكلياً، بل مظهراً من مظاهر النفاق الاجتماعي، وانحطاط الشخصية، ووسيلة لتحقيق المنافع!

وعلى الوعي أن يعرف كيف ينتقض، ويتحرر من ذلك.

٥ - الشعور بالهزيمة:

المشاعر انعكاسات طبيعية للظروف التي يعيش فيها الإنسان؛ ومن العسير على الواحد منا أن يتمتع بمشاعر الانتصار، وهو في غمرة الهزيمة، كما يعسر عليه أن يتتجنب الشعور بالزهو والاعتزاز، وهو في أوج الظرف والنجاح.

لم يكن الانحطاط انحطاطاً إلا لأن معظم الأشياء في أيامه، تكون في غير الموضع الذي ينبغي أن تكون فيه، حيث يضطرب نظام الكون المعنوي في عقول الناس وقلوبهم، فيرى كل شيء على غير ما ينبغي أن يرى عليه، حتى القدرات الذاتية والإمكانات الكامنة، والأفق الراحبة التي تنتظر من

يرتادها، كل ذلك يمسي مغلقاً بغشاوة التخلف، فيرى مقزماً أو مشوهاً. ومن الطبيعي أن يخشى الناس مما لا يشكل أي مصدر تهديد لهم^(١)، كما أن من الطبيعي أن يفقدوا روح المخاطرة والمخاطرة، فهم حين يقلبون نظرهم في واقعهم وفي تاريخهم القريب، لا ينطبع في أذهانهم سوى صور الإخفاق المتكرر؛ حتى أحاديث المجالس، فإنها تدور حول انسداد الأفاق وانعدام الآمال. وإذا ما ذكر أحدهم قصة نجاح، فإنه يُرد عليه بذكر مئة قصة إخفاق، حين يفهم الحاضرون أن النجاح في زمانهم ولدتهم ليس أكثر من شيء استثنائي شاذ!

ما يحسنه الناس أكثر من أي شيء آخر، هو أن ينقسموا إلى فريقين: فريق متهم، وفريق ينصب عليه الاتهام. وهم بالطبع لا يتفقون على ذلك؛ ففي مجالس الضعفاء والمقهورين يكون المتهمون هم السادة والأثرياء والمتغذيون، وفي مجالس هؤلاء يكون أولئك موضع الاتهام. ويصعب على كل فريق أن يبحث عن إسهاماته في مأسى الوضع الراهن؛ لأن ذلك يرتب مسؤولية، ويقتضي عملاً، والحال أنه لا أحد يريد أن يعمل أي شيء!

في حالة الانحطاط تكثر الأحلام الوردية، ويكثر طرح المشروعات الكبيرة التي تعقد عليها آمال تغيير وجه المجتمع ولامامحه، ولكن المفقود دائماً الخطط المرحلية والسياسات والأساليب التنفيذية، فالناس هنا على الرغم من بطيء حركتهم مغرمون بالقفز في الهواء، ويكرهون الحديث عن العمل التراكمي، أو عن خطط طويلة الأجل، فطول النفس في العمل شيء ممل، وثماره بعيدة، وهم - كما يقال - يريدون شيئاً يضعونه على النار، ولكن ليس أي شيء!

في زمان الانحطاط، لا يتم تقديم الناس على أساس الأخلاق،

(١) حين غزا التتار بلاد المسلمين جاءت امرأة ترتية، وأمرت مجموعة من الرجال أن يتمددوا على الأرض، وذهبت هي تبحث عن حجر ترخص به رؤوسهم. وقد فعلوا ما أمرتهم به ظناً منهم أنها رجل!

ما
كما
بون
بور
افق
مئة
أكثر
بين:
لـك؛
نـيراء
علـى
برـتب

ـعات
ـمفقود
ـعلى
ـد، عن
ـشيء
ـالنار،

ـجال أن
ـ فعلوا ما

فالأخلاق شيء متوارٍ، ويفسر تفسيراً خاطئاً، وقد يفهم على أنه شكل من أشكال الضعف والاستكانة والتهمس؛ كما أن تقديم الناس لا يتم على أساس الكفاءة؛ إذ إن الفساد الإداري، يكون أحد مظاهر الانحطاط، ولذا فإن الذي يمنع الولاء يقدم على الأكفاء والأخلاقيين من الناس حتى يؤدي وظيفته في استمرار دوران العجلة نحو الخلف!

إن كل ما ذكرناه عن أخلاق الانحطاط وقيمـه - وهو قليل من كثير - هو مصدر من مصادر إرباك الوعي، إذ يصعب عليهـ في كثير من الأحيان أن يحدد ما إذا كانت هذه الأخـلـاق نتـائـجـ للـتـحـلـفـ الحـضـارـيـ أوـ أـسـبـابـ لـهـ. ولو أنهـ تمـ تـدـريـبـ وـعيـناـ عـلـىـ التـحـلـيلـ لـانتـهـيـ منـ غـيرـ عـنـاءـ إـلـىـ أنـ قـيمـ الـانـحـطـاطـ تـنـشـأـ أـوـلـأـ، وـتـسـهـمـ فـيـ إـحـدـاثـ وـضـعـ منـحـطـ، ثـمـ لـاـ يـفـتـأـ ذـلـكـ الـوـضـعـ أـنـ يـعـودـ عـلـيـهاـ بـالـتـغـذـيـةـ الـمـرـتـدـةـ، فـيـضـخـمـهاـ، ثـمـ تـقـومـ هـيـ بـتـرـسيـخـهـ فـيـ حـرـكـةـ جـدـلـيـةـ سـيـثـةـ، وـدـورـةـ رـدـيـةـ مـغلـقةـ.

أخـلـاقـ لـكـلـ الـأـزـمـانـ:

ذكرنا قبل أنـهـ فيـ عـالـمـ المـثـلـ وـالـقـيمـ وـالـأـخـلـاقـ قـوـاسـ مشـترـكةـ كـثـيرـةـ بـيـنـ الـبـشـرـيـةـ، وـأـنـ الـخـلـافـ الجـوـهـريـ بـيـنـ أـخـلـاقـ الشـعـوبـ يـتـبـدـيـ أـكـثـرـ ماـ يـتـبـدـيـ فـيـ سـلـمـ الـقـيمـ وـفـيـ السـنـدـ أـوـ الـأـسـاسـ الإـلـزـامـيـ لـلـأـخـلـاقـ، وـحـينـ يـصـبـ الذـبـولـ قـيـمةـ مـنـ الـقـيمـ، فـإـنـهـ فـيـ الغـالـبـ لـاـ تـسـقطـ مـنـ معـجمـ الـأـخـلـاقـ، وـلـكـنـهاـ تـتوـارـىـ أـوـ. إـنـ شـتـ. تـتـشـرـنـقـ بـاـنـتـظـارـ ظـرـوفـ موـاتـيـةـ لـظـهـورـهاـ وـنشـاطـهاـ مـنـ جـدـيدـ.

أـمـةـ إـلـسـلامـ بـحـاجـةـ الـيـوـمـ إـلـىـ أـنـ تـجـدـدـ وـعـيـهاـ بـالـوـاقـعـ الـذـيـ تـعـيـشـهـ، وـبـالـتـحـديـاتـ الـتـيـ تـتـنـظـرـهـاـ، لـتـكـتـشـفـ بـعـدـ ذـلـكـ الـوـضـعـيـةـ الـجـدـيـدةـ الـتـيـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـكـونـ عـلـيـهاـ سـلـمـ الـقـيمـ لـدـيـهاـ.

فيـ حـالـةـ الشـدائـدـ نـحـتـاجـ إـلـىـ أـنـ نـعـلـيـ مـنـ شـأنـ قـيمـ التـلاـحمـ وـالـصـبرـ وـالـحـلـمـ وـالـجـدـيـةـ وـالـتـفـاؤـلـ وـسـعـةـ الـأـفـقـ. . . وـفـيـ أـوـقـاتـ التـحلـلـ الـقـيـميـ نـكـونـ

بحاجة إلى إعلاء شأن التقوى والعلمة والزهد وتماسك الشخصية، وإيثار الآجل على العاجل، ودعم الجانب الروحي... ومع أن جميع هذه القيم مطلوبة في كل حين، إلا أن الظروف التي نمر بها قد تتطلب التركيز على بعضها من أجل تجاوز المرحلة التي نمر بها.

البداية دائماً فكرية، وإعادة بناء المنظومة الأخلاقية للأمة، تتطلب الوصول إلى مقدمات فكرية جديدة وواضحة، يتم من خلالها تشخيص طبيعة الأزمة الأخلاقية التي نمر بها، ثم تحديد القيم والأخلاق التي يتطلب الانطلاق الجديد التركيز عليها، ثم إشاعة كل ذلك بين أبناء الأمة حتى يفتح وعيهم عليها.

ليس من السهل على الناس أن يغيروا سلوكيهم وعاداتهم، كما أن ما يحملونه من نظم رمزية وثقافية، يجعلهم ينفرون من القيم التي لا يشعرون أن لها جذوراً تاريخية وشعرية لديهم، ولذا فإن من المهم بمكان إضفاء الصبغة الشرعية والترااثية على كل القيم والمثل التي يستنهض الناس لحملها والامتثال لها.

وإذا تأملنا في سيرة المصلحين العظام وجدنا أنهم دائماً يتخذون من أمجاد الأمة ورمزياتها وإمكاناتها المحدودة المتوفرة رأس جسر للعبور نحو ما هو مطلوب. وربما كان من الأخطاء الكبرى التي وقع فيها كثير من دعاة النهضة محاولتهم سلخ المنظومة الأخلاقية التي يدعون إليها عن مبدأ العبودية لله - تعالى - والرغبة فيما عنده، والخوف من الجزاء الأخرى. ولا يخفى أننا نشهد اليوم تياراً عاتياً، يزين للناس كل أشكال الإرضاء المباشر لزواجهم وحاجاتهم المادية بعيداً عن القيود الأخلاقية التي على المسلم أن يراعيها في ذلك، مع أن التاريخ لا يتتطور، ولا يتحرك إلا بسيطرة عالم القيم والأخلاق على سلوكيات الناس وموازناتهم في قضاء حاجاتهم وإشباع رغباتهم؛ وهذا هو التقدم الأخلاقي الحقيقي.

إن كثيراً من وسائل الإعلام يشجع - تصريحاً أو تلميحاً - الحرية

نار
يم
لى
ب
ص
لب
نتى
؛ ما
رون
سفاء
ملها

، من
نحو
دعاة
مبدأ
يوي..
رضاء
على
ك إلا
قضاء
الحرية

الجنسية، ويغny إمكانات العبث واللهو، كما أنه يغذي أحالم اليقظة من خلال ما يبيه من صور بما لا مزيد عليه.

أما إغناe عالم القيم والأخلاق بالمبادئ والنماذج الراقية، وأما توسيع قاعدة الفهم، وتحسين إمكانات التفكير، وتلمس الغايات النهائية لنشاطنا المحموم، فهذا آخر ما يتم التفكير فيه، حتى أصبح الرجل الحديث يفهم كل شيء عن وظيفته وعمله ما عدا المقاصد النهائية لوجوده، وموضعها في نظام الكون.

قد نتج عن إفقار عالم القيم وإهماله سباق محموم نحو جمع المال، والبحث عن النفوذ والسلطة، وإيجاد طرق جديدة للاستهلاك، والانغماس في كل ما هو مادي ومحسوس؛ مع أنه في المجال الأوسع للوجود الإنساني، يكون احتياجنا الأكبر ليس إلى إنسان صحيح الجسم، قادر على الإنتاج والاستهلاك، وإنما إلى إنسان ذي مطالب أقل حسية، وألصق بعالم المثال والمعنى؛ فالإحساس بالهدف والطمأنينة والراحة العقلية والتلقائية والعاطفة والمرح والخوف والعجب والقدرة على المخاطرة... هي التي تبني الإنسان تميزاً في عالمه الخاص عن باقي المخلوقات.

ربما احتاج بناء القيم الجديدة إلى جانب إضفاء المسحة الشرعية والتراثية إلى الاستناد على قناعة عقلية واضحة، فطبيعة التركيب الذهني للإنسان، تجعل تفاعله مع القيم السامية مشروطاً بحصول قناعة عميقة لديه بها.

إن عملية بناء القيم عملية مستمرة لا تتوقف أبداً، ما دامت الأرض تستقبل كل يوم وافدين جددأ، وما دام الإنسان يتنقل من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، ومن ظرف إلى ظرف، مما يتطلب منه تكيفاً أخلاقياً دائماً. وتقع على الأسرة المهمة الكبرى في تكوين الاتجاهات الأولية لدى الطفل، فهي التي تتولى - على نحو أساسي - رسم الخطوط العريضة لشخصيته، ويأتي بعد ذلك دور المدرسة ووسائل الإعلام وال العلاقات الاجتماعية، حيث تنمو القيم من خلال التفاعل الاجتماعي.

ومن المهم أن تكون على وعي بأن القيم والمثل والأخلاق التي يؤمن بها مجتمع ما، لا يلقنها لأطفاله من أفق طبيعتها وصفاتها المطلقة، أي لا يقدمها مجردًا من اعتبارات الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يمر بها.

إن لكل مجتمع عقیدتين: عقيدة نظرية وعقيدة اجتماعية. وعقيدته الاجتماعية، هي مزيج من قيمه ومبادئه ومصالحه وخبراته الحياتية.

فالآم مع أنها تعتقد - نظرياً - بحرمة الكذب إلا أنها حين تتوقع حدوث أخطار لولدها إذا قال الصدق، أو كان صريحاً في موقع ما، فإنها قد تتصحّح بعدم النطق بالحقيقة، وقد تؤنبه إذا فعل ذلك، وهي إذ تفعل ذلك، فإنها تنطلق من أفق عقidiتها الاجتماعية، التي تتواءل في داخلها المبادئ والمصالح، وهذا كلّه يعني أن البناء القيمي حين يتم في ظروف العوز وال الحاجة، أو في ظروف الاستعمار والاستبداد والقهر، فإنه يكون بناء مشوهًا، لا يعكس صفاء القيم الإسلامية، ولا روعة الأخلاق التي نقرأ عنها في الكتب، أو نلقنها لأطفالنا في المدارس.

ولهذا فإن على الذين يصوغون الخطاب التربوي، ويقدمون الأحكام القيمية والمعيارية للناس - ولا سيما الناشئة - أن يسعوا إلى الوضوح التام بشأن كل المفردات الأخلاقية، وأن يضعوا من الاحترازات والتنبيهات ما يجعل ما يتحدثون عنه في غاية الوضوح والبيان، وإنما الأحكام القيمية تصبح مصدر تشويش ذهني، فالناس مستعدون دائمًا لتأويل القيم وتحريفها، بل تفريغها من محتواها.

كل الأمم تلقن صغارها، وتحمل بين جوانحها قيمةً ومثلاً معينة، لكن كثيراً ما يكون الواقع الأخلاقي سيناً أو متدهوراً، وذلك بسبب عدم وجود مشاركة جيدة في بناء الحضارة المعاصرة؛ فالأخلاق تذبل، والحسنة الخلقة (الضمير) تضعف ما لم تجد ما يغذيها من الفعالية الحضارية وملائسة الواقع بكل معطياته، بل إن العيش على هامش الحياة، كثيراً ما يكون مصدراً

ن
لا
ني
ته
قع
انها
عل
لها
وف
بناء
عنها

نكام
النام
، ما
بمية
، منها
لكن
وجود
خلقية
الواقع
صدرأ

للتخلل الذاتي^(١). العلم الذي نحمله والطاقات التي نمتلكها، والأنشطة التي تقوم بها، يجب أن تخضع للأمر الأخلاقي، وتشبع بمقتضياته، كما يجب أن تظل مرتبطة بالأهداف العامة للأمة، وإلا فإنها تحول إلى أدوات تكرس الأنانية والتزعة المادية لدى صاحبها، وإن النجاح حين يصبح عبارة عن ان gul من الإطار الاجتماعي، أو لا يتم إلا به، لا يورث صاحبه سوى مشاعر الاغتراب والقلق وتشتت الجذور.

إن علينا مسؤولية خاصة تجاه القيم التي تشربناها من مجتمعاتنا، وهذه المسؤولية تفرض علينا أعمالاً مزدوجة، فتحسن مطالبون بالقيام على حفظها ونقلها إلى الأجيال الجديدة، كما أنها مطالبون أيضاً بتنقيحها وتصحيحها، وتوسيع مدلولاتها، بحيث تصبح أكثر وضوحاً وصلابة وأيسر تناولاً.

نحن مطالبون بعد هذا وذلك بتوضيح القيم المركزية التي علينا أن نشبع بها في كل الأزمنة، لأنها تشكل محاور أساسية لكل أشكال الفلاح والنجاح، وحتى يتخذ منها الوعي المسلم معايير يستند إليها في إصدار الأحكام الأخلاقية.

ولعل منها الآتي:

- إيثار الدائم على الزائل، والأجل على العاجل، أساس كثير من القيم والأخلاق النبيلة، وحين يتمكن هذا المعنى في وعي الإنسان، ويتجلى في سلوكه، فإنه يكون قد بدأ يزن بموازين الله - تعالى - فالدنيا وما إليها شيء عاجل وزائل، والآخرة وما إليها في الأجل الدائم، وقد قال - سبحانه - : «بِلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ وَآبَقَنَ ۝»^(٢) . وقال: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْمُرْتَوِيِّ»^(٣) .

(١) يعطي كثير من السود والهنود الحمر في أمريكا الشمالية نموذجاً واضحاً على هذه الفكرة.

(٢) سورة الأعلى: الآيات ١٦، ١٧.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٦.

حين نجسّد هذه القيمة في حياتنا، تكون قد أنزلنا كل النجاحات التي نصيّبها في هذه الدنيا في إطارها الصحيح، كما تكون قد حكمنا على كل البلايا والشّرور التي تصيّبنا في هذه الدنيا بالحكم الصحيح، ومن خلال هذا وذاك تنبثق الشخصية الفريدة والمتوازنة، التي تحرّص على العطاء أكثر من الأخذ، فتتسع الدنيا الضيقّة، حيث تتصل بعالم الآخرة الفسيح.

- الكرامة فوق القوّة، والذاتية فوق الملكية؛ هذا هو الشعار الذي يجب أن نستلهم منه إدارة الصراع المحتدم داخل كل واحد منا.

إن امتلاك القوّة - والتي تتجلى في المال والنفوذ - لا ينبغي أن يتم أبداً على حساب كرامة الإنسان ومراؤته؛ وقد كانت العرب تقول: «تجوّع الحرة، ولا تأكل بشديها»^(١). وحين نقدم الذاتية على الملكية، فهذا يعني أننا نحصّن أنفسنا من التنازل أمام (الشيء)^(٢) والخضوع لشهوة الاقتناء والتکدیس التي أصبحت اليوم تُضوّغ تطلعات الناس وسلوکاتهم.

- الاهتمام والشعور بالمسؤولية، واحد من أهم القيم والمبادئ الأخلاقية. وعلى مدار التاريخ ظل الإهمال، وعدم الاعتراف مصدرًا لأكبر الشرور التي يتعرّض لها الإنسان في جميع مجالات الحياة. يعني الإهمال إخراج الإنسان لنفسه من نظام الكون، والتغاضي عن مستحقات ومستلزمات وجوده المعنوي والمادي؛ على حين يجسّد الشعور بالمسؤولية إحساس المرء بثبيّعات إرادة الحياة، والتقدّم في دروب الخير والفلاح، وإحساسه بألم التدهور الذي يمكن أن يتعرّض له نتيجة ترهّل حساسيته تجاه الواجبات الملقاة عليه.

السباقون من الناس، يمتازون بإدراكهم لمسؤولياتهم على نحو لا يبلغه الأشخاص العاديون، وهذا ما يوحّي به قول عمر - رضي الله عنه -: «والله

(١) المعنى: تجوّع الحرة، ولا تؤجر نفسها لإرضاع أبناء الناس.

(٢) تنازل أحد الصحابة - رضوان الله عليهم - عن جميع ما يملك لکفار قريش في سبيل أن يسمحوا له بالهجرة إلى المدينة! .

لو عثرت شاة في أرض العراق لخشيتك أن يسألني الله عنها: يقول: لمْ لَمْ تُعْنِدْ لَهَا الطَّرِيقُ؟ وكثيراً ما يكون الاهتمام هو الحد الفاصل بين الأعمال الناجحة والأعمال المخفقة.

- الاستقلالية في الحكم والتقويم، واتخاذ القرار، وتنظيم رد الفعل، من القيم المهمة في نضج الشخصية. إن الطفل يلقي أعباءه على غيره، والناضج يتحمل مسؤولياته تجاه شؤونه. ومع أن على المرء أن يستشير، لكن اتخاذ القرار النهائي لن يقوم به أحد سواه.

الشخص المستقل يحيا بمعظم خصائصه النفسية، ويدرك أبعاد ذاته، ولذا فإنه يتأنى على أن يكون إمامة أو سلعة للمتاجرة وبذلك يعزز درجة الرشد الاجتماعي. ومع أن للتربية أثراً في تكوين الشخصية المستقلة إلا أن المرء يستطيع من خلال وعيه بنفسه ومحبيه أن ينمّي في ذاته هذه القيمة ويصقلها.

- الحكمة إحدى أكبر خصائص الشخص الناضج أخلاقياً. وهي لا تعنى الذكاء أو التفكير بمقدار ما تعنى تساوق معتقدات الشخص وتصرفاته وردود أفعاله مع أحكام العقل، وتناسبها مع الخبرات والمعلومات المتوفّرة، وقد ذكر الله - سبحانه - مدى الفضل الذي يحوزه من اتصف بهذه الصفة حين قال: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةً فَقَدْ أُوْفِيَ حَيْثُ كَيْرِرُ»^(١)، حتى يكون المرء حكيماً فإنه بحاجة إلى ما هو أكثر من الفهم؛ فال موقف الحكيم يتطلب معرفة جيدة وإرادة صلبة وقدراً مقبولاً من الشفافية والذكاء؛ وعلى مقدار اكتمال هذه العناصر الثلاثة لدى المرء يكون اكتمال ما لديه من حكمة. ولا بد مع كل هذا من التدريب على مقاومة الأهواء، ومحاولة النفاذ إلى جوهر الأمور.

- الانفتاح وتقبل الجديد مهم لعيش عصرنا بكفاءة، حيث تم إعادة

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

صياغة كل شيء على نحو مستمر، ولا نعني بما نقوله أن نكيف أخلاقنا ومبادئنا ومقولاتنا مع الجديد، فهذا غير جائز ولا صحيح، ولكن المطلوب أن تكون مستعدين لتلمس الحق، ومحاولة فهم الأفكار الجديدة، وسماع وجهات النظر المختلفة مهما كانت فجة، إلى جانب الاستعداد لمراجعة طروحاتنا وأفكارنا التي نشأنا عليها في ضوء ما نصل إليه. وأخطر ما يصدنا عن ذلك، ويضع الغشاوة على بصائرنا، هو البرمجة البيئية والثقافية التي تعرضنا إليها في حياتنا.

وقد ركز القرآن الكريم دائمًا على تحريرنا من اتباع الهوى والظن، والسير خلف الآباء والكبار دون تمحيص لما هم عليه؛ لكن يبدو أننا لم نستطع توسيع مدلول النصوص الكريمة في هذا الشأن، كما لم نستطع الفاذ إلى أعماق النص القرآني بما يكفي لاستخراج رؤية تحررية من (القولبة) التربوية التي صاحت وجودنا المعنوي عبر حياتنا المديدة. وأعتقد أن من أولويات تجديد الوعي التأمل ملياً فيما علينا أن نفعله في هذا الشأن.

- الريادة والسبق في ميدان واحد على الأقل من ميادين الحياة من السمات المهمة التي يطالب كل مسلم اليوم أن يتخلّى بها. إن كثيرين من المسلمين لم يشعروا حتى الآن بالمنافسة المحمومة التي تجتاح العالم من أدناه إلى أقصاه. وفي ظل هذه المنافسة المتتصاعدة، سوف تسحق أجيال بأكملها تحت وطأة الحاجة والضرورة والظلم، وستكون الكفاءة والأهلية والريادة أهم الحصون التي يتحصن بها المرء من ويلات (العولمة) ونظام التجارة الأعمى الأصم، والأخذ في الرسوخ والانتشار.

إن الهوة الفاصلة بيننا وبين الأمم الأخرى آخذة في الاتساع في مجالات التدريب والتصنيع والاختراع والاكتشاف؛ وإن المساهمة في حل المشكلات الناجمة عن هذه الوضعية لن تكون من وظيفة الدول أو النخب وحدها، وإنما هي إمكانية كامنة لدى كل مسلم.

لا بد من إصرار عام على النجاح، ولو أن الواحد منا تأمل فيما

يسمى اليوم بـ(شروط النجاح) لوجود أنه ما من شيء يؤدي إلى النجاح إلا ارتبط بصفة أو وضعية يبحث عنها الإسلام. وكل من يتحقق بذلك الصفة، يصيّب قدرًا من النجاح حتى لو كان غير مسلم.

إن الريادة التي علينا أن نجعلها قيمة اجتماعية ثابتة ومتألقة، لا تكمن في تقليد أي أمة من الأمم - مهما كان شأنها - وإنما في اكتشاف طريق خاص في أدبياته وأهدافه، يؤدي بنا إلى رriادة الإنسانية، وتتصدر موكب التقدم. وليس هذا بالأمر المستحيل إذا توفر لدينا ما يكفي من الغيرة والوعي والعزم.

- إلى جانب الأخلاق التي أشرنا إليها، والتي يمكن وصفها بأنها أخلاق فردية، هناك جملة من الأخلاق الاجتماعية التي يجب أن تشيع في المجتمع المسلم؛ لتشكل المحيط الذي تتغذى منه الأجيال الجديدة، وتتنفس فيه. وهي في الحقيقة كثيرة، منها: الإيثار والتعاون والعدل ومحاربة الظلم ومحاصرة الشر والفساد، وتعود الشورى في عظام الأمور وصغرائرها، إلى جانب إعطاء اهتمام خاص بالأطفال والشيخ والضعفاء عامة، واحترام العمل والإنتاج، والمحافظة على المرافق العامة. وسوف نفصل في بعض هذه القضايا فيما بعد؛ إن شاء الله.

وفي الختام فإن تجديد الوعي الخلقي، لا يحتاج إلى كلام كثير، بمقدار حاجته إلى وجود ما يكفي من القدوة والنماذج الخيرة التي تجذبنا إليها دون شعور منا؛ وهذا هو شأن القيم الرفيعة، فإنها تجذب ولا تُفرض، ولا ينفع في ترسيخها التوجيه المبالغ فيه في وسليط فقير بالرجال العظام الذين يجسدون القيم والمبادئ العليا في حياتهم الخاصة وال العامة. وعلى الله قصد السبيل.

www.alkottob.com

التقدير والتباين

التي ن
العالم
علماء
وكان
والتحل
يتصل
ما أسب
إ
اخترع
والاجت
وما ينب
معرفة
ل
أخذت
للعيان
الغربي
و

التقدم والتخلف

التقدم والتخلف والثقافة والحضارة والمدنية والتنمية، من المصطلحات التي نالت حظاً واسعاً من الانتشار والذيع، وكثير حولها الجدل واللغط في العالم أجمع. وقد تناول هذه المصطلحات بالبحث والدرس كثيرون من علماء الأخلاق والإنسان والنفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا والقانون... وكان لهم في كل منها تعريفات كثيرة، كما كان لهم الكثير من الاستنباط والتحليل للأسباب التي تسهم في وجود هذه الظواهر وتطورها. والذي يعني هنا هو تجديد الوعي في مسألتي التقدم والخلف، وما يتصل بهما من مسائل المدنية والحضارة.

ما أسباب التخلف، وما مظاهره؟

إحساس الناس بأن الأحوال ليست على ما يرام شيء ملازم لهم؛ وما اخترع الوعي الإنساني الشكوى من سوء الأحوال، والنقد الثقافي والاجتماعي إلا من أجل أن يؤكد لنفسه أنه يدرك الفارق بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، وإلا من أجل بلورة المعايير التي يستخدمها الناس في معرفة موقعهم بين الأمم.

لكن مصطلح (تخلف) لم يبرز إلا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أخذت حركة الاستقلال والتحرر من الاستعمار في التتابع، وحيث ظهر للعيان - نتيجة ما تم من اختلاط بين الأمم - الفوارق التي تفصل بين العالم الغربي بزعامة أمريكا، وبباقي دول العالم.

وطبيعة اشتقاق كلمة (تخلف) تحمل معنى النسبة، ولذا فلولا وجود

دول متقدمة - على محك ما - لم يكن ثمة ما يمكن أن نسميه بالدول النامية أو المتخلفة. ومع أنه ليس هناك تعريف محدد متفق عليه لهذه الظاهرة المكرورة، إلا أن الحديث عن مظاهرها، يلقي الأضواء على طبيعتها، ويساعد على توضيح ملامحها.

مشكلة المختصين أنهم ينظرون إلى الأمور غالباً من أفق تخصصاتهم، ومن ثم فإنهم يفسرون الظواهر المعقدة تفسيراً جزئياً مُبتسراً، ولذا فإن ظاهرة شديدة العماء والتدخلات كظاهرة (التخلف) وجدت الكثيرين من يعللها تعليلاً سطحياً وخاصةً؛ وقد ذكروا لواقع هذه الظاهرة أسباباً عديدة، انطلقت من منظور رؤى طبيعية وعقدية وأخلاقية عديدة، نذكر منها:

١ - النظرية المناخية:

يرى بعض الباحثين أن جميع البلدان المتقدمة، تقع في البلدان الباردة والمعتدلة، في حين أن معظم البلدان النامية تقع في المناطق الاستوائية الحارة؛ فالمناخ هو السبب الحقيقي للتخلف.

٢ - نظرية فقدان مصادر الطاقة:

يرى أصحاب هذه النظرية أن بلدان (العالم الثالث) عموماً تشكو من ضعف الطاقة المنجمية، وهذا انطلاقاً من أن أوروبا لم تتطور، ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل الطاقة المنجمية المتوفرة لديها.

٣ - النظرية العرقية:

الجنس الأبيض هو الجنس الوحيد القادر على التقدم، نظراً لخصائص هذا الجنس، الذي يمتاز بالمهارة والمثابرة والنشاط، على حين أن بقية الأجناس يسيطر عليها الخمول والكسل.

٤ - التخلف بسبب الأديان القدّرية:

إن البلدان الأكثر تقدماً هي البلدان التي تعتقد المذهب (البروتستنني)،

فهو المذهب الذي يبحث الإنسان على التقدم والتطور. أما الأديان القدّرية المسيطرة على بقية بلدان العالم، فهي السبب في التخلف. وعلى شعوب تلك البلدان التخلص منها إذا أرادت أن تخلص من التخلف.

وهذه النظريات كلها إن دلت على شيء، فإنما تدل على قصور نظر أصحابها أو تعصبهم لبلدانهم الغربية. وما من نظرية منها إلا وهي منقوضة بأمثلة قديمة وحديثة عديدة؛ ولا نريد أن نضيّع الوقت في الرد عليها. وإذا كنا لا ننكر أثر المناخ والثروات الطبيعية والانحرافات العقدية في حدوث التقدم والتخلف، لكننا لا نرى أيّاً منها صالحًا للانفراد بتفسير هذه الظاهرة؛ فالظواهر الكبرى تستعصي دائمًا على التفسير بعامل أو سبب واحد. وسلك كثير من الباحثين والمحترفين المسلك نفسه في تحديد ماهية ظاهرة التخلف، وتحديد الوضعية التي إذا كان فيها شعب ما سمي متخلّفًا.

وهناك منظورات ورؤى عدّة، تم من خلالها تشخيص هذه الظاهرة،

منها:

١ - العجز عن تلبية الحاجات الأساسية:

الشائع في الكتابات التي بحثت في مسائل التنمية والتخلف اتخاذ مدى عجز شعب ما عن توفير الحاجات الأساسية معياراً للتخلّف؛ وذلك مثل الفقر، حالة التغذية، المياه الصالحة للشرب، الوضع الصحي، التعليم، متوسط دخل الفرد... ولهم في ذلك تفصيلات كثيرة، وهي - كما هو الحال في النظريات الأخرى - تتخذ من وضعية العالم الغربي نموذجاً تحاكم إليه كل الوضعيات الأخرى.

٢ - المنظور الاقتصادي الصناعي:

يربط هذا المنظور التخلف بضعف التصنيع، وسوء استغلال الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة.

في البلدان المختلفة تكون وسائل الإنتاج بدائية على نحو عام، يطغى عليها الطابع اليدوي الحرفي. وينتّج عن هذا إنتاجية ضعيفة، ودخل

منخفض؛ مما يسبب البؤس للسكان. وإذا وجد في البلد المتخلّف قطاع صناعي متتطور، فإنه يكون بيد قوى استغلال أجنبية، أو بيد صحفة قليلة. وهو عامةً معزول عن باقي القطاعات.

أما بنية الاقتصاد المتخلّف فهي بنية جامدة، على النقيض من بنية الاقتصاد في الدول المتقدمة. وهو نظام تابع يتأثر تأثراً كبيراً بالمحيط الخارجي. السوق الداخلية تكون ضيقة جداً، مما يحرم الاقتصاد المتخلّف من التوازن والاستقرار.

وهو إلى جانب هذا اقتصاد متفكك، وقطاع الخدمات فيه متضخم على حساب قطاع الإنتاجية. ويكثر فيه التوظيف في قطاع البناء، حيث تجمد فيه أموال ضخمة من أجل الشكليات والمظاهر.

أضف إلى كل ما سبق أن المدخرات في المجتمع المتخلّف ضعيفة، وهذا يؤدي إلى قلة الأموال المستخدمة في الاستثمار، مما يؤدي إلى عدم وجود ما يكفي من فرص العمل للشباب. الزراعة في هذا المنظور تستوعب أكثر القادرين على العمل، لكن الإنتاج لا يكفي لسد الحاجات الغذائية للسكان.

وكثير من الكتاب العرب مولعون بهذا المنظور، حتى إنك حين تقرأ في كتبهم تخرج بانطباع عام، هو أن التخلف هو تخلّف الاقتصاد والتكنولوجيا فحسب!

٣ - المنظور الاجتماعي:

يرى فريق من العلماء أن البنية العميقة للتخلّف تكمن في (القصور الاجتماعي) المتمثل في السكان، وفي البنى والمؤسسات الاجتماعية.

أما السكان فأهم المشكلات التي تؤدي إلى تخلفهم، هي الزيادة السكانية الكبيرة التي لا تناسب مع فرص العمل التي يتم توفيرها؛ مما يؤدي إلى تدهور المداخيل، وفسخ العبودية والاستغلال والأمية...

أما البنى الاجتماعية في المجتمع المتخلّف، فهي تخضع للعادات

والتقاليد، وليس للقانون. والمكانة الاجتماعية تحدد أثناء الولادة (تواتر الطبقية)، وليس من خلال الكفاءة والمقدرة. وهي بني تقاوم التغيير والتجديد، وتتمسك بالقديم من غير مسوغ منطقي. وحين تنشأ خلافات فإن الشعوب المختلفة تحلها عن طريق القوة والعنف، وليس عن طريق الحوار والنظام. والاستبداد والقهر هو الأسلوب المتبعة في إدارة شؤونها.

من الواضح من كل ما استعرضناه أن كل فئة من الباحثين تنظر إلى التخلف من أفق عقيدتها وقيمها ومكانتها الفكرية، وخبراتها العلمية والعملية. وكثير مما قيل ليس بعيداً عن الصواب، لكنه ينقصه الاعتدال والشمول والترابط، والأخذ بعين الاعتبار المسلمات العقدية وال حاجات الروحية لدى الناس.

رؤى متكاملة للتقدم والتخلف:

الرؤى التي عرضناها في تحديد ظاهرة التخلف، صيغت من قبل عدد كبير من الباحثين متنوعي المذاهب والتخصصات؛ والحس الإيماني مغيب عنها إلى حد بعيد. ونحن باعتبارنا أمّة رسالة لها خصوصيتها المنهجية والحضارية مطالبون بأن نبلور رؤية خاصة لمسائل التقدم والتخلف. وتلك الرؤية حيوية للوسط التربوي، ومهمة جداً لكل الفئات العاملة على إصلاح المجتمع الإسلامي والنهوض به.

الرؤية التي سأشير إلى أهم معالمها هنا، تنطلق من الرؤية الإسلامية للإنسان والحياة، وهي في الوقت نفسه منفتحة على ما تراكم لدى الأمم من خبرات، وعلى ما تبلور في ثقافتنا من شروط للعيش الكريم والحياة المنيعة.

ولعلي أجمل ذلك في الحروف الصغيرة التالية:

١ - جوهر التخلف:

الخلف - في نظري - نمط من الوجود تنحط فيه الأوضاع النفسية والذهنية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن المستوى المقبول

في معايير المنهج الرباني، وعن الوفاء بمتطلبات العيش الكريم الملائم للإنسان المسلم.

ويستشفّ من هذا أن التخلف ذو بعدين رئيسين^(١):

أ - تخلف عن المنهج الرباني الذي أكرمنا الله به، حيث يكون الاهتداء بهديه، والوقوف عند حدوده ضعيفاً.

ب - تخلف في المستوى المعيشي والمهني والاجتماعي الذي يمكن الإنسان المسلم من تلبية حاجاته الأساسية، ويوفر له المناخ الذي يساعد على القيام بواجباته، وأداء رسالته في الحياة على أحسن وجه.

٢ - نسبية مفهوم التقدم:

كلمة (التقدم) في الأصل ذات مفهوم محайд، فقد يتقدم الإنسان نحو الأفضل، وقد يتقدم نحو الأسوأ، فالطفل يتقدم نحو الشباب والنضج، على حين يتقدم الكهل نحو الشيخوخة والهرم والموت؛ لكن الكلمة صارت تدل في الكتابات الحضارية على الارتفاع نحو الأفضل والأحسن.

ومع هذا فإن الأفضل والأحسن في أحوال الأمم ليس موضع اتفاق دائمًا؛ فالحرية الجنسية في الغرب مظهر من مظاهر التقدم والتحرر الذاتي، وهي في نظر المسلمين مظهر تخلف وانحطاط.

كثرة المصارف الربوية في بلد ما، تعد ركيزة أساسية في النمو الاقتصادي حسب الرؤية الغربية، وهي في نظرنا علامة تخلف، لأن انتشار الربا في الرؤية الإسلامية، لا يكون أبداً دليلاً على صحة الحياة الاقتصادية، ولا على خيريتها. وهكذا فمن أفق تحديدنا لجوهر التقدم يتم تحديدنا لمفهوم التخلف، والعكس بالعكس.

٣ - تقويم وضعية التقدم:

الوعي بأحوال التقدم والتخلف يتطلب - فيما أرى - تجزئة الحالة

(١) فصلنا ذلك في كتابنا (نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي) فارجع إليه إن شئت.

العامة للأمة، وفصل المسارات الحضارية بعضها عن بعض، وسيكون من العسير جداً أن نقول: إن الشعب الفلامي متقدم في جميع الميادين، فهذا غير موضوعي، وفيه تصنيف لشعب من الشعوب، أو لمرحلة تاريخية بعينها؛ فالآم هي في أوج انتعاشها وازدهارها، تعيش بعض أنماط التخلف في بعض منظوماتها الثقافية والأخلاقية، وفي بعض أوضاعها الاقتصادية والسياسية، كما أن الأمم المتدهورة تحفظ - عادة - بعض نقاط القوة والإيجابية، ومن تلك النقاط يمكن أن تنبثق مرة أخرى، وتستعيد بعض ما فاتها.

حين كانت مدن الروم وقلاعهم، تتسلط تحت سنابك خيول المسلمين كان أهل البصيرة من المسلمين يدركون نقاط القوة في الجسد الرومي المنهك، وإن شئت فقل: يدركون جزر التقدم في بحر الانحطاط والخلف الذي كان الروم غارقين فيه إلى آذانهم؛ وقد أخرج مسلم في (صححه)^(١) أن المستورد القرشي قال عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال عمرو: «لئن قلت ذلك: إن فيهم لحساناً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفادة بعد مصيبة، وأوشكهم كرّة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».

بالفصل بين مجالات الحياة المختلفة يستطيع الوعي أن يقبض على البنى المتقدمة، ويميزها عن البنى المتخلفة في البلد الواحد، والشعب الواحد، والجيل الواحد.

صحيح أن كل جانب من جوانب الحياة الحضارية، يعكس في النهاية على نحو ما على الجوانب الأخرى سلباً وإيجاباً، إلا أن هناك اعتبارين آخرين: الأول: أن التأزم حين يصيب مجالاً من المجالات الحضارية، فإنه يسمح للمجالات الأخرى أن تتحرر، وتنمو، وبذلك فإنها تناول وضعية جديدة مغايرة.

(١) رقم (٢٨٩٨).

الثاني: أن هناك دائمًا فترة سماحات بين المقدمات، والنتائج، فالتأزم الأخلاقي - مثلاً - لا يظهر تأثيره على نحو سريع في اقتصاد قائم على قواعد تنظيمية ومالية متينة؛ كما أن الأمة قد تربح أرضاً ثابتة لأفكارها ومبادئها في نفس الوقت الذي تخسر فيه عسكرياً، أو تتفكك سياسياً. وهذا ما وقع لأمة الإسلام، فقد كان الإسلام ينتشر بفضل جاذبيته الخاصة، وجهود بعض الدعاة من التجار في جنوب شرق آسيا، في الوقت الذي كان فيه المسلمون يخسرون المعارك الحربية الواحدة تلو الأخرى في الأندلس.

في القرن الرابع الهجري اتسع العمran، وارتقت جوانب كثيرة في معيش الناس، وانتشر العلم والعلماء - ولا سيما في العواصم الإسلامية - وترسخت بنية حضارية عظيمة، لكن نصر إلى جانب هذا تفككاً سياسياً وانحللاً أخلاقياً، كما نبصر انتشار عقائد وفرق ضالة، والتيار الروحي الذي كان يسيّر كثيراً من المراكب الإسلامية في الصدر الأول، تضاءل لصالح تيار عقلاني، وأخر شهوانى. وحين نقرأ أحداث ذلك القرن من أفق هذه الملامح، فإننا نستطيع (تقسيم) الوضع الحضاري الذي كان سائداً آنذاك دون إسراف في المديح، أو إيجاز في القنوط والتشاؤم.

وفي المقابل فإننا نستخدم المعيار نفسه عند النظر إلى الحضارة الغربية الحديثة، وهي حضارة، تمزج بين أعلى درجات التقدم والرقي، وأعلى درجات الانحطاط والتخلف؛ فعلى مقدار ما ترى من تقدم في مجال مساعدة الضعيف وكفالة الفقير وحسن التنظيم، واللجوء إلى القانون في حل المشكلات الداخلية، ترى أبغض صور التخلف في تفكك الأسرة، والغوضى الجنسية، وضياع الشباب، وقدد الحياة العامة لغاياتها النهائية، والإدمان على المسكرات والمخدرات، والعدوان على الشعوب والأمم الفقيرة، ونهب خيراتها.

٤ - استيعاب الوعي للتقدم:

من أخطر المشكلات التي تواجه الوعي الإنساني قابلية الشديدة

للوقوع في أسر اللحظة الحاضرة، والمعطيات الجاهزة، والبيئة المحيطة. وعلى مدار التاريخ كان كبار المفكرين والمصلحين، يحاولون إيجاد مداخل تجعل الوعي ينفتح على الماضي والمستقبل، وعلى القريب والبعيد والبسيط والمركب، والكلي والجزئي، على أمل أن يظل على درجة من التحرر، تمكّنه من التعامل بشفافية مع واقع الانحطاط، وإمكانات التقدم، ولا سيما الكامن منها.

وإذا أمعنا النظر في المنهجية الإسلامية في هذه المسألة وجدنا الآتي:

أ - بناء الوعي الرزين الذي يملك أنساقه ونمادجه الخاصة، فلا يستخفه الخير والرخاء، ولا تقنطه المحن والأزمات، فهو قادر دائماً على أن يدمج كل الطوارئ في رؤية أشمل، وهذا ما نلمسه في قوله - جل وعلا - : **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾** **﴿لَكُلَا ثَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَنْقَرُوا بِمَا مَائَدَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَحُورٍ﴾**^(١). وذم الكفار الذين يستبشرون بالخير، ويقطّعون عند الشدة، فهم أبداً ألعوبة في يد الأحوال المتقلبة فقال سبحانه: **﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبَسِّطُهُ فِي السَّمَاءِ كَفَ يَشَاءُ وَجَعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُوَ يَسْتَبِّرُونَ ﴾** **﴿وَلَمَّا كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمْ يُلْسِنُ ﴾**^(٢) ثم قال: **﴿وَلَمَّا أَرَسَنَا عَلَيْهَا فَرَأَوْهُ مُضْفَرًا لَظَلَوْا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾**^(٣). وكان الواجب أن يدعوا الله ويستغفروه وقت انحباس القطر، ويشكروه عند نزوله.

ب - قص القرآن الكريم علينا أحوال الأمم السابقة، وعلاقة أنبيائها بها وبسلطينها وكبرائها، وقد حرص القصص القرآني على أن يلقي في

(١) سورة الحديد: الآيات ٢٢، ٢٣، ٤٩.

(٢) سورة الروم: الآيات ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة الروم: الآية ٥١.

روع الأمة أن رسالات الأنبياء ﷺ تملك طاقة الانتصار والغلبة مهما كانت فداحة الخطوب التي تواجهها، كما يحرص الفuccus القرآني في الوقت نفسه على أن ينبه الوعي المسلم إلى أن معونة الله - تعالى - كانت تأتي للنبي ﷺ من حيث لا يحتسب، وفي اللحظة الأخيرة، وذلك حتى لا ن Yas أبداً، وانقع تحت ضغط الإمكانيات والأسباب المتوفرة، بل نصل أسبابنا الضعيفة والمحدودة بمسبب الأسباب - سبحانه - فيتغير كل شيء؛ وهذا ما نلمسه في قوله - سبحانه - : «**حَقٌّ إِذَا أَسْتَيْسَ الرَّسُولُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاهَهُمْ نَصَرَنَا فَنَجَّى مَنْ نَشَاءَ وَلَا يُرِيدُ بِأَنْسَنَا عَنِ الْفَقْرِ الْمُجْرِمِينَ**»^(١). ونجده واضحًا في أخبار نهايات المعارك بين العديد من الأنبياء وبين أعدائهم من الكافرين؛ فقد نجى نوحًا ومن معه في الفلك، كما نجى إبراهيم من النار، وموسى وقومه من اليم، ويونس من بطن الحوت. ولا ننسى ما وثقه القرآن الكريم من نجاة رسول الله ﷺ من كفار قريش إذ دخل الغار، وكذلك نصره في بدر والأحزاب وحنين... وهذا كله يرمي إلى أن نظل محتفظين بالأمل مهما كانت الحال، وأن كثيراً من الأزمات يظل قابلاً للتجاوز، كما أن العاقب قد تكون رخاء ونصرًا مبيناً.

ج - لدينا العديد من النصوص التي تؤكد أن التدهور والانحلال ليس شيئاً خطياً متصلًا؛ فهناك دائمًا إمكانية لإدخال نوع من التحسن على أوضاعنا العامة، بل إن عدداً من النصوص ينبئنا إلى أن الكروب والشدائد تواري في داخليها نوئيات للانفراج والرخاء والتقدم، وهذا ما نجده جلياً في قوله - سبحانه - : «**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ^{٦٥} إِنَّ مَعَ الْمُتَّرِ يُمْرًا ^{٦٦}»^(٢) وما نجده في وصية النبي ﷺ لابن عباس: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(٣).

وتبشر نصوص عدة بأن تاريخ هذه الأمة سيظل يشهد موجات من

(٢) سورة يوسف: الآية ٦٥.

(١) سورة يوسف: الآية ١١٠.

(٣) أخرجه أحمد والترمذى.

الصلاح والإصلاح على الرغم من خسارتها لبعض المواقع، وعلى الرغم من تراجع بعض جوانب الخير فيها، ومن تلك النصوص الحديثة التي أخرجه أحمد والترمذى: «مثل أمتي مثل المطر: لا يُدرى أوله خير أو آخره». ومنها حديث أبي داود: «إن الله يبعث لهذه الأمة كل مئة سنة من يجدد لها دينها».

د - إلى جانب كل ما سبق يهيب المنهج الرباني للأقوم بال المسلم أن يستعلي على الظروف الحاضرة، وأن يحاول دائماً أن يجعل من نفسه بؤرة إشعاع يضيئ للناس طريق الخروج من الفقير المظلم، ويدلهم على وجود إمكانات دائمة لتقديم ما هو أحسن، وبالتالي فإن الأجيال الجديدة تتطلّب تبصر أمامها نماذج ترفع معنوياتها، وتقتدي بها. ومن أجل هذا يؤكّد القرآن الكريم، كما تؤكّد الأحاديث التبوية على أن يستشعر المسلم دائماً مسؤوليته الفردية عن نفسه ومصيره؛ حيث إن من المأثور أن يتقاус بعض الناس عن أداء كثير من واجباتهم تعليلاً بما عليه غيرهم، أو احتجاجاً بقصوّة الأحوال والأوضاع. ونجد في هذا العديد من النصوص؛ قال الله - تعالى:

(١) **﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكُبُرِ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾** ٣٥ **﴿لِئَنَ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَقْدِمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾** ٣٦

وقال: **﴿أَلَا نَرِدُ وَزَرَهُ وَذَرُ أُخْرَهُ ﴾** ٣٧ **﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾** ٣٨

وأخرج الشیخان عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعوا عليه، وتفرقوا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقه، فأخفافها، حتى لا تعلم شمله ما تتفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه».

ولو أننا تأملنا في هذه الأصناف السبعة لوجدنا أن كل واحد منهم

(١) سورة المدثر: الآيات ٣٥ - ٣٧ . (٢) سورة النجم: الآيات ٣٨ ، ٣٩ .

قدم نموذجاً راقياً للتفوي والعطاء والصبر، يتجاوز ما عليه الأشخاص العاديون الذين يتصرفون خارج دائرة الوعي، أو الذين يتصرفون وفق أهوائهم ومصالحهم.

هـ - هل لنا أن نتساءل: من أين يلتقط الوعي فكرة التقدم والإيمان الراسخ بسير الأمور نحو الأحسن: هل يلتقطها من مجلمل النصوص الشرعية ومن الشواهد التاريخية الناطقة بذلك؟ أم يلتقطها من شيء مستقر في بنية العميق، هو الميل إلى التطلع الدائم إلى ما لا ينال، والسلام مما ناله، بالإضافة إلى خضوعه لمعطيات الأزمة، وتشريعه لموحياتها؟

يبدو أن الوعي، لا يستطيع مقاومة ضغوط الواقع، كما أن النصوص مهما كانت تظل قابلة لنوع من التأويل؛ ومن المشاهد أن الناس في حالة الرخاء والنصر يحتاجون بالنصوص التي تؤيد ما هم فيه من التعيم استبشاراً منهم بدوام الخير واستمرار النجاح، أما في حالات الفتنة والملامح والانحطاط الحضاري، فإنهم يميلون إلى تعيم النصوص التي تدل على التدهور والتحلل، فتصبح مدلولاتها بمثابة سنن وقوانين تحكم كل الأجيال.

إن من المؤسف أن وعينا التاريخي مستمد في أكثر الأحيان من الجانب السياسي لماضي الأمة، وهو أقل جوانب حضارتنا إشراقاً وبعثاً على الأمل. وبما أن التدهور في ذلك الجانب بدأ في وقت مبكر جداً من تاريخ حضارتنا، فإن الوعي المسلم التقط كل ما توحى به النصوص من حتمية التراجع الحضاري، وأهمل النصوص التي ذكرنا بعضها، والتي تدل على إمكان حصول تحسن في مستوى التدين، وفي مستوى العمران والمعيشة.

وقد روي أن نفراً من الناس جاؤوا إلى أنس بن مالك رضي الله عنه وشكوا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم صلوات الله عليه وآله وسالم». ولو فتشنا في أعماق وعينا لوجدنا فيه اعتقاداً جازماً بظاهر مثل هذا النص، وكان الأمة تحولت على المستوى الحضاري إلى عقيدة الجبرية التي تجعل من

الإنسان شيئاً أشبه بريشة معلقة في الهواء، تميلها الرياح يميناً وشمالاً، وكأن التكليف قد أسقط، فغاب عن وعي الأمة مدافعة القدر بالقدر، والسبب بالسبب! قليل أولئك الذين حاولوا فهم النصوص التي تدل على حتمية التراجع الحضاري في إطار التكليف الشرعي، وفي إطار رؤية شاملة لتلك النصوص. وعلى سبيل المثال فإن بعض أهل العلم استشكلوا الإطلاق في حديث أنس، حيث إن زمان عمر بن عبد العزيز رض جاء بعد زمان الحجاج بقليل، والخير فيه أكثر من زمان الحجاج، بلا نزاع. واستدل ابن حبان على أن حديث أنس ليس على عمومه بالأحاديث الواردة في المهدى، وأنه يملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

والنظرة المنهجية تقتضي أن ننظر إلى الأحاديث التي تشير إلى ما يمكن أن يقع في المستقبل على أنها منبهات للأمة حتى تحمل مسؤولياتها، وتبتعد عن الأسباب التي تؤدي إلى هلاكها وانحطاطها؛ وهذا هو المغزى المنطقي لتلك الأخبار، وإن فإن النتائج قد تكون عكسية. وهذا التنبيه للوعي واضح جداً في بعض تلك الأخبار، على نحو ما نجد في حديث ابن ماجه والحاكم من قوله رض: «يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتنيت بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - : لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يعلنوا بها إلا فشافحهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا... ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم... ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولو لا البهائم لم يُمطرُوا... وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتحرروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسمهم بينهم» أليس من الجلي أن المراد الحث على تحكيم كتاب الله - تعالى - والاستمساك به إلى جانب أداء الزكاة، وإيفاء المكاييل، والتحث على محاربة الرذيلة، حتى لا تفشو بين الناس...؟؟..

ابن خلدون ذو العقلية الفذة، لم يستطع الإفلات من أجواء الجبرية

وتحمية الانحطاط التي سادت في معظم حقب التاريخ الإسلامي، فذهب إلى أن عمر الدول لا يزيد عادة على ثلاثة أجيال، وهذه الأجيال مئة وعشرون سنة، فجعل نشوء الدولة واتمامها وإنهايتها أشبه بحياة الفرد الذي سيتهي لا محالة إلى الفناء! ويزيد على ذلك أن ابن خلدون مزج الظاهرة الحضارية بالدولة، مع أن الحضارة كيان عام، والدولة كيان خاص، وما ينطبق على الخاص، لا ينطبق بالضرورة على العام. هذا بالإضافة إلى أن تنظيره لعمر الدولة مستشف من استقراء ناقص، ومن سيرة دول معينة، طابعها العام الاستبداد. أما الدول التي تقوم على الشورى، وتكون مهمتها تمثيل القوى الاجتماعية، ورعاية مصالح العامة فإنها - كما هو مشاهد - قد تعمّر مئات السنين.

أما الحضارات الكبرى، فإنها لا تموت، ولكن تتوقف عن العطاء، وحضارتنا الإسلامية القائمة على الدين لم تمت، فالمنهج الرباني الذي قامت عليه محفوظ بحمد الله، وسيظل عامل استيلاد وتأطير للجهاد الحضاري؛ والصحوة الإسلامية المعاصرة، وتشوف الأجيال المسلمة إلى أن تبني أمجادها على أساس من عقيدتها وثقافتها، دليل على ما نقول.

بذل علماء الغرب في القرون الثلاثة الفائتة جهوداً مضنية من أجل وضع ركائز لفكرة التقدم، وجعل الناس يعتقدون أن الإنسان مؤهل بفضل تحسن وعيه بإمكاناته وببياناته واحتراكاته أن يواصل التقدم والتحسين، واستطاعوا أن ينزعوا ما استقر في الفكر الغربي من نظرية (الدورة المغلقة) وضرورة الصيرورة إلى الانهيار والفساد. واستطاع (داروين) من خلال نظرية (النشوء والارتقاء) أن يزرع في الوعي الأوروبي أن الصراع الذي يجري بين الكائنات الحية، وبين بيئاتها، والصراع الذي يجري بين جنسين من الكائنات الحية، أو بين نوعين من جنس واحد - نعمة على الأحياء والحياة؛ فمن خلاله يتم التخلص من الأنواع الضعيفة لصالح الأنواع القوية، وبذلك يكون البقاء على وجه الأرض للأنواع الأقوى والأصلح. وإلى

جانب (داروين) ساهم علماء كثيرون قبله وبعده في تأسيس نظرة جديدة لحركة التاريخ، وقد ساعدهم على ذلك - على نحو جوهري - المنجزات العلمية، والقوانين العقلية والمنطقية التي تمت صياغتها في القرنين الماضيين، والتي أسهمت في تكوين قاعدة صلبة للإيمان بإمكانية استمرار الارتفاع - حسب المفهوم الغربي - إلى ما لا نهاية.

في العالم الإسلامي شرع بعض المفكرين والباحثين منذ القرن الماضي في التفتيش في الزوايا المهمة من الوعي الإسلامي مما يمكن أن يصلح أساساً للخروج من نظرية ابن خلدون في (دوره الحضارة) إلى رؤى ومفهومات تجعل الناس ينفتحون على المستقبل، ويفكرون في تحسين أجواه ومعطياته. وكان من ركائز ذلك توفير دعم جديد لحرية الإرادة الفردية، وتعزيز الثقة بقدرة الإنسان المسلم على تجاوز العقبات المختلفة التي ت تعرض سبيله. وكان من جملة ذلك أيضاً اجتراح (بنية الأزمات) التي طالما أوحت للوعي المسلم بانسداد الآفاق وانقطاع الرجاء. وقد صار هناك إحساس بأن الكروب والمشكلات التي نواجهها أفراداً وجماعات ضرورية لعيشنا حياة سوية وصالحة ومشرمة. ويمكن أن نذكر من فوائد الأزمات الآتي:

- إن الأزمة حين تستفحّل، ويشعر المرء بضعفه وانقطاع حيلته، يتعلق قلبه بالله - جل وعلا - وتنصرف همته إلى طلب المعونة منه. وهذا في الحقيقة هو جوهر التوكل على الله تعالى. وهذا التعلق يمنحه رجاء جديداً بتجاوز المحنّة، كما يمنحه طاقة متتجدة على الصبر والمقاومة.

- إن الأزمات تمنحنا فرصة للمراجعة والنقد، ولو لم النفس على ما كان منها؛ وقد أقسم الله - سبحانه - بالنفس اللوامة، لما يوفره اللوم من فرص للتراجع عن الخطأ، وتتجدد البنى الفكرية والأساليب والأدوات التي نستخدمها في إنجازاتنا المختلفة. وقد صار من الشائع القول: «إن كل أزمة تمنحنا فرصة إذا كنا في الموقع الإدراكي الصحيح». وإن من شأن الأزمة

أن توهن البنى المختلفة، وتخل بالتوازنات القائمة، ولكنها تطلق أيضاً آليات تعويضية، واستجابات جديدة، وغير متوقعة، وبذلك تصبح الأزمات فعلاً عامل تطور، ومناسبة لإحراز تقدم جديد.

ويذكر بعض الباحثين أن المرادف لكلمة (أزمة) في الاستخدام الإغريقي القديم يعني (نقطة اتخاذ القرار). أما المرادف الصيني للأزمة، فإن له معنيين: أحدهما للخطر، والآخر لفرصة.

- إن عيش الناس من غير أزمات وظروف معاكسة كثيراً ما يؤدي إلى انحطاطهم، فالبيئة السهلة التي لا تستدعي أي كفاح وصراع في سبيل العيش، تركد فيها ملكات الإبداع، كما ترهل فيها روح المقاومة، وسيطر الفراغ والترف، وتفقد الحياة بذلك الكثير من معاناتها. وقد صار لدينا الآن مصطلح جديد، يعبر عن هذه الحالة، هو (خيانة الرخاء) فالرخاء الشديد، لا يقل في أذاته عن التأزم الشديد.

في حالات الانحباس الحضاري يجرب الناس الكثير من الوسائل التي يشعرون أنها غير فعالة، كما يسلكون الكثير من الطرق التي يتبيّن في النهاية أنها طرق مسدودة؛ وهذا في الحقيقة مع أنه يحدث الكثير من الآلام إلا أنه من أفضل ما يمكن الوعي من التوصل إلى الصواب، وإلى الحلول الناجعة، فحنن لا نملك مسبقاً الخطط الذكية التي توجه جهودنا، وإنما نتعرّف على الأبواب المفتوحة عن طريق السير للأبواب المغلقة والوسائل العقيمة.

ولو أنناتأملنا في تاريخ التقدّم العلمي، لوجدنا أن حيال كل تجربة ناجحة عشرات التجارب المخفقة، كما أننا نجد أن كل تجربة مخفقة تمنحك مؤشرات إلى إمكانات كامنة وتجارب قد تكون مجازية.

وهكذا فقد أمكن عن طريق النظر الجديد، توليد مفاهيم جديدة، تجعل من الأزمة شيئاً طبيعياً، وتجعل تجاوزها أمراً وارداً، وكل ذلك جعل إمكانية اطراد التقدّم شيئاً مستقراً وثابتاً.

ولكن لا بد أن نقى على حذر، فكل عقائد التقدّم تظل مهددة بقابلية

(الوعي) للتارجح بين مكتسباته الخاصة، وبين إيحاءات الأزمات الخانقة والطويلة الأمد، وهي إيحاءات مدمرة للتفتح والحيوية.

وأعتقد أن كثيراً من شباب الأمة اليوم قد وصل إلى حافة اليأس بسبب البطالة، وتضاؤل فرص التعليم العالي الجيد، ويسبب ضغوط الحياة المعاصرة التي لا قبل لهم بها، لكن سيطرة الأنانية، جعلت القادرين على المساعدة في تخفيف لأواء المحنة مشغولين بالاستجابة لرغبات غير قابلة للارتقاء.

٥ - متطلبات التقدم:

أ - لم يعد ثمة جدل حول ضرورة التقدم وتطوير الكثير مما نعيشه في مختلف المجالات.

وواقع الحال يشهد أن العالم كله يسير في طريق التحديث - على حسب مفهوم كل أمة - بل يمكن القول: إن التطوير في حد ذاته صار أشبه بتحركات آلية وعفوية، وصار السؤال معكوساً: لماذا لم يتطور النظام الفلاقي ، ولماذا لم يحدُثوا الآلة الفلانية؟

التحدي الآخر، يتمثل في السؤال التالي: هل نستطيع أن نحدث حياتنا، ونحضر مجتمعاتنا، ونحصل على التقدم المنشود وفق عقيدتنا وثقافتنا الإسلامية، ومن أفق أهدافنا ورسالتنا في الحياة؟ .

لا ريب أن التقدم على هذا النحو يتطلب وعيًّا كاملاً بخصوصيتنا الحضارية، كما يتطلب وعيًّا جيداً بما لات الجهود التحديثية، وتأثيراتها الجانبية؛ وهذا يعني أنك لست مطالبًا بالسير في طريق معبدة، وإنما على حبل مشدود، وضمن موازنات دقيقة. ومن المؤسف حقاً أن تجربتنا التاريخية - وتجارب غيرنا أيضاً - تدل على أن اتساع العمran، وتقدم المنتجات والوسائل التقنية، كان مصحوباً دائمًا بانخفاض درجة التدين والالتزام؛ وكان وعينا ليس مؤهلاً لمعرفة الحدود التي يكون في تجاوزها

عدوان على المبادئ والقيم والأصول التي نعدها أساس حياتنا ورأس مالنا الثقافي والمعنوي؛ فالحرية مطلب، لكن عدم معرفة الحد الذي يجب أن تقف عنده، يحولها إلى فوضى. وتحقيق درجة من اليسر والرخاء مطلوب أيضاً، لكن عدم معرفة العقابيل والمخاطر التي تصاحب الرغبة الجامحة في الشراء، قد يجعل المرأة عبداً للمال، ويجعل حساسيتها نحو الحرام، وطرق الكسب غير المشروع ضعيفة، وهكذا...

وليست الأزمة أزمة وعي فحسب، ولكن هناك أيضاً أزمة (إرادة) فالحضارة الحديثة أضعفـت إرادة الإنسان، ونقلت السيطرة إلى مجال الأشياء؛ ولذ فقد نعي أن ضرباً من التطوير ليس ملائماً، لكن لا نملك من صلابة الإرادة وقوة التصميم ما يجعلنا نتخلى عنه إلى غيره. ومع هذا فإن التذكير بهذا الأمر، ومجاهدة النفس في ذات الله - تعالى - يساعدان على وضع الأمور في نصابها الصحيح.

ب - إن التقدم يحتاج إلى أشياء عديدة، منها التنظيم العقلـي، وبذل الجهد، وتتوفر إمكانات مادية معينة... لكن أهم ما يتطلبه - في تصورـي - هو اتخاذ القوى الروحـية والمعنوية أساساً للنهوض والتغيير، فالاستمرار في التقدم يتطلب جهوداً استثنائية نابعة من روح معطاءة وسخية.

القوى المعنوية، هي السلاح الأمضى الذي استخدم في إنشاء المجتمع المسلم، وفي وضع بذور الحضارة الإسلامية، وفي نشر الإسلام في الأرض. القوى المعنوية تصنع دائماً المفاجآت؛ لأن معظم الناس لا يستطيعون تحديد الإنجازات التي يمكن أن نحصل عليها من ورائها؛ ولذا فقد كانت حركة المد الإسلامي مفاجأة كبرى لكل القوى العاتية التي كانت تحكم في شؤون العالم. والشيء نفسه وقع في العصر الحديث، عندما انبثقت الصحوة الإسلامية المعاصرة. في كلتا الحالتين كانت الإمـكـانـات المـادـية مـحدودـة، وكان اعتمـادـ إنجـازـ الإـسـلامـ، يـقـومـ عـلـىـ أـشـخـاصـ، لا يـمـلـكـونـ مـنـ الدـنـيـاـ إـلـاـ قـلـيلـ، لـكـنـهـمـ يـمـلـكـونـ الـحـمـاسـةـ وـالـتـجـرـدـ وـالـنزـاهـةـ

والفداء ونسيان الذات... وأعتقد أن معظم الإنجازات الكبرى لدى جميع الأمم، تصدر عن هذا النوع من القوى الروحية والقيمية.

لا بد مع هذا من إيجاد الصيغ والأطر التي تتيح لأكبر عدد ممكن من الناس أن يشاركون في البناء وعمليات التمدن والتحضر؛ فالقوى المعنوية لا تتألق، ولا تحافظ على حيويتها إلا من خلال إسهام أصحابها في الحياة العامة، بل إن المرء لا يشعر بكمال كرامته وإنسانيته إلا من خلال ذلك الإسهام؛ ولكن إحساسنا بهذه المسألة، ما زال دون المستوى المطلوب.

إذا استخدمنا ما لدينا من إمكانات مادية في التقدم بعيداً عن الأطر المعنوية والقيم التي نؤمن بها، فإن الإنجازات ستكون فارغة ومحدودة، وسيتفاغر بها عدد محدود من الناس، وهذا ما نشاهده اليوم في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي.

ج - لن نستطيع أن نخطو خطوات ثابتة في طريق التقدم المنشود إلا إذا استطعنا أن ندخل على الواقع درجة جيدة من التنظيم العقلي، أي أن ننجح في سبر أعمق الظواهر الحضارية المختلفة، ووضع نوع من العواجز بينها، ثم إيصال العلاقات الجدلية التي تربط بينها، ورؤيه امتدادات كل ظاهرة في الظاهرات الأخرى.

هذا العمل يعني لا نقف في إدراك واقعنا عند مستوى الإدراك السطحي، والانطباعات الحدسية، بل نتجاوزها إلى إدراك المستويات المتعددة للحقائق والموضوعات والظواهر؛ إذ إن من الواضح أن للحقائق طبقات عديدة، وكل طبقة يتم اكتشافها بعمق التحليل الذي نمارسه أثناء فهمها واجترارها.

كثيرون منا يبحثون في النتائج، وينسون المقدمات. وكثيرون آخرون، يقفون في البحث عند المقدمات، ولا يتتجاوزونها إلى النتائج. كثيرون أولئك الذين يقفون عند القناع، ويعجزون عن الوصول للوجه الحقيقي

للمشكلة. والأكثر من كل هؤلاء، أولئك الذين تقتصر إمكاناتهم عن رؤية تداخلات الظواهر، وتقاطعاتها؛ فهم إذا بحثوا في مشكلة أخلاقية، لم يستطيعوا أن يروا جذورها الاقتصادية، وإذا بحثوا في مسألة تربوية، لم يروا أسبابها السياسية أو الاقتصادية... والسبب في كل هذا أن ترابط المقولات في أذهاننا، ليس على ما يرام؛ فالتعليم الذي تلقيناه - والذي نقله الآن للأجيال الجديدة - لم يهتم أبداً بتنمية التحليل والتركيب، وإنما كان يقدم لنا الحقائق الجاهزة؛ لనحفظها فحسب، ثم ننساها بعد حين؛ وكان شيئاً لم يكن!

إذا ما أردنا للتقدم أن يأخذ مداه الذي يستحقه، فإننا بحاجة إلى أن نتملّك من المفاهيم والمقولات الكبرى ما يساعدنا على بلورة الواقع الموضوعي؛ كما أننا بحاجة إلى تدريبات وحوارات مكثفة، نتعلم من خلالها رؤية الأشياء على نحو أكثر شمولاً ونفاذًا.

د - جوهر التقدم عبارة عن سلسلة من الإجابات على أسئلة كبرى، تشكّل في مجموعها امتحان التاريخ لمجتمع ما. وعلى هذا فإن المشروعات الحضارية، ليست أفكاراً يطروحها زيد أو عمرو من الناس، ولا هي مجموعات وأنساق من الأفكار، تداول فيها الرأي في المحافل والمؤتمرات، وإنما هي أطر وتحركات وبرامج عمل، يتم من خلالها تحسين وعي الناس بواجباتهم وإمكاناتهم، كما يتم تلبية حاجاتهم، والارتقاء بنوعية حياتهم.

يطرح التاريخ في البداية أسئلة كبرى، وعندما نجيب عليها - على نحو ما ذكرنا - فإن أسئلته تأخذ في الجنوح نحو القضايا وال حاجات الدقيقة والكمالية، ومن خلال موجات الأسئلة، وموجات الأجوبة، تتكون حركة حلزونية صاعدة، يتّنقل الناس بها ومعها من حال إلى حال أكرم وأفضل.

الأسئلة التي لا نجد لها جواباً، لا تظل خاملة، تنتظر منا أن نجيب عليها متى ما شئنا، وإنما تأخذ في الاتجاه نحو الصعوبة والتعقيد؛ فكثير

من المشكلات ذو طبيعة تفاعلية، كما هو شأن الأمراض التي يتعرض لها الجسم، فإهمال الداء الصغير، يحوله إلى داء كبير.

كثير من الشعوب الإسلامية غارق في انحرافات عقدية وسلوكية خطيرة، وليس هناك جهود ذات شأن لإصلاح أوضاعها، وتقريبها من النموذج الأصلي الذي ينبغي أن يتجسد في حياتها.

دخل الفرد في بعض الدول الإسلامية، لا يصل إلى خمسة دولارات في السنة، على حين أنه في بعض الدول يتجاوز الثلاثين ألفاً؛ ومن خلال الانفتاح العالمي، بدأت المعايير الاقتصادية المحلية تفقد قيمتها، وببدأت معها العملات المحلية، تفقد قدرتها على تلبية الحاجات الأساسية لمعظم الناس! الأممية الأبجدية والفكرية ضاربة أطنابها في معظم أرجاء الوطن الإسلامي الكبير، والمؤسسات والمراكز العلمية لدينا أكثرها عبارة عن هياكل فارغة، لا تنور أذهان الطلاب، ولا تنتج بحوثاً، تدفع بأوضاعنا ومتاجتنا نحو الأمام ! .

الأجوبة عن كل ذلك ليست - في كثير من الأحيان - سوى اتهامات بالقصیر، نتبادلها، حيث يدعي كل طرف البراءة من التقصير، ويلقي المسئولية على غيره... وهكذا تظل الأسئلة بلا أجوبة، وتظل المشكلات في حالة من التفاقم المستمر !!

الأجوبة على أسئلة التاريخ والواقع، ليست موجودة عند فئة أوجهة معينة، تتولى الإجابة عليها، فتبرأ ذمة الباقين. الأجوبة على تلك الأسئلة، يجب أن تشخص في البرنامج اليومي لكل واحد منا: في نوعية تربية الأم لأطفالها، وفي طريقة شرح المدرس لطلابه، وفي إنصاف القاضي لمظلوم لجأ إليه، وفي كيفية علاج الطبيب لمريض استسلم بين يديه، وفي طريقة إدارة الحاكم لأزمة كبرى حلت في بلاده.... ذلك أن البناء الحضاري أكبر من أن يترك للفنين والمحترفين، وما ترك قطاع - كال التربية أو الاقتصاد أو السياسة - من قطاعات البناء الحضاري لفترة خاصة إلا كان ذلك مدعاة

لفساده أو ضعفه. ولن نستطيع القيام بذلك إلا إذا بحث كل واحد منا عن طبيعة السؤال الموجه إليه شخصياً، وإنما إذا غير من طبيعة أنشطته للإجابة عليه.

إن التقدم يبدأ في اللحظة التي نكتشف فيها واجباتنا، والطاقات الكافية التي تمكنا من أداء تلك الواجبات.

هـ - في مذهبتنا الإسلامية أن قيمة أي تقدم حضاري يتم إنجازه، تظل مرهونة بمدى انعكاسه على تقدم الإنسان المسلم وارتقائه، أي أن التقدم الحقيقي هو تقدم إنساني أولاً. وعلى هذا فإن استغلال الثروات الطبيعية بالإضافة إلى كل أشكال تلبية الحاجات الإنسانية من غذاء وسكن وتعليم، وكل أشكال التنظيمات، والعلاقات الاجتماعية... يجب أن يستهدف تنمية الإنسان بوصفه كائناً مكلفاً بالقيام بأمر الله - تعالى - بوصفه إنساناً ذا عقل وروح ومشاعر وطموح روحي خاص... وهذه الحاجات المعنوية تمكن خدمتها على نحو مستقل من خلال بعض البرامج والتنظيمات الحضارية، كما تمكن تلبيتها من خلال تلبية الحاجات المادية: الغذاء والدواء والسكن... حيث يمكن من خلال تنظيم يضمن تكافؤ الفرص أن تشبع لدى المسلم حاجته إلى الشعور بالعدالة الاجتماعية. ويمكن من خلال نظام للتكافل الاجتماعي أن تشبع حاجته إلى الأمن والسلام الداخلي، وأن نقوى فيه الشعور بالانتماء للجماعة (المجتمع) وهكذا...

وسيكون من الخطأ الفادح الظن أن مجرد ضخ الأموال في السوق، أو مجرد توفير فرص للعمل، سيتتجز عنه نمو روحي وعقلي وقيمي؛ إذ إن الطريقة التي تشبع بها الحاجات، لا تقل أهمية في هذا الشأن عن الإشارة نفسه، وهذا ما لم نملك الشفافية الكافية نحوه بعد!

و - إذا تأملنا في سنن الله - تعالى - في الخلق وجدنا الحياة المادية والمعنوية قائمة على مبدأ توازن عظيم، هو: «لكل شيء ثمن»؛ فمن غير

الممكن أن تعطي نفسك كل ما تشتهيه دون أن تدفع الثمن المقرر في الدنيا قبل مجيء الآخرة: الإفراط في تناول الأطعمة له ثمن، هو التخمة والبدانة، وسلسلة طويلة من الأمراض التي تقتل على نحو صامت. راحة الجسم الزائدة على الحاجة لها هي الأخرى ثمن، وهو الترهل والكسل والسام. الفراغ له ثمن، هو الشعور بالتفاهة، كما أن للاشغال الدائم أيضاً ثمنه، وهو فقد التركيز، وضعف البرمجة العقلية، وتضييع الأولويات، وتقويت بعض الحقوق... .

ماذا يعني هذا لامرئ يسعى إلى تحسين حاله، والاندفاع في دروب التقدم المنشود؟ .

يعني هذا أموراً عديدة، منها:

- أن نجعل كل أنشطتنا الحضارية مؤطرة بإطار من المشروعية والاعتدال، فالخروج عن الضوابط الشرعية، لن تكون له في أية حالة من الأحوال عواقب حميدة، وعلينا أن ندرب أنفسنا على التضحية ببعض المكاسب الآنية في سبيل أن نظل منسجمين مع عقائدهنا ومبادئنا.

تجاوز الاعتدال في أي أمر - مهما كانت الدوافع حميدة - سيجعل استمرارنا في أنشطتنا عسيراً، أو عالي التكلفة؛ لأننا بذلك نحمل أنفسنا ما لا تطيق، ونعطي الفرصة لأكبر قدر من العقبات في الظهور؛ وكما ورد في الأثر: «إن المbeit لا ظهرأً أبقى ولا أرضأً قطع»^(١).

- لكل شيء ثمن يعني أن ننميه في عقولنا (فقه الموازنات)، وهو فقه مصدره الخبرة العملية أكثر من التنظير المجرد. ويؤسفني القول: إن كثيراً من يعقدون الموازنات والمقارنات في خططنا الدعوية والإصلاحية، تنقصهم الخبرة العملية، فهم كمن يتكلّم في التجارة وهو خارج السوق.

(١) يقال هذا لمن انقطع به في الطريق في سفره، وعطبت راحلته، فلا هو قضى وطه من سفره، وبلغ مقصدته؛ ولا هو أبقى على دابته.

وهذا أدى إلى أخطاء كثيرة في مسيرة العمل، وأخر إنجازات كبيرة، وضياع فرصةً عديدة!

- (لكل شيء ثمن) يعلمنا أن نصبر على بذل الثمن إذا كنا واثقين من صحة موازناتنا، والمسلم يملك في حسه العميق هذا المعنى، وقد وضحه الله - تعالى - لنا أوضح بيان حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّئَ مِنَ الظَّمِينِ أَفْسَهُمْ وَأَنَوْلُهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَقَدَا عَلَيْهِ حَقًا فِي التَّزَرُّدِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَ بِعِهْدِهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَاسْتَبِرُوا يُتَبَعِّكُمُ الَّذِي يَا يَعْمَلُ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْمَظِيمُ﴾^(١). فكل الأنشطة الخيرة - بطبيعتها أو بقصدها - هي جزء من الثمن الذي علينا أن ندفعه للدخول الجنة، وعلىنا أن نصبر عن البذل، ونصبر غرنا.

- إذا عرفنا أن لكل شيء ثمناً كان ذلك أدعي إلى أن تكون واقعين؛ ولا يعني ذلك أن نتجرد من مثاليتنا، وإنما يعني أن نعقل موازنات الوجود، وأن نحترم طموحات الآخرين ومشاعرهم وحقوقهم، وأن نحاول ألا نجعل من تحقيق مصالحنا مصدراً للعدوان على العباد وسلب الحقوق.

ز - في كل يوم تولد أشياء جديدة، وهي لا تفتأ تغير في ترتيب أحوالنا، فتدفع بها تارة إلى الأمام وتارة إلى الوراء. وفي كل الأحوال فإن كل جديد، يدخل خللاً ما على حياتنا، ويطلب منا استجابة جديدة. هناك حقيقة كثيراً ما نغفل عنها، وهي أنه لا شيء ينتهي كالنجاح؛ والرکون إلى الإنجاز هو أول خطوة على طريق الانحدار. من الملحوظ أن كثيرين منا يبدون حماسة لأمر ما، ويقدمون من خلاله أشياء جميلة، ثم ينسونه، ويتعيشون على السمعة التي اكتسبوها من وراء ذلك الإنجاز، ثم لا يفتأ كر الأيام والليالي أن يجعل ما تم الحصول عليه شيئاً ضئيلاً، وربما متلافاً.

بعض الدول والجماعات والشركات والمؤسسات.. وجهت كثيراً من

(١) سورة التوبه: الآية ١١١.

إمكاناتها للدعـاء إلى إنجازاتها، ومع أن ذلك ليس دائمـاً خطـأ، إلا أنه ليس من مصلحة الناس أن يصابوا بترهل المشاعر، وبطمانـية خادعة، ليست انعكاسـاً عن الحقيقة المائلة. قد يكون من الصواب أن نقول: أنجزنا الكثير، وبقي علينا الكثير. وإن من واجب من وصل إلى القمة أن يحافظ على وجوده هناك كلما كان ذلك ممكـناً؛ فالاستمرار في الإنجاز والارتفاع هو الأشق والأصعب، وهو الذي يدل على التميز الحقيقي.

ح - نحن مع الانفتاح والمشاركة في الحضارة الحديثة، ومحاـولة الاستفادة إلى أقصى حد من إنجازات الأمم الأخرى في تغيير أوضاعـنا؛ لكنـنا مع هذا لا نرى الصواب في الانفتاح الكامل على الأمم الأخرى، لا على المستوى الثقافي، ولا على المستوى التقني والسلعي؛ فـ(العلومـة) التي يجري التطـيل والتـرويج لها الآن ليستـ الخـيرـ المتـظرـ، ولـيـستـ بـرـيـةـ ولا عـفـوـيـةـ، والـقوـيـ التي تحـاولـ تـعمـيمـهاـ، هيـ القـوىـ المستـفـيدـةـ منـهاـ، وهـيـ علىـ نحوـ رـئـيـسيـ - تـتـمـثـلـ فيـ كـبارـ أـصـحـابـ رـؤـوسـ الـأـموـالـ فيـ العـالـمـ الغـرـبيـ (ـأمـريـكاـ خـاصـةـ)ـ وـمـنـ الطـبـيعـيـ إذـنـ أـنـ تـخـضـعـ كـلـ تـحـركـاتـ العـولـمـةـ لـنـظـامـ التـجـارـةـ الـذـيـ يـخـتـصـرـ كـلـ الـأـهـدـافـ الـإـنـسـانـيـةـ إـلـىـ هـدـفـ وـاحـدـ، هـوـ: تـحـقـيقـ الـمـزـيدـ مـنـ الـأـرـيـاحـ مـهـمـاـ كـانـ الشـمـنـ الـذـيـ سـيـدـفـعـ لـذـلـكـ، وـبـقـطـعـ النـظـرـ عـنـ الـجـمـوعـ الـهـائـلـةـ الـتـيـ سـتـدـفـعـهـ. وـالـانـفـاتـاحـ الـكـامـلـ سـيـعـيـ أـنـ نـجـعـلـ بـلـادـنـاـ فـرـيـسـةـ سـهـلـةـ لـأـولـنـكـ الـذـينـ يـهـمـمـهـمـ أـنـ تـكـوـنـ تـقـالـيـدـهـمـ وـبـصـائـعـهـمـ فـيـ كـلـ مـكـانـ عـلـىـ وـجـهـ الـأـرـضـ.

إنـ منـ الـحـيـويـ أنـ نـؤـمـنـ نـوـعاـ منـ الـعـزلـةـ عـنـ التـأـثـيرـاتـ الـأـجـنبـيةـ الضـارـةـ، حـتـىـ يـتـهـيـأـ لـنـاـ أـنـ نـدـيرـ شـؤـونـنـاـ وـفقـ إـمـكـانـاتـنـاـ، وـأنـ نـبرـمـ تـنـميـتـاـ الـثـقـافـيـ وـفقـ مـعـقـدـاتـنـاـ وـظـرـوفـنـاـ وـمـصـالـحـنـاـ. وـيـجـبـ أـنـ نـأخذـ الـعـبـرـةـ الـكـامـلـةـ مـاـ جـرـىـ لـلـاتـحـادـ السـوـفـيـاتـيـ (ـسـابـقاـ)، حـيـثـ إـنـ اـنـفـاتـاحـ الـكـامـلـ وـالـمـتـسـعـ عـلـىـ الـغـرـبـ قـبـلـ أـنـ يـعـدـ تـرـيـبـ شـؤـونـهـ وـفقـ مـنـطـقـ الـعـصـرـ، وـعـلـىـ نـحـوـ مـسـتـقـلـ وـخـاصـ - أـدـىـ بـهـ إـلـىـ التـفـكـكـ السـيـاسـيـ، وـالتـحلـلـ الـخـلـقـيـ، وـحـوـلـهـ مـنـ دـوـلـةـ

تتمتع بطموحات الدول العظمى إلى دوليات، تستجدي على أبواب الغرب، وتعجز حكوماتها عن دفع المرتبات لضباط جيوشها المهزية!

على حين أن الصين، لم تسلك المسلك نفسه، وأخذت تدرج في الانفتاح، وأدركت أن الانفتاح السياسي والثقافي مع تخلف اقتصادي هو كارثة حقيقة، فأخذت بتربية اقتصادها وصناعتها قبل كل شيء.

هناك دول وثنية ما زالت تمنع الأطباق الهوائية (الدش) صوناً لثقافتها المحلية (سنغافورة نموذجاً). ودول أخرى تفرض الضرائب العالية على السلع المستوردة، من أجل حماية إنتاجها الوطني، ومن أجل المحافظة على رأس المال المحلي من أن ينفق في سلع ترفيه، وكماليات استفزازية.

إنه ما التقى قوي وضعيف إلا كان القوي هو الأكثر استفادة من ذلك اللقاء، ونحن باعتبارنا شعوبًا ضعيفة - بمفهوم العصر - فإن مصلحتنا تتقتضي أن نفتح إلى مدى، وأن نحاول جر الخصم إلى التحاور على أرضية من مفاهيمنا و حاجاتنا، وليس أن نذهب إليه لنقبس منه وفق شروطه ومصالحه.

ما بين الحضارة والمدنية:

مسألة التعرف على جوهر الحضارة وجوهر المدينة، والعلاقة التي تربط بينهما، من المسائل ذات الأهمية؛ حيث إن الخلط بينهما كثير في الناس، وهو يسبب إرباكاً للوعي، ويدفع بالناس في طرق مظلمة. ولعلنا نوضح أولاً المراد بالحضارة، ثم نوضح المراد بالمدينة، ومن خلال ذلك نكتشف العلاقة بينهما وذلك عبر الحروف الصغيرة التالية:

١ - ما بين الحضارة والبداوة:

تعني الحضارة في الأصل سكنى الحاضرة؛ فالإنسان الحضري يسكن في تجمع سكاني كبير نسبياً، قد يكون مدينة أو قرية. وكلما كان عدد سكان ذلك التجمع أوفر نُظر إليهم على أنهم أعرق في التحضر، كما هو الشأن في نظرة معظم الناس إلى سكان العواصم الكبرى اليوم، ثم اتسع

مدلول الحضر والتحضر والحضارة؛ ليدل على نمط من العيش مضاد لما تدل عليه كلمة (بداوة). وهذا النمط يمتاز عن النمط البدوي بالآتي:

أ - الحضارة في مفهومها العام، هي مجموعة النظم والأساليب والأدوات التي اتخذها الإنسان في تحسين ظروف معيشته. ومن الواضح أن بني البشر، لم يطمنوا إلى شيء مما أتجوه، إلا بعد أن لمسوا ثماره وفوائده، وبعد ذلك صاروا إلى الإكثار منه، ومع تحسن نوعه ومزاياه، صار ذا قيمة (تراكمية). وكل هذا نابع في الأساس مما توفره حياة المدنية من الاستقرار، وما تفرضه الكثافة السكانية من أساليب في تنظيم الحركة اليومية.

ب - الناس في حالة البداوة، ينتجون - كما يذكر ابن خلدون - من السلع والأدوات ما يعد ضرورياً لبقاءهم على قيد الحياة؛ فعالهم هو عالم الضرورة المعزول - تقريباً - عن المرفهات.

أما في المدن، فالوضع مختلف؛ فالسلع الضرورية أصناف، والسلع الكمالية أشكال وألوان. وكلما أغرق الناس في الحضارة، اتسع مدى الاختيار لدى الواحد منهم. وقد صرنا اليوم على اعتاب مرحلة، يمكن للإنسان فيها أن يقترح تصميماً معيناً للسيارة التي يرغب في اقتنائها، وللقليل الذي يرغب في الكتابة به، والنظارة التي يضعها على عينيه؛ فالمرونة التقنية الفائقة كسرت رتابة القوالب الجاهزة لمصلحة الأذواق المتعددة.

ج - في حالة البداوة يكون تحكم الأعراف والتقاليد - مهما تكون درجة صحتها - شديداً، والمسائل المتعلقة بالشرف والشهامة والمرودة تأخذ أبعاداً فسيحة في حياة الناس.

في حالات التحضر يقل الاحتفاء تدريجياً بهذه المسائل، وتحل محلها سلطات جيدة؛ فالمساحة الأنثوية تصبح أكثر تعيناً، ويكون للاقتصاد والأخلاق التجارية القول الفصل في أمور كثيرة، وتم رعاية المصالح الخاصة بعنابة كبيرة، ويهبط أناس كثيرون إلى مستوى الإنسان: المتاج - المستهلك.

فحياة الحاضرة توفر فرص الاستهلاك على مقدار ما توفر فرص الإنتاج. وتهمنش في المدينة علاقات اجتماعية عديدة، ويتم غض الطرف عن احتياجات إنسانية متعددة، من أجل الوفاء باحتياجات العيش الرافي.

د - الطموحات في البايدية ضعيفة؛ لأن الخيارات والبدائل المتاحة محدودة، ومدى ما يصل إليه خيال الواحد من أهلها قصير؛ لأن الفوارق الطبقية في البايدية ضئيلة.

أما في المدن والحواضر، فكل شيء مختلف؛ فهناك أحياe للأثرياء والمترفين، وأحياe أخرى مدقعة، تعيش على هامش المدينة، وقد تضمخ بعضها إلى أن صار يدعى بـ(مدن الصفيح). وعند المقارنة بين حيين، فأنت تقارن بين شيئاً ينتميان إلى عالمين مختلفين. هناك في المدن تتفاوت ظاهر الإحباط لدى بعض السكان وهم يرون مستوى العيش يتحسن لدى بعض سكان مدینتهم على نحو يثير الاستغراب والتساؤل: من أين كل هذا؟ الشعور بالإحباط لهذا هو المحرك الخفي، والدافع العميق نحو استشارة الرغبات في مجتمعات الاستهلاك، كما أنه المغذي الرئيس لاستمرارية الروح العدوانية على الرغم من تحسن مستوى المعيشة.

هـ - في حياة البداوة يميل كل شيء إلى البساطة والعشوائية والتفكير، لأن مصالح الناس وأوضاعهم المعيشية، لا تتطلب شيئاً غير ذلك، كما أن الأدوات التي تساعدهم على تنظيم أرقى لحياتهم، ليست متوفرة.

أما في الحضر فإن الحياة تميل دائماً نحو التعقيد، فتبتاور مجموعة من النظم العقلية والمادية والعلاقية التي لا تستقيم حياة المدينة بدونها، ولا يسع الناس الخروج عليها.

وعلى سبيل المثال فإن تنظيم الوقت والدقة في الأداء وفي المواعيد أمور لا يحيا الناس في المدينة بدون قدر مقبول منها، في المدينة تتسع علاقات العمل والزماله والعلاقات الأسرية، على حساب علاقات القرابة والجوار...

إحساس الناس بالأزمات، وإحساسهم بالمستقبل يمسى أشد، حيث لا

شيء في المدينة يمكن الحصول عليه مجاناً، وحيث يسود الخوف مما تأتي به الأيام - على الرغم من الوفرة - وذلك بسبب ضعف الدعم الاجتماعي الذي يحصل عليه ابن المدينة في حالة تعرضه للمخاطر.

وهكذا فالتحضر تطور في جميع البنى والنظم والأوضاع المختلفة، لكنه تطور، يمكن أن يكون مجوفاً، ويمكن أن يكون ممتهناً بتطور المضامين والأسس التي يقوم عليها تحول الناس من التنقل والرعاي إلى الاستقرار والصناعة.

٢ - ما المدينة؟

لا يسعنا الاشتغال اللغوي في التفريق بين الحضارة والمدينة؛ فالتحضر هو الذي يسكن الحواضر، والمتمدن هو الذي يسكن المدن؛ لكن حين وجد كثير من المفكرين والباحثين أن ارتقاء حياة الإنسان ذو بعدين أساسيين: بعد شكري وبعد داخلي - رأوا أن يطلقوا مصطلح (المدينة) على ما يتم من ارتقاء في مضامين الحياة الحضرية، ومصطلح (الحضارة) على الارتقاء الشكري الذي يتمحور حول وسائل العيش وأدوات الإنتاج وطريقة تنظيم البيئة.

في المذهبية الإسلامية التي نظر من خلالها للكون والحياة اهتمام شديد بمسألة التفارق بين المدينة والحضارة؛ فقد ذم الله - جل وعلا - أمماً وأقاماً، قطعوا أشواطاً في العمran، واستخدام الموارد، وتصنيع الأدوات، لكن عتوا عن أمر الله - تعالى - وفساد مضامين نظمهم العمرانية، تسبب في هلاكهم وإبادتهم؛ وفي هذا يقول - سبحانه - : **﴿أَوْلَئِنَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْتَرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمِّرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمِّرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**^(١). وقص علينا ما بلغه قوم ثمود من الارتقاء والقوة: **﴿وَإِذْ كَرُوا إِذْ جَعَلُوكُمْ خُلُقَاهُمْ مِنْ بَعْدِ عَكَابٍ وَبَوَأْكَلُمْ فِي**

(١) سورة الروم: الآية ٩.

الْأَرْضِ تَنْغُدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَجْعَلُنَّ الْجِبَالَ بَيْوَاتًا فَأَذْكُرُوا مَا لَمْ يَرَوْا
وَلَا نَعْثُوْنَ فِي الْأَرْضِ مُقْبِلِينَ ﴿٦﴾^(١). لكن القوم كفروا، وأعرضوا عما
قاله لهم أخوهم صالح، فكانت النتيجة أن أخذتهم الرجفة: «فَلَمَنَّهُمْ
أَرْجَفَهُمْ فَأَضَبَّعُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيشِينَ ﴿٧﴾^(٢).

في المقابل فإن المدينة المنورة التي شهدت أول مجتمع إسلامي، لم تكن في أوضاعها المدنية تتجاوز ما عليه قرية صغيرة في أي بلد من بلدان العالم الثالث اليوم^(٣)، لكن ذلك المجتمع كان حسب المقاييس المدنية - وهي شبه عامة - يشكل قمة في التمدن والرقي الخلقي والسلوكي والعائقي. في المجتمع المدني كانت الأهداف الكبرى واضحة، والغايات مشرقة، وقد بلغ من وضوحها وسيطرتها على النفوس أن كان المسلمين - حتى الأطفال - يتسابقون إلى نيل شرف الشهادة على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وكان من المسلمين من يعمل ويجهد ليتصدق ببعض أجره في المساء! ويبلغ الناس من النساء وحب الطهر أن اعترف أمام النبي ﷺ بعض الرجال والنساء بارتكاب جريمة (الزنا) طالبين منه أن يرجمهم؛ حتى يلقوا الله - تعالى - وهو عنهم راض. وبلغت شفافية الحكم والدولة أن كان مرتب الخليفة، لا يزيد على نفقة الطعام مع كسوة قليلة، وخلا ذلك المجتمع من مظاهر تسلط الدولة؛ فالقضاء والسجون ورجال الشرطة، أمور هامشية أو معودمة!

ومهما رحنا نفصل في درجة المدينة التي بلغها المجتمع الإسلامي آنذاك، فإن الحقائق تظل أكبر من الكلمات!
والآن ما السمات التي إذا توفرت استطعنا أن نقول: إن هذا إنسان أو مجتمع متمدن؟

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٤. (٢) سورة الأعراف: الآية ٧٨.

(٣) تقدر مساحة المدينة المنورة - من غير الضواحي - أيام النبي ﷺ بمساحة المسجد النبوى الشريف والساحات المجاورة به بعد التوسيعة الأخيرة.

أ - أسهل شيء على الإنسان أن يتحرك، ويتجوّل ويتمتع؛ لكن الشاق دائمًا أن يستطيع العثور على الهدف العظيم الذي يولد نظاماً للحياة، يصبح معه لأنشطة الحياة المختلفة معنى ومنطق. المنهج الرباني عقيدة وشريعة، هو في الحقيقة الذي يمكن أن يؤمن بوضوح الغاية الكبرى من وجودنا على الأرض: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ إِبْلُوكُمْ أَئْكُلُ أَحْسَنَ عَهْلًا وَهُوَ الْعَرِيزُ الْفَقُورُ﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿وَمَا حَلَقْتُ لَجْنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

جعل كل أنشطة الحياة وسيلة لكسب رضوان الله - تعالى - والنجاح في الابتلاء الأعظم، هو الذي يرسخ لجذور التمدن في عقول الناس وقلوبهم وسلوكيهم، ويدفعهم إلى العطاء المتواصل، والتضحية من أجل المصلحة العامة. وهذا ما يعني منه الإنسان في معظم بقاع الأرض؛ فالمعدات الحضارية باتت كاملة، لكن أهداف هذه الحركة المحمومة مشوّشة وغامضة، ولا تلامس ما جبل عليه الإنسان من حب للخلود والبقاء.

ويؤسفني القول: إن كثيراً من المسلمين باتت أنشطتهم وأهدافهم الجزئية في الحياة، لا تنسجم مع ما يعتقدون أنه الهدف الأكبر لوجودهم. وهذا في الحقيقة يشكل ثغرة كبيرة في مدنية هذا الزمان.

ب - المجتمع المتواحش الذي لم يتعرف على التمدن، يقيم علاقات بين أفراده، لكنها علاقات قائمة على القوة والقهر والعدوان؛ إنه مجتمع الغابة الذي يُعد كل فرد من أفراده نفسه؛ ليكون المفترس أو الفريسة، الجزار أو الضحية. أما في المجتمع المتمدن فإن العلاقات تقوم على القيم والمبادئ التي يؤمن بها المجتمع، وعلى الأعراف التي أنضجها بالترابي والتفاهم بين أفراده. الإنسان المتمدن قادر على ضبط سلوكه وزواجه، والوقوف عند الحدود التي تبدأ عندها حقوق الآخرين.

أما الإنسان البدائي، والمتوحش، فيقف عند الحدود التي توصله إليها قوته؛ مما يجعل الخوف، هو الطابع العام للحياة.

(١) سورة الملك: الآية ٢.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

حتى الجبارون العتا، يظلون يتوقعون المخاطر ممن يظنون أنهم أقوى منهم.

القانون في المجتمع المتمدن يكون تجسيداً لمبادئ المجتمع في الحقوق والواجبات؛ ولذلك فإنه يظل محترماً، كما كان عليه العهد في صدر الإسلام.

أما في المجتمع الذي أضعاع مدنية، أو الذي لم يتمكن من بناء مدنية خاصة به، فإنه يكون لتأمينصالح الجهات النافذة، إنه الإخراج النهائي للقوة الغاشمة؛ ولذلك فإنه لا يلقى التقدير من أحد، ولا يشاعره إلا المستفيدين منه. وبهذا يصبح تطبيق القانون مظهراً من مظاهر الانهيار الاجتماعي، وسبباً من أسباب الهلاك؛ لأنه يصبح أدلة ظلم وإفساد، وإلى هذا رمى الحديث الشريف: «إنما أهلك الذين كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم القوي تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

معظم مجتمعات الأرض محكومة اليوم بقوانين ودساتير، ولدى حكوماتها نظام قضائي عتيق (!) لكن المجتمعات التي ليس لها من المدنية سوى القشور، مصابة بداء (الازدواج القانوني) حيث إن لديها بجوار كل قانون مكتوب قانوناً غير مكتوب. وهذا الأخير هو الوجه. والقانون المكتوب هو القناع. والحق دائماً مع من يدفع أكثر، أو يُخيف أكثر!

ج - المدنية وضعية، يتحقق فيها الناس المطابقة بين هويتهم وبين متطلبات معايشة عصرهم، بما تفرضه من قيم ومفاهيم وأنشطة وردود أفعال، أي إن ثقافتهم الخاصة تكون ثقافة منتجة ومنفتحة وعملية. وحين تعجز الثقافة، أو يعجز أهلها عن الدخول في طور المدنية، فإنهم يجدون أنفسهم على طريق خسران الذات، إما عن طريق التهميش بسبب مشاركتهم، وهذا التهميش يؤول بهم إلى التحلل الذاتي، كما هو شأن ورقة قطعتها عن غصنها، وإما عن طريق الاندماج في حضارة لم يدخلوها إلا من باب الاستهلاك، فاستهلكتهم، وجعلت منهم مخلوقات عجيبة، تفتخر بالتبعية، وتتغنى بانتصارات لم تخض معاركها!

الذي ينظر اليوم إلى حال معالجة أمة الإسلام لقضاياها، لا يشك أنها موضوعة على الهاشم؛ فالقوى الكبرى هي التي تتحكم في تعقيد تلك المشكلات، وحلها بطريقتها الخاصة (البوسنة وكوسوفا نموذجاً). والذي ينظر إلى حال التعليم والبحث العلمي والصناعة لدينا، لا يشك أننا لا نساهم في الحضارة الحديثة إلا بشيء قليل، لا يتناسب أبداً مع كوننا نكاد نشكل ربع سكان المعمورة.

أما تشووفنا إلى استهلاك أحدث منتجات العصر، فإنه تشووف من غير حدود، ولا يعرف الارتواء، فنحن بهذا الوصف أكثر حداة من المنتجين للسلع والأدوات الكمالية أنفسهم!

وهكذا فنحن نعيش على الهاشم فيما يجب أن نتولاه بأنفسنا، وغارقون إلى الآذان في معاصرة، ليس لنا في إبداعها أي جهد ذي قيمة، ولهذا وذاك فنحن ممزقون في داخلنا بين مطالب هويتنا ومتطلبات عصرنا، وما ذلك إلا لأن المدينة التي تليق بنا لم تبلغها بعد.

د - الإنسان البدائي محدود الإمكانيات، وهو عرضة للعدوان من قبل المخلوقات الأخرى، كما أنه يظل فريسة للأمراض والأعاصير والفيضانات. وخبرته في استثمار ما لديه من طاقة ضئيلة.

أما الإنسان الذي يعيش في بلد متحضر، فإنه يجد الكثير من الإمكانيات التي يرقي من خلالها ذاته، أو يستخدمها لتحقيق أهدافه ومصالحه؛ لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك على الوجه المطلوب إلا إذا كان متمنداً. فالتمدن هو أهلية الإنسان لاكتشاف الإمكانيات الحضارية، وتطويرها والاستفادة منها.

ولهذا فإن الإسلام يؤكد دائماً على تمدين الإنسان قبل تشييد العمران؛ لأن الإنسان غير المتمند لا يعجز عن استثمار الإمكانيات الحضارية فحسب، وإنما يعجز عن المحافظة على الموجود منها أيضاً، حين قامت أول دولة للمسلمين في المدينة المنورة، لم يكن هناك إلا القليل جداً من الإمكانيات الحضارية، لكن توفر المبادئ والقيم الحضارية، وتتوفر ما تتطلبه الأعمال الجليلة من حماسة وكفاح، أدى إلى أن المسلمين

استطاعوا أن يفتحوا في أقل من نصف قرن ما يزيد على أربعين ألفاً من المدن والقرى والقلع والحسون؛ وبذلك توفرت الإمكانيات، وقامت حضارة زاهية.

في العالم الإسلامي وغيره اليوم شوهدت عديدة على هذه الحقيقة، وقد صار من الجلي الآن أن المهم ليس وجود الإمكانيات الكبيرة، لكن المهم وجود القدرة على توجيه الإمكانيات وتنميتها واستثمارها. وهذا لا يستطيع إلا من أوتي حظاً من التمدن.

حين أخذ نجم الحضارة الإسلامية بالأفول، وأخذت النظم التربوية والسياسية والاقتصادية في التداعي، كانت الإمكانيات الحضارية هائلة، لكن روح المدنية كان قد أخذ في الذبول، وتحول المسلم المبدع المقدام إلى مسلم منكمش على ذاته، مرتكب في تفسير أحوال عصره.

والخلاصة أن المدنية الحقة، تصنع الحضارة، لكن الحضارة لا تصنع المدنية، بل قد تدمرها، وتفكك منظوماتها.

هـ - المدنية تهذيب للأخلاق والسلوك، حيث يرتفع إحساس المرء بالآخرين، وتصبح تصرفاته أكثر نعومة وأناقة وشفافية. المدنية روح يسري في كيان الفرد، فيعطيه طابعاً خاصاً يلمسه الناس في كل شؤونه: في طريقة كلامه، وعباراته المنتقاة، وفي طريقة استماعه، وتناوله لفرصة التحدث، وفي كيفية قيادته لسيارته، وفي كيفية تبنيه للمخطىء، وفي طريقة حصوله على حقه، وحله لمشكلاته بالطرق السلمية...؛ إذ إن من أهم سمات الإنسان المتmodern أنه يبحث باستمرار عن طرق مشروعة وغير عنيفة لتجاوز التعارض بين مصالحه ومصالح الآخرين.

الإسلام عَلِمَ الناس ألا يرفعوا أصواتهم، وأن يغضوا من أبصارهم، وألا يلتجوا البيوت دون استئذان، وأن يتفسحوا في المجالس، كما علمهم الرفق والصفح والإيثار، وفي الصلاة - والتي هي موقف روحي خالص -

يتعلم المسلمون الدقة والنظام والالتزام بحركات الإمام... وقد آتى ذلك أكله أشكالاً وألواناً، وتجلى ذلك في التطور الذي دخل على النظم التربوية والسياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في الجاهلية، وذلك التطور كان يقوم على تحول داخلي يتمثل في أخلاق الناس وطرق تفكيرهم. ومع هذا لا بد أن نكون على حذر، فالتعليمات والمبادئ الإسلامية، لا تعمل في تهذيب من آمن بها دون رعاية تربوية منظمة، ودون بيئة تساعد الناس على تمثيلها، والتصرف على هديها، وهذا هو التفسير لتغيير أخلاق الناس وسلوكياتهم، وتعرضها لما يشبه حركة المد والجزر، على الرغم من أنهم لم يجحدوا يوماً بأي شيء مما يجب عليهم الإيمان به.

و - المدنية قبل كل شيء اكتشاف للذات وللناس، اكتشاف لإنسانية الإنسان ومشاعره وحقوقه، وتقدير لجهوده ومشاركته، وتأسيس للثقة بقدراته على السمو، وتأجيل الرغبات، وتجاوز العقبات.

في المجتمع المتختلف مدنياً يعجز الناس عن كشف ذواتهم، ويعجزون عن كشف غيرهم، وهم يندفعون إلى التكديس والاستحواذ، لأنهم مفتونون بالظاهر على قدر زهادتهم بالجوهر. وغرامهم بالأشياء يدفعهم إلى تشبيء الإنسان، ومعاملته على نحو ما يعاملون الأشياء: يقربونه عند الحاجة، ويرمونه عند الاستغناء عنه.

وهو عندهم متهם حتى ثبت براءته، وقدرتهم على المعاقبة أعظم من قدرتهم على الإثابة والمكافأة.

الإسلام وضع الأسس، ووضع أيضاً الضمانات لاحترام الإنسان، وصونه والثقة به، ويكفي في هذا أن يكون قتل نفس واحدة في منزلة قتل الناس جميعاً، وأن يكون إحياؤها بمنزلة إحياء الناس جميعاً: «إِنَّ أَجْلَ ذَلِكَ سَكَّبَنَا عَلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّمُّ مَنْ قَتَّلَ نَفْسًا بِعَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَتَا قَتَّلَ النَّاسَ حَيْمًا وَمَنْ أَخْيَاهَا فَكَانَتَا أَخْيَا النَّاسَ

جَمِيعًاٰ^(١)). والأصل في المسلم الصدق والعدالة وبراءة الذمة إلى أن يثبت خلاف ذلك.

إن من عرف نفسه عرف ربه؛ وإن مسيرة التاريخ تبدأ في اللحظة التي نحترم فيها الإنسان ل الإنسانية، وفي الوقت الذي تصبح فيه تنمية الإنسان ذات أولوية مطلقة.

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

ما بين
القديم والجديد

و
الا
أه
أن
الف
كام

الع
وج
آخر
من

فالثو
والآد
واجتن
سيما

www.alkottob.com

ما بين القديم والجديد

ذات الإنسان مشتتة بين ماضٍ تنتسب إليه، وبين حاضرٍ تكابد همومه، وتعيش أفراحه، وبين مستقبلٍ ترنو إليه تارة، وتخشاه تارة أخرى، هذه الأبعاد الثلاثة، تمثل فضاءات متلاحمة، يتقلب فيها الإنسان من حال إلى أخرى.

ومع تعود الإنسان الشعور بالقوة والسيطرة تجاه هذه الفضاءات، إلا أن الحقيقة أنه يبدي الكثير من الارتباك حيال كل منها بسبب أن أنساقه الفكرية وأدواته التي يمكن أن يستوعب من خلالها هذه الأبعاد - ليست كاملة.

كر الأيام والليالي، وتتنوع الظروف وتتجدد الحاجات، وتغير المعطيات العلمية... كل ذلك ينضج خبراتنا في بعض المسائل، لكنه يشير في وجودها مزيداً من الأسئلة، ويدفعنا باتجاه مزيد من الشكوك في مسائل أخرى. ولذا فالحيرة والتردد وعدم اليقين أشياء ملزمة للبشر، مهما أوتوا من سعة الاطلاع ونفاد الرؤية.

إن المسلم محظوظٌ ومُعَانٌ في هذه المسألة - كما في كثيرٍ غيرها - فالثوابت العقدية والمنهجية التي أكرمنا الله بها، تملّكتنا الكثير من الأطر والأسس التي تسعننا في التعامل مع القديم، كما تسعننا في فهم الواقع، واجترار المستقبل، وإعداد العدة له؛ لكن ذلك لا يعفينا من الاجتهاد، ولا سيما عند التعامل مع المسائل الجزئية.

ونستة الابتلاء بالخير والشر، والموافق والمخالف، تفرض علينا أن

ننمى وعياناً، وأن نشحد بصيرتنا من أجل النجاح في إيجاد التناجم بين الماضي والمستقبل، وتأسيس نقاط الاتصال والارتكاز التي تساعدنا على الاستنارة بتراثكم ما استفدناه من خبرات تاريخية واجتماعية في رؤيتنا للمستقبل، وفي تعاملنا مع الأشياء الجديدة، وفي تجديدنا لأبنيةنا الحضارية على نحو ينسجم مع مقتضيات الاستخلاف، كما ينسجم مع متطلبات الحياة المعاصرة في صورها المختلفة.

نحن والقديم

لا أرى إدخال (الوحي) في جملة التراث، ولا أستحسن حصره في زمان أو مكان؛ فهو ناموس الهدایة المطلق الذي يستعلي على الزمان والمكان. أما التراث، فيمكن تعريفه بأنه «مجموعة عطاءات الآباء والأجداد على المستوى الروحي والمادي عبر تفاعلهم مع الدين، وضمن خصوصهم لقيود الزمان والمكان اللذين تم الإنجاز فيما».

وهناك إلى جانب هذا وذاك أحداث الماضي التي هي عبارة عن وقائع وأنشطة وحوادث تجلت فيها قيم الإسلام وتعليماته، إلى جانب اجتهادات الناس ومصالحهم وأهوائهم وانحرافاتهم...، مما يشع لنا نماذج من الحالات الشعرية والرمزية، وبعض المحکمات الفكرية، ومما يشكل عمقاً فسيحاً لهويتنا وشخصيتنا الإسلامية.

وسأسلط هنا بعض الأضواء على ما أظن أنه ينفع في تجديد الوعي تجاه التراث، وتتجاه أحداث الماضي عامة، وذلك في الآتي:

١ - ليس الماضي كياناً ناجزاً:

التاريخ الإسلامي في أطواره وحقبه، وما استتمل عليه من عطاءات وحوادث ومشكلات وانكسارات، هو الماضي الذي ننتهي إليه في الكثير من جوانب وجودنا الفكري والشعوري. ولا بد أن تكون أفكارنا عن الوضعية التي تم نقل ذلك الماضي عن طريقها، ناضجة ومنظمة، وإلا فإن الماضي كما يمكن أن يكون مصدراً لتجديد وعيينا، فإن بإمكانه أن يكون مصدراً للبلبلة الوعي وانقسامه.

الذين تولوا لنا نقل صور عما ححدث في الماضي كثيرون جداً، منهم المؤرخون وكتاب التراجم والسير الذاتية، وكُتاب الروايات والأدباء... . ويمكن القول: إن كل أولئك الذين تركوا لنا شيئاً نقرؤه، ساهموا على نحو ما في ربطنا بالماضي، وإنماجها الثقافي والعلمي. ويمكن القول كذلك: إن كل ما انحدر إلينا من وقائع الماضي وأحداثه وعطاءاته، هو على صلة بالناس، حتى الأحداث الطبيعية، مثل الزلازل والأعاصير، لا تخلي من علاقة بالإنسان، حيث إنها من أهم الأسباب، التي تغير البيئة الطبيعية، كما تغير في أوضاع الناس وأحوالهم، مما ينعكس وبالتالي على سلوكياتهم وعلاقاتهم. والمقصود من هذا أن نوضح أن ما ورد إلينا من الماضي يجنب دانماً إلى الالتباس والغموض، وما ذلك إلا لأنه على صلة بالإنسان. وإن كل ما يتصل بالإنسان لا يكون أبداً بسيطاً، فما نظنه ظاهرة بسيطة، هو في الحقيقة نسيج من العلاقات. وما نظنه فكرة صغيرة ليس كذلك، لأن فهمنا لها يتطلب أن نحيلها إلى نظام معقد من الأفكار والتجارب، فتستحيل أبسط الأفكار إلى أفكار مركبة ومعقدة. ومهما كانت بصيرة المؤرخ النقدية نافذة، فإنه لا يستطيع أن يتعامل مع آية حادثة على أنها كتلة واحدة، يصورها في صفحات من كتابه؛ إذ إن تعامله مع الأحداث، لا يتم على نحو مباشر، وإنما عبر مفاهيم مركبة، أو عبر وسيط كلي. وهذا الوسيط ليس عقله، ولا تجاريه، وإنما هو شيء مركب من مبادئه العقلية وتجاربه وانطباعاته الخاصة، وطريقته في معالجة الحوادث، وتصورها وتصويرها، ولذا فالمؤرخ لا يجعلنا في الحقيقة نعيش الحدث السابق، بمقدار ما يحاول إعادة تركيبه وإنشائه من خلال وسيطه المعرفي.

ماضي الأمة الإسلامية ماضٍ طويل يمتد أكثر من أربعة عشر قرناً، وبالتالي فإنه مفعم بالمعطيات والصور والواقع التي توحى إلينا بفيض من الأفكار والمشاعر والانطباعات والأنساق... . وهذه جميعاً متوضحة بالفوضى، وعدم الانتظام حيث توحى مجموعات منها يعكس ما توحى به مجموعات أخرى؛ وعلى سبيل المثال فإن الحروب الداخلية ذات الطول

والعرض في تاريخنا، كانت توحى دائمًا بالاجتهادات الخاطئة، وتغلب المصالح الخاصة، والشهوة إلى السلطة، وضعف الوعي، حتى انفسح المجال للتأثير الخارجي.

وفي المقابل فإن حركة الاكتشاف والتصنيع والإعمار، ظلت توحى بوجود تمنع الأمة بدرجة جيدة من التنظيم العقلاني، كما توحى بوجود أعداد كبيرة من العلماء المخلصين الجادين، وبوجود دول تعى أهمية التقدم العلمي في حياة الأمم... وهذه الإشارات - وغيرها كثيرة - متضاربة على مستوى ما، وقد أربكت وعيها، وأسست لانقسامه فيما بعد حيال التاريخ الإسلامي برمتها.

هذه الوضعية، هي التي تدفع كل أولئك الذين قاموا بنقل أحداث الماضي لمن بعدهم إلى أن يضعوا ما ينقلونه في إطار نظام ما من فضاء (المعقولية التاريخية) ومن فضاء رؤيتهم الخاصة أيضًا. هذا النظام يقوم في العادة على مفردات ليست كثيرة؛ فإذا كان المؤرخ - مثلاً - يعتقد أن المعركة التي حاول تنظيم صورة عنها، كانت شرسة، وأن المسلمين قد استخدمو كل إمكاناتهم، وأن النصر في نهايتها كان باهراً، فإنه سيكون أميل إلى قبول كل الأخبار والروايات التي تؤيد هذه المعتقدات، وسوف يفسر كل الإشارات الغامضة على نحو يوحى بذلك، كما أنه سيسقط الروايات التي تُشعر بخلافه. ولذا فإنه يمكن القول: إن البناء التاريخي، هو بناء انتقائي. ولا أعني بهذا أن المؤرخ يتبع هواه أو مصلحته؛ فذاك شيء آخر خارج عن سياق ما نتحدث عنه، وإنما أعني أن طبيعة عمل المؤرخ تقتضي ذلك، وتفرضه؛ فهو مضططر إلى جعل الواقعية التاريخية ضمن هيكل معرفي محدد، وخاضع لنظام مترابط. المعركة التي يريد المؤرخ تصويرها، ليست عبارة عن حقل حَدَّثِي، يقوم بزيارته ووصفه. وسيرة العالم الفلاني، ليست عبارة عن حكايات، يسردها مترجمة على نحو ساذج، إن كلاماً من المؤرخ والمترجم، ينطلق في عمله من أفق صوري، ومنهج ذي بنية منطقية محددة، وفعالية خاصة. وعلى مقدار نجاحه في جعل ذلك المنهج منطبقاً وفعالاً وشفافاً، يكون اقترابه من الحقيقة التي يرغب في اجتراحها، ونقلها إلينا.

الذي نريد أن نصل إليه من وراء كل هذا أن نتحلى بقدر كبير من الاتزان والأنة قبل أن ننفعل بحدث ما، وقبل أن نطلق ردود أفعالنا عليه؛ ولا سيما في القضايا ذات الأهمية الخاصة. وسوف نملك ذلك إذا استطعنا أن نستحضر دائماً وجوه تدخلات الراوي والمؤرخ في هيكلة الواقع، وحتميات اجتهاده في تصويرها. وبمجرد أن نسلم بإمكانية الاجتهاد، فإن علينا أن نسلم بإمكانية الخطأ والقصور. وإذا علمنا أن المؤرخ بشر ينتابه كل ما ينتاب الناس من ضغوط وجنوح إلى الهوى والمصلحة... . وجب علينا مرة أخرى أن نتعلم كيف يكون لنا دور ما في صياغة الواقع التاريخية عن طريق منهجية جيدة لفهمها، وعن طريق الدخول إلى عالم المؤلف أو الراوي أو الكاتب، والتعامل مع إنتاجه ومربياته من أفق خبرتنا بذلك العالم.

٢ - تجذر الماضي فينا:

حين يولد الواحد منا يجد في بيئته الثقافية فيوضاً من المقولات الشعبية والأعراف والتقاليد، كما يجد نظاماً رمزياً كاملاً، وانتماء دينياً وعرقياً ولغوياً، ويجد إلى جانب كل ذلك أسلوباً مميزاً للعيش والتفاهم، وإدارة الأزمات، وخبرات وعلوماً متغيرة... . وذلك كله منحدر من الماضي البعيد والقريب.

البيئة الثقافية بكل ما تحويه، تصوغ طريقتنا في التفكير، وتحدد أطر مشاعرنا واتجاهات عواطفنا، وأفاق طموحاتنا وأمالنا، كما تحدد المحركات والأعراف التربوية التي يتم تنشئة الصغار بها وعليها.

وعلى هذا فنحن - في اعتبار ما - شيء من الماضي، ومظهر من مظاهر تتحققه وظهوره. ومهما حاول الواحد منا أن يجد مخالفًا لمواقفه ذلك الماضي، ومهما حاول الانقطاع عنه، فإنه لن يستطيع التخلص منه إلا على نحو جزئي؛ وهل يستطيع المرء أن يخرج من جلده، أو أن ينسليخ عن نسبة...؟

إن المتأمل في أحوال المجتمعات الإنسانية، يجد أن السواد الأعظم

من الناس يحملون الأفكار والمعتقدات الموجودة في مجتمعاتهم دون تفريق بين الصالح منها والطالع، حتى إنك لتجد المخترع والبعيري والعالم المتمكن الذي يتصرف على نحو خرافي إذا هو خرج من مجاله أو تخصصه، وما ذلك إلا بسبب سطوة الموروثات الثقافية، وبسبب قدرة العقل البشري على أن يجمع بين أعلى درجات المنهجية، وأعلى درجات الخرافية في إطار ثقافي واحد، لتجلى جمِيعاً في سلوك صاحبها وعلاقاته!

٣ - الماضي يصرنا بالسنن:

لماذا نحاول قراءة ترجمة فلان من العلماء أو القادة أو الأبطال؟
ولماذا نقرر على أطفالنا في المدارس دراسة العصر النبوي أو الأموي أو العباسى؟

إن الإجابة على هذا السؤال، ربما أطرت لنا ما نرحب في الحصول عليه من وراء عناء دراسة الأطوار والواقع التاريخية. لعل أكثر ما يمكن أن يستفيد منه دراسة الأحداث السالفة، هو الكشف عن السنن الربانية في الأنفس والمجتمعات والدول، فيترسخ في وعينا نوع من الفقه لعلاقات الأشياء لتحسين من بعد ذلك النتائج عندما نبصر المقدمات، ولنرى المقدمات من خلال رؤية النتائج. وهذا ما نلمحه في قول الله - جل وعلا - : ﴿قَدْ خَلَّتِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(١).

رؤيه السنن، هي التي تضفي نوعاً من التنظيم على أحداث التاريخ، كما أن معرفة السنن تمكنتنا من رؤية الأشياء المشتركة بين الناس، كما تدلنا على الدوافع التي تحرك الناس. وهذا كل مهم جداً لكل أولئك الذين يرتابون لرؤيه المفارقات بين السلوك والمعتقد، ورؤيه المسافات بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.

إن من الثوابت التي تعلمناها من تفحص الماضي، أن الناس يحاولون دائمًا أن يجدوا نوعاً من التوافق بين مبادئهم وسلوكياتهم؛ لكن إذا ساءت الظروف، ووصلت إلى حد لا يطاق، فإن الذين ينحازون لمبادئهم قليلون، أو قليلون جداً. وإن مما تعلمناه كذلك أن وعي الناس متحرك؛ فما يهتمون به اليوم قد يهملونه غداً، وما يعدونه اليوم مُنفراً، قد يستسيغونه بعدُ من خلال الإلـف والـعـادـة.

الأفكار العظيمة قليلة الانتشار والتأثير؛ لأن تأثير الناس بمتطلبات غرائزهم، وراحة أجسامهم، وأحكام بيئاتهم أكبر بكثير من تأثيرهم بالتفكير المجرد.

وإذا رأينا بعض الأفكار وقد شاعت في الناس؛ فالغالب أنها قد بُسطت إلى حد التشويه. ونظريات الضرورة والتطور والنسبية والوسطية، مما تعرض للكثير من ذلك.

هذه أمثلة قليلة جداً لما يمكن أن تفيده من وراء سبر أغوار الماضي، والبحث عن طبائع الظواهر وامتداداتها. وقد آن الأوان لأن نعطي للتبصر والتحليل والدراسة من الاهتمام نحواً مما أعطاه المتقدمون للنقل والرواية؛ حتى نكمل الجهد الذي بدأوه.

٤ - فهم إطار الحـدـث:

إن الأحداث المبتوءة الصلة عن إطاراتها ومناسباتها، أشبه برقم، ليس له منظومة رقمية، فالرقم (٧) مثلاً غير ذي معنى، لو لا أنه جزء من سلسلة من الأرقام الأصغر والأكبر منه. الأفكار والاجتهادات والتصرفات، تكون دائمًا محتملة للخطأ والصواب إذا نحن نزععنها من الواقع الاجتماعي الذي لا ينتهي، وعلى سبيل المثال؛ فإن عزل رئيس الدولة لقائد ناجع، وإن توقيع معاهدة صلح مع عدو، وإعلان حرب على جار، ونفي شخص إلى جزيرة نائية... إن كل ذلك يمكن أن يكون صواباً، ويمكن أن يكون خطأ، لكن

عندما ننظر في صواب تصرف من تلك التصرفات في ضوء الظروف التي أحاطت به، فإنه يمكن أن نصدر حكماً اجتهادياً بالصواب أو الخطأ. وهنا نضع أيدينا على واحد من جوانب القصور في أسلوب السرد الذي اتبعه كثير من المؤرخين دون القيام بما يكفي من التعليل والتفلسف، والربط بين الأخبار المسرودة وظروفها التي أحاطت بها، ودون تسلط الضوء على الآثار التي تربت عليها.

وبيما أن الحكم على الحدث، وتفسيره على نحو مقبول، كثيراً ما يخضع لنوعية العلل والظروف التي مهدت له، فإن التزوير والدس والتشويه يعتريها أكثر مما يعتري الخبر نفسه. وحين يبني مجتمع حياته على الغموض، فإن عليه أن يكون مستعداً لقبول كل التعليلات التي تسurg على الجرائم الكبرى لبوس المشروعة؛ حيث إنّ من طبيعة الانبهام أن يسمح بعدد كبير من التأويلات الفجة. وأعتقد أن ضعف المكافحة والشفافية في حياتنا العامة، قد أدى إلى ذلك على نحو فاجع!

٥ - العلاقة بالتراث :

إن وضعية التخلف، تربك الوعي، وتجعل حده إحساسه تجاه التراث ومعطيات التاريخ واهياً. وهو إذ يحلل أسباب معاناة الناس، يضرب في كل اتجاه على أمل الإمساك بالعلة الحقيقة، لكن دون نتائج ذات قيمة. ووضعية التخلف من وجه آخر، تجعل الناس تقليدين، وأكثر التصاقاً بالأباء والأجداد؛ مما يدفعهم دفعاً إلى تعليق أهمية قصوى على الماضي باعتباره عائقاً لدى فريق من الناس، وباعتباره منقذاً ومخلصاً لدى فريق آخر.

وفي الأسطر القليلة الآتية سسلط الضوء على موقفين متطرفين من التراث، وعلى بعض المشخصات التي تساعدنا على حسن التعامل معه:

أ - لدينا كتاب كثيرون يعتقدون أن أسباب تخلف الأمة، تكمن - على نحو جوهري - في موروثها الثقافي، وبالتحديد في تراثها الإسلامي. وقد

وضع المستشرقون الأوروبيون الأسس والمناهج النقدية للحكم على تراث الإسلام، وقد جهدوا ليكشفوا نقائص ذلك التراث، ثم تعميمها عليه، ليقولوا للناس بعد ذلك: ليس لديكم ما تفخرون به، ثم إن تقدمكم - على النمط الغربي - مرهون ببنذ ذلك التراث والتخلص منه.

ونشأت لدينا مدارس، جل همها مجتمعة البرهنة على صدق مقولات المستشرقين، وشرح ما أجملوه. والانطباع الذي يخرج به من يقرأ لكثير من الكتاب المعاصرين أن تاريخنا كان مختصاً بالانكسارات والمعائب، وأن ما يسمى بالحضارة الإسلامية عبارة عن وهم كبير!

ب - هناك موقف مناقض لهذا الموقف، هو موقف المفتونين بالتراث الذائبين فيه، حيث نرى حرصاً شديداً على نشر الكتب التراثية مهما تكن قيمتها العلمية، ومهما تكن حاجتنا إليها. وإلى جانب الحرص على نشر الغث والسمين، هناك خوف وتوجس من آية قراءة للتراث، تنتهي إلى مقولات تخالف ما هو سائد ومنطبع في عقليتنا عن معطيات ذلك التراث. ومع نبل الدوافع إلى هذا الموقف إلا أنه يتتجاهل حقائق مهمة، لا نكاد نتمارى فيها اليوم، منها أن التراث عبارة عن إنتاج بشري، تتبدى فيه كل اجتهادات البشر، وكل أشكال تفوقهم وأنماط قصورهم؛ ومن الطبيعي أن يكون فيه آنذاك ما ينفع، وما يضر، وما يسوء، وما يسر. ومنها أن بعض الكتب التراثية، لم يتنفع بها الناس في زمان تأليفه نظراً لضعفه وقصوره، أو نظراً لشعور الناس بعدم الحاجة إليه.

ويمكن القول: إن في كتب التراث الكثير مما يشوّه عقلية الناس لو أطلعوا عليه، إما لأنه كان اجتهاداً بعيداً عن القواعد المعترف بها، وإما لأنه يحكي ضرورةً من الخرافة والزيف؛ فهناك الكثير مما أُلف في السحر والتنجيم، كما أن هناك كتاباً توصل للبدعة، أو تصور الذات الإلهية على نحو مشوه. أضف إلى هذه الكتب التي تعج بالأخبار الموضوعة والروايات المصنوعة والتعليقات الفاسدة . . .

مشكلة الافتتان بالماضي فوق هذا وذاك أنها من أسباب السلبية في التعامل مع الحاضر، فالمتلقيون بأمجاد الماضي لا يرون في الحاضر سوى الانتقاس والتقهقر، وهذا يحرمهم من التفاعل الحر مع معطيات زمانهم، ومن محاولة الانفتاح على ما فيه من إيجابيات.

إن نشر ما هبّ ودبّ من كتب التراث، والاحتفال به، دليل على أننا ننزع عن الإنتاج الثقافي تاريه خطيه وإطاره الاجتماعي، أي نجعله فوق الزمان والمكان، وهذا لا يكون إلا للوحى. أما إنتاجنا العلمي، فكثيراً ما تكون له مدة صلاحية، إذا انتهت، قل الانتفاع به، وقد الكثير من أهميته. أضف إلى هذا أنه يكون جزءاً من منظومة معرفية عامة، يتغير الكثير من ملامحها في كل عصر من العصور؛ وإذا أخرج الإنتاج المعرفي منها، فإن إفادته ومساهمته في رقي الحياة الاجتماعية، تكون متواضعة. وهذا كله يعني أن الانتقاء هو الخيار الصحيح الذي يجب أن نجتمع إليه.

ج - لا يصح القول: إن السبب الرئيس في تخلفنا يعود إلى التراث، لأسباب عديدة، منها: أن جزءاً مهماً من تراثنا، هو نتاج حضارة زاهية، ظلت مصدر إشعاع وتنوير للعالم مدة تقارب عشرة قرون. والأسس والأدبيات التي قامت عليها تلك الحضارة من صميم التعاليم الإسلامية، وهي تعاليم ذات صبغة عالمية، وما زالت تحمل طاقة هائلة على الحفز لإنشاء حضارة جديدة.

نعم في تراثنا أفكار وأقوال ومذاهب... كانت من العوامل في تعطيل الحضارة الإسلامية، لكن هل يخلو تراث أمّة من الأمم التي تمسك بزمام التقدم اليوم من نحو ما هو في تراثنا؟ بل هل يمكن لأحد أن يقول: إن الدول الغربية - مثلاً - تملك تراثاً أفضل من تراثنا؟ لا أظن أن أحداً يقول ذلك.

ومنها أن تأثير الظروف المحيطة في الفعاليات الحضارية أكبر بكثير من تأثير الموروثات الثقافية. ومعظم المسلمين الذين نصفهم اليوم بالعطالة

والكلالة ضعيفو الصلة بتراثهم إلى حد بعيد، بل إن أفضل شبابنا اليوم نشاطاً وعلمياً واستقامة متشبعون بالتراث، ومقدرون له. ثم إن من أبناء جلدتنا من ينظر إلى تراثنا نظرة ازدراء، وقد أفرغ جهده في نقد التراث، وتفسيفه السلف... ولم نجد أن ذلك صنع منهم عباقرة ولا مخترعين، وإنما وجدنا من أكثرهم أنانية منفرة، وأخلاقيّة عمل ضعيفة، وزنوعاً إلى الاحتيال، والوصول إلى المنافع الخاصة من أي باب، ومن أقصر طريق...

إن الأمم حين تملك عماد الانطلاق الحضاري، تستطيع أن تتجاوز المعوق من تراثها تارة، وأن تعيد تأويله وتفسيره تارة أخرى، كما تستطيع أن تستوعب إشكالياته ضمن أطر ونظم أرقى وأوسع تارة ثالثة.

د - التقدم الحضاري، يوسع مجالات الحياة، ويعقد النظم المسيرة لها، كما يركم مشكلاتها؛ وهو بذلك كله ينمي معارفها؛ وهذا يجعل كثيراً من الإنتاج الثقافي التراثي المتعلق بشؤون الحياة العامة ذا قيمة محددة؛ حيث إن طبيعة النمو تجعل التنظيمات والأطر والمفاهيم الكافية لتسخير مرحلة سابقة عاجزة عن القيام بمتطلبات مرحلة لاحقة.

النصوص التي توجهنا في المجال الحضاري العام، هي في النهاية محدودة إلى جانب كونها عظيمة المرونة؛ ولذا فإنها توجه وتهدي إلى الأصول والمقاصد العامة، وتشري الأدبيات أكثر من أن تبني أطراً جديدة للتنظيم والحركة، أو تساعد على حل مشكلات فنية. ويقال: إن المسلمين هم الذين أسسوا علم (المحاسبة)؛ ونعرف أن التقدم الطبيعي والفلكي والكيميائي... الذي أحرزه المسلمون إبان ازدهار حضارتهم، كان كبيراً جداً؛ فهل نحن قادرون على الاستفادة من ذلك الموروث في هذه المجالات: في حل المشكلات المحاسبية الحديثة - مثلاً - أو في غزو الفضاء، أو في زراعة قلب أو كبد؟ الجواب: لا. ولهذا فإن التابعين وجدوا أن ما ورثوه من العلم عن الصحابة الكرام غير كاف لحل

المشكلات التي أوجدها التقدم الحضاري في زمانهم فللجأوا إلى الاجتهاد؛ وفعل ذلك تابعو التابعين ومن بعدهم... ولو قدر للحضارة الإسلامية أن تستأنف دورها الريادي لوجدنا أن ما تراكم لدينا من العلم والفتوى، وأحكام الضرورات، وفقه الموازنات... غير كاف لتجيئ الحياة الإسلامية، والإجابة على استشكالاتها، ولو جب علينا أن نجتهد، ونفعل كما فعل سلفنا.

المقصود من كل هذا الكلام أن نقرر أننا لن نجد في التراث حلولاً جاهزة لحل المشكلات المعاصرة، وتنمية حياتنا الحضورية، وإنما سنجد - في الغالب - أصولاً هادبة، ومستندات أدبية لجهودنا البنائية والتحديدية؛ حيث إن اتساع الحياة الحضارية يحول الكثير مما كان في مرحلة سابقة بشكل أسلوبياً للحركة أو آلية للعمل إلى رمز، يوفر انتماء وعمقاً شعورياً أكثر من أي شيء آخر.

ويجب أن تكون على بينة من أن عظمة تراثنا، لن تقدنا من الشعور بالدونية وبالتهميش الحضاري، إذا لم تكن لنا مشاركة فعالة في بناء حضارة عصرنا.

هـ - الذات الحضارية ليست شيئاً معلقاً في الهواء من غير قاعدة ولا جذر، كما أنها ليست ترجمة لروايات وحكايات، تسرد بطولات الأجداد وأمجادهم، إنها قبل كل شيء فعالية منتجة ومبكرة ومجددة، وهي متصلة بالماضي ومتعددة في التراث. وإذا رأينا أمّة منتحطة، تعيش على هامش العالم، وخارج حركة التاريخ فإنها - في الغالب - إما منقطعة عن أصولها، تستجدي الترميز الثقافي على أبواب الأمم المتحضرّة، وإما منغلقة على ثقافتها، متعصبة لها، وهي في الوقت نفسه غير قادرة على الاستفادة منها في تنمية وضعيتها الحضارية. حين نفصل التراث عن الواقع، فإننا نعرض ذلك التراث للانحطاط والتحلل الذاتي؛ إذ حياته في دوام قراءته وتتجدد فهمنا له من أفق خبراتنا المتتجددة. كما أنها في الوقت نفسه نفق واقعنا؛ إذ نحرمه من مصدر مهم للتوجيه الفكري والأخلاقي والتربوي، ونزج بأجيالنا الجديدة في حمأة التشتت والخواء والاغتراب.

إن احترامنا للتراث لا ينبغي أن يتجسد في نقله ونشره فحسب، وإنما في توظيفه من جديد؛ حيث لا ينبغي لنا أن نبحث عن الجذور القديمة، ونرتاح، وإنما علينا أن نفكر في كيفية تغذية تلك الجذور، لكي تتحقق نمواً وازدهاراً جديدين.

العقل الجبار حقاً، ليست تلك التي تكتشف عظمة الماضي، ولا تلك التي تبدع شيئاً جديداً للرفاقة والقوة، وإنما تلك التي تكافح من أجل دمج معطيات التراث في مركب كبير شامل، هو الحياة الحضارية النامية والمتطرفة وفق الأصول الربانية الهدادية، وفي خدمة الأهداف السامية التي نسعى إلى بلوغها. بذلك الدمج وحده تستمر ذاتنا الحضارية، ونحقق المعادلة المطلوبة: تجذر في التراث من غير انزال عن تيار الحضارة، وتتجدد لأطر التحضر من غير انقطاع عن بعدها الشعوري والرمزي الذي يشكل التراث عموده الفقري.

و - نحن أمة ذات رسالة، نؤمن بضرورة بلوغها كل مكان في الأرض؛ وقد اشتغل خيار هذه الأمة منذ بزوغ الإسلام بذلك، وإلى يوم الناس هذا، كما أن إنجازات أسلافنا في المجال الفقهي - على نحو أخص - شيء يدعو إلى الإعجاب والفخر؛ ومن غير الممكن لأي مسلم اليوم أن يصحح عباداته ومعاملاته من دون الاستنارة بذلك التراث؛ وهو يخطي السواد الأعظم من حاجاتنا المعاصرة، وواجبنا تبسيط لغة الفقه، وتقريره إلى الناس حتى يصبح في متناولهم.

في تراثنا على المستوى العام نماذج كثيرة يمكن توظيفها اليوم في إصلاح شؤوننا، وإعمار الأرض التي نعيش عليها، وذلك من نحو أسلوب عمر رض في اختياره للولاة، وأساليبه في متابعتهم ومحاسبتهم، ومتابعة أحوال الرعية، وتحمل دولته لأعباء الحياة ولأواء الزمان على نحو ما تحمله العامة. ومن نحو المظاهر الإنسانية والحضارية التي سادت حقباً طويلة في تاريخنا، كآداب القضاء وأنواع الأوقاف، وأشكال مساعدة الضعفاء. وكبعض الأساليب التربوية والتعليمية، وغير هذا كثير، مما لم يزل صالحًا في شكله وجواهره لإعادة تطبيقه وتوظيفه في حياتنا العامة.

هناك أجزاء ومفردات من التراث، تصلح للاستلهام أكثر من صلاحتها للتوظيف، حيث يمكن اتخاذها بمثابة المحفز والدافع والدليل لنا نحو تحقيق بعض الإنجازات الكبرى؛ وهذا يعني أن علينا أن نركز على الجوهر أكثر من تركيزها على الرسم والشكل، وتلك الأجزاء كثيرة جداً، منها ما نجده في سيرة أفذاذ هذه الأمة من روح التضحية والعطاء والبذل في سبيل الله - تعالى - والحدب على الشأن العام؛ وكالذى نجده في تراجم العلماء من قبول الحق، والصدع به، والصبر على طلب العلم، والزهد في طلب الجاه والمنصب. وكالذى في سير الخلفاء الراشدين وغيرهم من الحرص على المصلحة العامة، وإشاعةالمعروف، وتحقيق العدل، وقبول النصح. وكالذى ساد في المجتمعات الإسلامية في أحيان كثيرة من مثل إكرام الضيف، ونصرة المظلوم، والإإنفاق على المعسرين، وصون الحياة العامة من الانحراف، والحرص على نظافة البيئة، والرفق بالحيوان... .

في تراثنا إلى جانب هذا وذاك أحوال وأوضاع ومواقف جديرة بأن نعتبر بها، ونأخذ منها قيساً لتطوير دروب حركتنا، وهي مواطن أكثر من أن تحصى. فالركون إلى الدنيا - مثلاً - والتمادي في الترف أديا إلى فشو الحسد والأحقاد الشخصية، وأصابا البنية الشعورية للمسلم بالكثير من الوهن والتراهيل. الفهم الخاطئ للقضاء والقدر والزهد، أدى إلى فشو الكسل والبطالة والجربية، وتعذيب الأجساد، والانعزal عن واقع الحياة.

الإسراع في حركة الفتوح، أدى إلى قصور آليات الاستيعاب التربوي والثقافي والاجتماعي للمسلمين الجدد.

اعتماد النظام (اللامركزي) في الحكم مع عدم تطوير نظم الشورى والمعارضة وانتقال السلطة على نحو ما يقتضيه اتساع رقعة الدولة، أدى - مع أسباب أخرى - إلى تفتت الدولة العباسية.

الجري وراء المنطق اليوناني الذي يعادي التجربة، كان مما تسبب في انطفاء شعلة المنهج التجريبي الذي أسسه القرآن الكريم، وإلى التخلف في الإنتاج الصناعي، وكساد سوق الحرف والمهن وهكذا... .

ولا أريد هنا أن أتحدث عن نقد التراث، وعن تجاوز بعض أشكاله؛ فذاك حديث طويل. وأعتقد أن مجرد الانخراط في حركة نهضوية جيدة سوف يجعل فهمنا للتراث أكثر عمقاً، وتعاملنا معه أكثر رشداً؛ ومن الله العhol والطول.

التجديد والموقف من الجديد:

البنية العقلية التي أسسها المنهج الرباني، والتي تمحورت حولها الثقافة الإسلامية فيما بعد، هي بنية مفتوحة، تجمع بين الصلابة والمرونة، فالإسلام يحرض على الاجتهاد، وهل هناك أكثر من أن يجعل لمن يجتهد ويخطئ أجرأ؟ وهو إلى جانب هذا يذم التقليد والمقلدين الذين يجعلون عقولهم رهينة لعادات ألفوها، أو مسلمات ورثوها عن الآباء والأجداد دون أي مستند من دين أو عقل أو علم.

وبحين أمر القرآن الكريم بال التجاوب مع المعطيات الجديدة، واكتشاف سنن الله - تعالى - في الخلق في سبيل تطوير مفاهيمنا عن الكون والإنسان، فإنه كان في الحقيقة قد فتح باباً للعقل، يرفده بالجديد، ويحول بذلك بينه وبين التأسن والتحلل الذاتي. يقول - سبحانه - : **﴿فَلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ اللَّهُ يُشَقِّ الشَّاءُ الْآخِرَةُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**^(١).

إن الإنسان وهو يسعى إلى فقه حركة الوجود، واكتشاف ثوابته، وأخذ العبرة من أحداثه وأزمانه، يعثر كل يوم على بعض المعطيات الجديدة، وبسبب من هذه المعطيات، يغير في عناصر رؤيته، وبذلك يتغير الكون نفسه، إذ الكون ما نراه فعلاً أنه الكون. وسوف تؤثر المفاهيم والرؤى الجديدة عن الحياة في سلوكنا، كما أثرت المفاهيم القديمة قبل أن تنسخ، وتترك مكانها للجديد.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

تصريف الأيام والليالي، يوجد ظروفاً جديدة، ويركم المعارف البشرية؛ مما يجعل تطلعاتنا إلى المستقبل في حالة من التجدد الدائم، ويجعل نظرتنا للتراث والخبرات القديمة أيضاً متتجدة. ويمكن لهذه الوضعية أن تكون مصدراً لتشتت الذات الثقافية، كما يمكن أن تكون عاملًا مهمًا من عوامل التجدد الذاتي والتطوير المعرفي والثقافي؛ فإذا انغلقنا على كل ما وفد إلينا من الماضي، واعتبرناه من عناصر هويتنا، فإن من المتوقع آنذاك أن نتخذ موقفاً سلبياً من الجديد، حيث لا نجد معادلة للجمع بين القديم والجديد؛ مع أن المنهج الرياني يحثنا دائماً على أن نستعلي على المعطيات التاريخية من خلال هضمها، واتخاذها أدوات نفتح بها حقولاً جديدة للفهم، ونبني أنساقاً للتفكير والشرح والتفسير، وبذلك نتجاوزها بدل أن نقع أسري لها.

إن المقابلة بين القديم والجديد، هي ضرب من ضروب ابتلاء الله - تعالى - لنا في هذه الحياة؛ وربما كان التصرف الأكثر رشدًا هو أن نجعل العلاقة بينهما على درجة من التوتر المتبع، وذلك من أجل استمرارية الثقافة الإسلامية، حين نحافظ على أصولها ومقوماتها الأساسية من قطعيات الوحي، ونردها بما ينميتها، ويطور مقولاتها من خلال توسيع دوائر الفهم والنقاش وال الحوار والجدل والتلقيح الفكري. وربما كان هذا هو الضمان الوحيد لتواصلنا مع ثقافتنا، ولصونها من الثقافات الأجنبية الغازية. الاشتغال على المفاهيم السابقة، والمواد المعرفية التراثية، يساعد في توليد حركة ثقافية جديدة، ومعطيات هذه الحركة سوف تتحول بعد مدة إلى مفاهيم قديمة، علينا أن نمارس معها الدور نفسه، وبهذا يتم التجديد، وتوليد الهوية، وتعزيز الذات الثقافية.

وهذه بعض الأفكار المتعلقة بالتجدد وال موقف من الجديد، نعرضها في المفردات التالية:

١ - الجديد خليط من الفرص والأزمات:

نحن كل يوم في شأن جديد، يتتيح فرصة جديدة، ويأتي بتكليف

جديد، ويولد مشكلة جديدة، ويحتاج التعامل مع كل ذلك إلى بصيرة متقددة؛ وهذا هو السر في تجدد دعاء المسلم يومياً مرات عديدة بطلب التنوير والإرشاد حين يقول: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وهذا ما غفل عنه كثير من المفسرين القدامى حين قالوا: معنى «اهدنا» ثبتنا على الصراط المستقيم.

تقلب الأحوال، وتجدد الأوضاع، يوجد مستويات عدة للظاهرة الواحدة، كما يوجد تفاوتاً مستمراً في أوضاعنا المعنوية والمادية، وهذا وذاك مصدران مهمان للتجدد، وتطویر التاريخ والحضارة، بل هما مصدران لنشأة المعارف والعلوم والأساق والنظم، لكن المشكلة أن الإنسان بسبب من قصوره الذاتي، لا يستطيع في الغالب مسايرة الأوضاع الجديدة، فيبدو دائماً وكأنه يلهم خلف شيء لا يمسكه، بدل أن يكون في موقع القيادة والتخطيط؛ بل إن الملاحظ أن معظم الناس يغفلون عن الجديد، ويسعون إلى التماهي بين ذواتهم وبين العناصر الميتة في ثقافاتهم، بدل أن يرتقوا بأحوالهم لتناغم مع العناصر الجديدة. وأكثر ما يتجلّى هذا في النظم التعليمية والتربوية والمناهج والمواد التي تقوم بتدریسها؛ فهي غالباً متخلفة عشرات السنين عما ينبغي أن تكون عليه.

أما العادات والتقاليد، فمطالعة أوضاعها قصة محزنة للقراءة، حيث يتمسك كثير من الناس بعادات بالية أكثر من تمسکهم بتعاليم الدين، مع أنها تتنافي مع الحياة الحضارية منافية تامة، وهم إلى جانب ذلك غير مقتنيين بها، لكن الخوف من النقد، والخروج عن المألوف، وما تواضع عليه المجتمع، هو الذي يجعلهم يرضخون لها.

إن المطلوب من الوعي دائماً أن يبحث عن ذاته لا في ذاته، ولكن في المعطيات العلمية والحضارية الجديدة، وهو بذلك ينكر ذاته، ويعرضها لنوع من الخلخلة، حتى إذا ما زادت معرفته بنفسه، صار إلى نقد العالم الخارجي، وكافح من أجل التميز عنه.

الظروف الجديدة بما تحتوي عليه من أزمات وفرص ومتطلبات، تشتت الوعي، فينقسم على نفسه حائراً بين القديم والجديد، والظاهر والباطن، والحقيقة والمجاز، والنظام والحرية... وكل مظهر من مظاهر الوجود هذه، يجذبه نحوه ليستحوذ عليه، وفي ذلك ابتلاء عظيم له. وكثيراً ما تخل هذه المتبادرات بتوازنه الداخلي، فيميل عن سوء السبيل، ويفتن بجزء من الحقيقة على حساب إicasr الحقائق الأخرى؛ وهذا ما يعني منه معظم الناس.

نحن مطالبون بالمحافظة على كل الأصول التي تُبقي على الواحد منا عبداً لله - جل وعلا - قائماً بأمره، ومبغياً لمرضاته، لكن علينا ألا نغفل عما يتطلبه التوافق مع حركة التاريخ من الفاعلية والتلتفو النوعي، والنجاح في مشروعاتنا، وتحسين مستوى إنتاجنا، والفهم العميق للتحديات المحيطة بنا... وحين نزاوج بين أصول الدين الحق، وفعاليات المعاصرة، فإننا نؤهل أنفسنا للسيطرة على (الحداثة) التي تسعى بطبيعتها إلى جعلنا ننبع من كل قيد، ونضرب في متاهات الجديد بعيداً عن جذورنا الثقافية.

٢ - من الغريزة إلى العقل:

التجدد الحضاري في رؤيتنا الإسلامية، لا يعني إنتاج الأشياء الجديدة، ولا نسخ سلوك قديم بسلوك حديث، وإنما يعني في جملة ما يعنيه الانتقال من الغريزة إلى العقل؛ فالإنسان البدائي والإنسان المنحط، يقترب في سلوكه من سلوك الحيوان، حيث البرمجة الغريزية هي التي توجهه، وتحدد مسار نشاطه.

التقدم الإنساني الحق، يباعد دائماً بين وضعية الإنسان ووضعية الحيوان، من خلال إغناء حياة البشر بالمفاهيم والرموز التي تجعل سلوكاتهم وعلاقاتهم منطقية ومتسقة وذات معنى، فهي على مقدار بعدها عن الرغبات الهوجاء العاجلة، تؤسس للمعقولة التاريخية والحضارية بما تمنحه للإنسان من آفاق السيطرة على نزواته، وبما تفتحه له من آفاق المتع الروحية والعقلية التي حرر منها الحيوان على نحو كامل.

من المؤسف القول: إن التيار الجارف الذي ينقل جل الناس اليوم من حال إلى حال ليس تياراً عقلانياً، على الرغم من عظم ما حدث من تقدم عقلي، وعلى الرغم من الاكتشافات والقوانين الفكرية الهائلة، وذلك بسبب العزلة بين المنظرين للحضارة وبينقوى الفاعلة في التغيير الاجتماعي؛ وهكذا نجد أن تصرفات بعض الدول وبعض الساسة لا تترك شكاً في أن الحكم لغريزة القوة، وليس لعقلانية النظام والمنطق والحق والعدل؛ فالبطولة خارج القانون تتعمق في الحياة يوماً بعد يوم!

وسائل الإعلام - ولا سيما الفضائيات - تحرك غريزة الجنس، وتحطم كل الآداب المرعية في هذا المقام؛ مما جعل سلوك بعض الناس - من كبار وصغار - يتجاوز بخطوات السلوك الجنسي لبعض البهائم!

ويأتي دور اقتصاد السوق القائم على توسيع الطلب من أجل تحريك الإنتاج؛ ليدفع بغريزة الاستهلاك إلى المقدمة، حتى صار مطلوباً من الناس أن يغرقوا في الاستهلاك من أجل مزيد من الإنتاج؛ وقد كان البشر قديماً يتتجرون ما يحتاجون إلى استهلاكه!

وهكذا حيّثما اتجهنا وجدنا من الشواهد ما يكفي للدلالة على أن زماننا هو زمان الغريزة لا زمان العقل!

لا بد من وقفة عقلانية ووجدانية نحاسب من خلالها موجات التجديد المتتابعة لنرى في النهاية في أي طريق تندفع: في طريق العقل والروح، أم في طريق الغريزة والشهوة، أي هل النظم والأساليب والأشياء الجديدة تدفع بنا نحو تحقيق إنسانيتنا، أم تدفع بنا نحو الاقتراب من فلك البهائم والسوائب؟؟ .

٣ - من القهقر إلى الإنقاذ:

إن من أهم المحاور التي ينبغي أن ينالها التجديد في حياتنا، نقل الاهتمام والعناية من حقول الأشياء إلى فلك الإنسان؛ فالتضخم المتواتي

لإنتاج الأشياء صرف الاهتمام عن الإنسان الذي تصنع من أجله الأشياء، فهو مهمل مهمس منسي في كل شيء إلا في قهره وارغامه والسلط عليه؛ مما دمر كيانه، وحصر جل طموحاته في إنتاج آليات مقاومة الفناء، والحصول على ما يمسك الرمق!

حين جاء الإسلام كانت المعاني الأدبية قد وهنت في حياة الناس؛ فابتعدت الله محمداً ﷺ - ليجددها في عالم الأفكار والمشاعر؛ بما يوليه للإنسان من الاهتمام، وبما يشعره به من الكرامة والثقة في إمكاناته... وقد قام ذلك على قواعد وأدبيات كثيرة، منها: رفع القهر عن الإنسان في أخص ما يمس وجوده المعنوي، وهو (الاعتقاد) يقول - سبحانه - : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَ الرَّشُدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١). وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢) لستَ عَلَيْهِمْ يُمْسِطِرِ﴾^(٣) . وقال: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغَ الْبَيْتَ﴾^(٤).

ومنها استخدام الدعوة والمجادلة والتي هي أحسن وسيلة للإقناع وتغيير الرأي. وقد ساق لنا القرآن الكريم صوراً كثيرة غنية بحوارات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أممهم، ومراجعتها لهم، من أجل تأسيس بعد تاريخي وشعوري لروح التفاوض في تشكيل المفاهيم والعقائد لدى الناس.

اليوم يعاني كثير من المسلمين معاناة شديدة من فرض (العلمانية) عليهم على نحو فج، يذكر بأقبح عصور العبودية والتخلف التي مرت بها البشرية. والعجيب أن كثيراً من الكتاب العلمانيين، ومن يطبل في مواكبهم من الأتباع، ليس لهم قضية سوى التشنيع على ما سموه (الأصولية) وعلى النظام الإسلامي باعتباره حكماً شمولياً، مع أن الإسلام أعلنها صريحة واضحة لا لبس فيها على نحو ما تجلى في التجربة الحضارية الإسلامية؛ حيث إن سعة أفق الشريعة وسماحتها في التعامل مع المخالفين في المعتقد،

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة الغاشية: الآيات ٢١، ٢٢.

(٣) سورة النور: الآية ٥٤.

كانت نموذجاً يحتذى، فحين كان اليهود يذبحون في بلاد النصارى، كانوا يلجأون إلى البلاد الإسلامية، ليجدوا فيها الأمان والحماية وحرية المعتقد.

إن الإسلام لا يرضي بفرض عقيدة التوحيد على الناس؛ لأن في ذلك تدمير روح الإيمان - التي هي قناعة واطمئنان - وتدمير القاعدة الأساسية للشعور بالمسؤولية، وهي الحرية في الاختيار؛ إذ لا مسؤولية بدون حرية، ولا حرية بدون القدرة على الاختيار والترجح.

إذا ما أرادت أمة الإسلام أن تستعيد ما فقدته أثناء عصور التدهور الحضاري، وإذا ما أرادت أن تجدد أبنيتها الشعورية والفكرية والحضارية، فإن عليها أن تكافح من أجل إرساء تقاليد ثقافية جديدة في حياتها الاجتماعية، تقاليد تقوم على اعتماد الإقناع وسيلة أساسية في التربية، والتغيير الفكري مهما كانت المصلحة تنادي بالإكراه والضغط والإرغام؛ لأن هدفنا أن نبني ذاتاً حرة تفعل ما تراه ملائماً، وتحمل نتائج أعمالها عن طيب خاطر؛ وهذا هو المشار إليه في قوله - جل وعلا - : «وَكُلُّ إِنْسَنٍ أَلْزَمْتَهُ طَهِيرَةً فِي عُنْقِهِ وَخَرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَنُهُ مَنْشُرًا ﴿١٦﴾ أَفَرَا كَتَبَكَ كَفَنَ يَنْقِسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَلَا تَرُدُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَمَا كُلُّ مُعَذَّبٍ حَقَّ بَعْثَ رَسُولًا ﴿١٨﴾»^(١). ولا يعني هذا بالطبع أن يفعل من شاء ما شاء، وإنما يعني أن استخدام القوة - مهما كانت - ينبغي أن يظل مؤسساً على شعور الناس بأنهم ينالون ما يستحقون من العدل والاحترام وتكافؤ الفرص، وقبل ذلك ما يستحقونه من حرية الاختيار وتكوين القناعات.

٤ - التنوع في إطار الوحدة:

هذا المبدأ من أعظم المبادئ التي يمكن أن ينتفع بها في موقفنا من الجديد، وممارستنا للتجديد، إذ إن الكون كله قائم على هذا المبدأ،

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٣ - ١٥.

و(الأسر الوجودية) هي الأطر التي تمثل نوّيات وحدة الخلق، وفي داخل تلك الأسر ما لا يحصى من أشكال التنوع ومظاهر التفرد: كل أشكال المساكن والملابس والمأكولات وأدوات الاستخدام، ومعادن الأرض ونباتاتها وبياهها... مؤطّرة بدواير تمنحها الوحدة، ومتّعة في أشكال وألوان وأحجام... تمنحها الخصوصية؛ مما يضفي على الكون كله التوحد والثراء. وال موجودات جميعها في النهاية متّحدة في أنها مخلوقه الله - جل وعلا - وبحكمها قانون التغيير والتحول. وكان هذا كله يهتف بالإنسان: أن رتب شؤونك على هذا الأصل: جدد ما وسعك التجديد، وتنوع ما وسعك التنويع، ولكن ليقف ذلك في النهاية عند حد - كما هو شأن الكون كله - ولا فليس أمامك سوى الاختلاط والفوضى والشقاء... .

الأمم التي تقود الحضارة اليوم، قد بلغت في التنوع المدى الأقصى، وكانت التنوع ثمرة مباشرة للتقديم الحضاري، أو هو بعض مظاهره؛ لكن الأطر التي تلملم شعث المذاهب والمبادئ والأفكار التي تموّج بها الساحات هناك - باتت واهية وقليلة، ولا تظهر الآثار المدمرة لذلك إلا في الأزمات، حيث ينكر الناس آنذاك أنفسهم، كما يتحسّرون ما يوحد شملهم للخروج من الصائفة، فلا يجدون من الإجماع ووحدة الفكرة والأرضيات المشتركة، ما يكفي للقيام بعمل كبير.

أما في البلاد التي تشكو من التخلف وبطء حركات التغيير؛ فإن الأمر يكاد يكون معكوساً، حيث تجد الكثير من الأطر التي توحد الناس إلى حد التطابق، لكن تلك الأطر فارغة من معاني التجدد والحركة والتنوع، وذلك بسبب ضعف الإبداع وقلة الإنتاج، والخوف المبالغ فيه من الفتنة والتفرق وانفلات الأمور... وحسن الناس منصرف في الغالب إلى مراقبة التطابق الشكلي والتوحد الظاهري، أما المضامين، فإنها تتغير على غير هدى، ومن غير توجيه صحيح، أي يخسرون من وحدة المضمون على مقدار ما يربّون من وحدة الشكل!

الإسلام بما هو بنية تحضيرية، يوضح لنا معالم الوحدة، ويبحثنا على التمسك بها بصرامة، كما يحثنا على مقاومة كل ما يمكن أن ينال منها، لكنه في الوقت نفسه ترك لنا في شؤون الحياة مساحات واسعة من الفراغ التشريعي والتنظيمي، حتى نستخدم في ملتها عقولنا وخبراتنا، مما يعني في نهاية المطاف إطلاق العنان للرأي والاختلاف والإبداع، وإغناء الحياة بكل ما يمكن أن يجعلها مرضية لشئى الأذواق، ومحقة لكل المصالح، وملائمة لكل الحالات الخاصة. هذه المنهجية في رسم حدود التوحد والاختلاف، هي التي مكنت أمة الإسلام من أن تؤسس (امبراطورية) ضخمة، تعجز عنها الآن الدول العظمى، وهي التي أوجدت حضارة مشتركة بين المسلمين في الأرض مهما كانت الظروف التي يعيشون فيها، ومهما كانت القوميات والجنسيات التي ينتسبون إليها. ولعلنا نلمس في أصول هذه المسألة وأدبياتها بعض ما يعطينا فكرة واضحة عنها من خلال الآتي:

أ - لا يستطيع العقل البشري أن يعمل دون إطار، وإطاره عبارة عن مبادئ ومعلومات وخبرات وأحساس توفرت للإنسان عبر تاريخه الطويل. ومن الواضح أن لكل مجال من المجالات إطاراً خاصاً به. وحين يمارس الإنسان التفكير والاجتهاد يتعدد العقل البشري بين الإطار والفراغ الذي سيملئه الاجتهاد، وبين المبادئ والكلمات من جهة، وبين الجزئيات والتفاصيل والمسائل الصغرى من جهة أخرى.

في كل مجال نمارس فيه الاجتهاد، ونحاول الوصول فيه إلى شيء جديد، تكون هناك قضايا كبرى أشبه بالمسلمات في ذلك المجال، وعلى المرء أن يمارس الاجتهاد ضمن معطياتها العامة، وإلا جعل من نفسه أضحوكة لأهل الاختصاص، وجعل من عمله نموذجاً للعبث.

وعلى سبيل المثال، فإنه لا يستطيع قائد عسكري اليوم أن يفكر في استخدام الأسلحة النووية باعتباره الخيار الأول، حيث تسلم كل الدول التي تمتلك أسلحة نووية أنها للردع، وليس للهجوم، وهي آخر ما يمكن أن

يفكر في استخدامه؛ والقائد الذي يفكر باستخدامها أولاً لا يختلف عنمن يريد قتل ذبابة بصاروخ!

من المسلمات في المجال الطبي ألا يصير الطبيب إلى التداخل الجراحي إلا عند الشعور بعدم جدوى العقاقير والأدوية، نظراً لمخاطر التخدير والاختلاطات المصاحبة للعمل الجراحي وهكذا...

إلى جانب هذا فإن في كل مجال من المجالات مسائل يتم الاجتهاد فيها ليس من أفق المبادئ والكلمات، وإنما من أفق الخبرات الفنية المحضنة؛ والخطأ في هذه الأمور ضعيف التأثير، قليل الأهمية في الغالب. وعلى حين أن الجهات هم الذين يخطئون عند النظر في القضايا الكلية، فإن الخطأ في الأمور الفنية، هو من اختصاص العلماء والمفكرين والخبراء. ومن خلال التردد بين المحاولات الناجحة والمخفقة، تنبثق حركة التقدم المعرفي.

من خلال هذه الآلية في التوليد الفكري يتم تحقيق التنوع في إطار الوحدة، كما يتم تجديد البنى الحياتية، كلها وفق أصول ومبادئ هادية؛ وبذلك نؤمن نوعاً من المزاوجة المنجية بين الثابت والمتحرك، والقديم والجديد، وبين الفطرة والخبرة، والمبدأ والمصلحة...

ب - إذا ألقينا نظرة على كلام الأصوليين وجدنا منحى تعقيدياً ينسجم على نحو جميل مع قضية التنوع في إطار الوحدة؛ فالقضايا الكبرى العلمية والعملية لا تكون مجالاً للاجتهداد نظراً لكونها تمثل العمود الفقري لمسألة الإيمان، كما تشكل الأرضية المشتركة للإجماع العلي، وذلك مثل الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان بالأنبياء... ومن نحو ما سماه الأصوليون بالكليات الخمس، وهي حفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسل، وما يعرف أيضاً من الدين بالضرورة، من مثل فرضية الصلاة والزكاة والحج... وحرمة قتل النفس والزنا والربا والسرقة... والتجدد في هذه المسائل لا يكون في أصل إثباتها، وإنما في إيجاد الوسائل التي تعزز التزام الأمة بمضامينها، والوقوف عند حدودها.

هناك مسائل فيها أدلة ثابتة قطعياً، ودلالتها على المراد، ليس فيها أي التباس، لكنها ليست معلومة من الدين بالضرورة إلى درجة استواء العالم والعامي في معرفتها؛ فهذه لا يتعدد الحق فيها، لكن قد يخطئ بعض الناس في حكمها نظراً لعدم اطلاعه على الدليل، أو لعدم فهمه الدليل؛ وهناك مسائل عديدة، أخطأ بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - ومن جاء بعدهم في الوقوف على الحكم فيها؛ فقد تعمك عمار بن ياسر بالتراب حين أصابته جنابة قياساً منه للتي تم على الغسل، مع الاتفاق على الفرق بينهما. وقد كان على عهد النبي ﷺ من أكل بعد طلوع الفجر حتى تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وخطوئهم قطعي، ولم يؤثمهم النبي ﷺ.

فإذا كان الباحث في هذه المسائل من نال أهلية البحث والاجتهد، وبذل جهده في التحري والتنقيب والتفكير، ثم لم يصل إلى الصواب، فإنه لا يأثم - إن شاء الله - لأنه أتقى الله بقدر ما يستطيع.

المسائل التي ليس فيها أدلة، أو فيها أدلة ظنية، أو أدلة ذات دلالات متنوعة، هي المجال الأساسي للاجتهداد، وحين يبذل المجتهد جهده للوصول إلى الحق فيها، فإنه إن أصاب الحق، حاز أجرين - كما ورد في الحديث -: أجر جهده، وأجر إصابته الحق.

وإن أخطأ فإن له أجر جهده الذي بذله.

وفي هذا تحفيز لمن يملك أهلية الاجتهداد على بذل الجهد في تجديد الحياة الإسلامية بما يصل إليه من آراء وأحكام في الأوضاع والأحوال التي يحتاج فيها المسلمون إلى رؤية جديدة.

ج - إن هذه الخطوط التي أشرنا إليها في مسألة الاجتهداد والتجدد، ضرورية جداً لإطلاق المبادرات الفكرية والعلمية من جهة، ولجعلها عناصر تنمية للحياة الإسلامية، لا عناصر هدم وبلاهة.

في بلاد المسلمين من يريد أن يجتهد دون آية خبرة بالنصوص، ودون آية أهلية اجتهادية معترف بها من لدن المختصين. ثم إنهم يريدون أن يجتهدوا في كل شيء، دون آية مراعاة للضوابط والمؤشرات التي وضعها

علماء الشريعة، وتعاونوا على تبنيها جيلاً بعد جيل. وهم يظنون أنهم بذلك يحررون العقل الإسلامي من قيوده، وينفرون عنه غبار التقليد، ولم يسأل أولئك أنفسهم: كيف يمكن لمثقفي الأمة أن يؤسسوا الخطاب السياسي والأخلاقي والتربوي إذا كانوا مختلفون في حرمة الزنا أو الخمر أو الربا، أو يبيحون للناس أن يتركوا الفرائض، ويتحفظون من الواجبات الشرعية؟!

الأجدر بهم والأمة مهددة بالتحلل والانحطاط أن يتصلبوا في التمسك بالثوابت، و يجعلوا منها قاعدة للإجماع الأهلي، والانطلاق الحضاري، حيث إن سمة (الالتزام) حسب المفهوم الشرعي، هي أكثر السمات قبولاً. للتعدين في المجتمع المسلم، وأكثرها منطقية وملاءمة لطبيعة الخلافية العقائدية والثقافية التي توجه سلوكيات معظم الناس في عالمنا الإسلامي.

د - نحن لسنا بحاجة إلى إرساء قواعد فكرية للتجديد، والترحيب بالجديد فحسب، وإنما نحتاج مع ذلك إلى بعض الدعائم الأخلاقية، كما أنها بحاجة إلى إثراء الأدبيات التي تشجع الناس على السعي نحو الجديد والاحتفاء به، ومحاولة تغيير السلوك بناء على معطياته... وإن عصور التقليد والانغلاق التي استمرت قرونًا، قد نمت لدينا الكثير من الأخلاقيات والعادات السيئة، حيث نميل إلى النفور من الجديد، ونتعامل معه على نحو مشوه؛ فنحن لا ندرك فضلها إلا بعد فوات الأوان، أي إذا صار قدماً! هناك عدد من الأمور التي تمهد لإرساء تقاليد ثقافية إيجابية في هذه القضية المهمة، منها:

- التنوع مطلوب في الفروع والمسائل الجزئية، على مقدار ما يطلب من وحدة الكلمة، والاتفاق في الأصول والمسائل الكلية؛ إذ إن اختلاف الناس فيما هو مناط للاجتهاد والنظر دليل على نمو الحياة، ووعي الأمة بذلك النمو، ومحاولتها تأطيره ضمن المدلولات الشرعية والحضارية، كما أنه دليل على أن الناس يملكون حيوية تحول بينهم وبين الاستسلام للتقليد، والحيرة تجاه الطارئ الجديد.

الاتفاق في المسائل الكلية دليل إيجابي آخر على أن مفكري الأمة وعلماءها يملكون الحساسية الكافية لجعل الخلاف يقف عند حدود بعينها، وهذه هي الحالة المثلثة في حياة الأمم قاطبة: نختلف فيما يحتمل الخلاف، ونتفق حيث لا يصح إلا الاتفاق. بل يمكن القول: إن اتفاق العلماء في المسائل الجزئية والفرعية دليل مرض لا دليل صحة؛ وذلك لا يكون إلا عند فشو التقليد، أو جمود الواقع الذي لا يتطلب فقهاً جديداً ولا اجتهاداً متجدداً. ولطالما أدى التطابق في الفروع إلى توليد ثورة على الأصول، حيث تظهر آفات التقليد في صورة انفجار، يذهب بالصالح والطالع.

- على المسلم أن يحرر رأيه الذي وصل إليه في أي مسألة مهما كان نوعها، وأياً كان مجالها من عادية الشهوة والهوى؛ إذ ربما وصل المرء إلى رأي من الآراء، ليس بسببِ مما وقف عليه من دليل أو برهان، أو ما حصل لديه من اقتناع، وإنما بسبب الحصول على مصلحة شخصية من ورائه، أو بسبب تحسس نفسي من موافقة من لا يرتاح إليه؛ فيكون تنوع الرأي ليس ناشئاً عن طبيعة البحث العلمي، وإنما من أمور خارجة عن الموضوع، وبعيدة عن الاجتهاد.

- إلى جانب الهوى هناك الجهل، إذ كثيراً ما يقتضي العلم السكوت أو الموافقة للآخرين، لكن انجذاب الناس إلى الخلاف بطبيعتهم، وعدم تراث كثير منهم في استيضاح الصواب، وتملك الأدوات الكافية للوقوف عليه - أدى إلى تشعب الأقوال وانتشار الآراء دون مستند علمي متيقن، أو مقتضى للخلاف وجيه.

وإذا نظرنا في آثار اختلاف المسلمين لوجدنا أن أسوأ الخلاف وأعظمه ضرراً ما نجم عن جهل أو هوى، أو عنهم معاً.

- المسلم ينشد الحق أينما كان، بل إن إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، من أعظم واجبات المسلم في هذه الحياة، لكن يجب على المسلم أن يلحظ إلى جانب هذا أمراً آخر، هو ألا يؤدي اجتهاده إلى تعادي

الجماعة وتناحر الأمة، وتفرق كلمتها، وليس المعادة صعبة كما قد يتواهم؛ إذ إن أكثر ما يؤجج نار الشقاق والخلاف بين المسلمين، ليس الاجتهاد في القضايا العملية، وإنما في المسائل العلمية والعقلية المجردة. وتاريخنا الإسلامي شاهد على ذلك؛ فكثير من الفرق التي خرجت عن إطار أهل السنة والجماعة لم تختلفهم في وجوب الصلاة والصوم والحج... ولا في حرمة قتل النفس وعقوق الوالدين... وإنما خالفتهم في مسائل تتعلق بالمعتقد، أو في تفسير أمور ماضية، أو في وقوع أمور في المستقبل، وما شابه ذلك مما لا يترتب عليه تمييز عملي بين أبناء الأمة؛ ولكنه لشطط في الإعراض عن النصوص، والشطط في تشغيل العقل في أمور لا يستطيع الاستقلال في الحكم فيها، على نحو ما نجده عند الخوارج والمعزلة وغيرهم... وقد ورد في حديث مسلم نهيه ﷺ عن بعض ما يسبب الفرقة، حيث قال: «ذروني ما تركتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلفتهم على آنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء، فدعوه».

ولا بد عند ممارسة النقد والإصلاح من ملاحظة هذا المعنى أيضاً، فربّ نقد لخطأ صغير، أدى إلى وقوع شر أكبر. وقد قال بعض أهل العلم: من شروط النهي عن المنكر ألا يؤدي إلى وقوع منكر أكبر.

وهذا هارون عليه السلام يصبر على دعوة السامري لبني إسرائيل إلى عبادة العجل، ويلزم الصمت إلى أن يعود أخوه موسى. ولما قرئه موسى على ذلك قال: «فَالَّذِي يَتَبَوَّءُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَيِّثُ أَنْ تَقُولَ فَرَقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي»^(١). فلم يشدد عليهم في الإنكار خوف الفرقة والاختلاف.

إذا ما أريد للجديد أن يكون نافعاً، وأن يكون جاماً للكلمة لا

(١) سورة طه: الآية ٩٤.

مفرقاً، فإن على صاحبه أن يتحرر من التعصب للأشخاص والمذاهب والطوائف والجماعات... أي أن ينبع من وحي قناعة شخصية مبنية على أدلة معتبرة ومؤصلة، وإلا فإنه يكون عبارة عن إضافة مريضة لتجذير حالة مرضية، تعاني منها الأمة منذ أمد بعيد.

حين تدور الفكرة في فلك شخصي أو مذهبي، فإنها تفقد جزءاً من مصاديقها، وجزءاً من جاذبيتها، فالمنفِّعُ الحرُّ، لا يضع في مسیرته الاجتهادية اعتبارات غير موضوعية، ولا يُخفي جزءاً من الحقيقة من أجل فلان أو علان، كما لا يؤكد على مسألة، ويبلغ في تقريرها لخدمة الحزب الفلانِي أو الجماعة الفلانية.

يحوز العالم الثقة حين يشعر الناس أنه لا يخاف في الحق لومة لائم، ولا يتغى من وراء اجتهاده تحقيق مصلحة شخصية له أو لفتة يتمنى إليها.

ويقع ما يشبه الكارثة حين يلتفت الناس يمنة ويسرة - ولا سيما في الأزمات - فلا يجدون من يمكن أن يضعوا ثقتهم فيه، أو لا يجدون من يشعرون أنه كفاء علمياً لأن يتبع على رأيه.

إن الفكرة الحرة يجب أن تظل دائماً مرفقة، تستعصي على القولبة والبرمجة، وعلى صاحبها ألا يتلزم بغير ما تلزم به الشروط الاجتهادية والموضوعية للقضية التي يعالجها. وعلى العالم والمنفِّعُ الحرُّ أن يكون على حذر من أن يُصنَّف مع هذه الفتنة أو تلك؛ لأن ذلك يعني تأطير الثقة به؛ وما نال الأئمة الأعلام في تاريخنا الإسلامي ما نالوه من الإمامة والثقة إلا من خلال تمعتهم بالاستقلالية الفكرية، وشعور الناس بأنهم أحرار بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

- إحسان الظن بالعلماء والمفكرين والمجددين، يشجع على الإدلاء بالجديد، ويساهم في تنشيط الحركة الاجتهادية. ومن واجب العالم إلا يقف موقف ريبة، ومن واجب الناس ألا يسارعوا إلى الاتهام ومحاكمة العلماء على التوالي، أو بعض المواقف العابرة. وعلينا أن نعلم أن من طبيعة

الاجتهاد إتاحة الخلاف؛ بل لا معنى أن تبيع للعالم أن يجتهد، ثم تطالبه بموافقة من سبقه في كل صغيرة وكبيرة. وقد كان سلفنا على جانب عظيم من التسامح في هذا الجانب؛ ولا سيما حين يرون في العالم الأهلية لممارسة الاجتهاد، والتجرد والصدق في تحريره للصواب، وبحيثه عن الدليل؛ فقد أنكر شريح قراءة من قرأ: «بَلْ عَجِّنَ وَيَسْخَرُونَ»^(١) وقال: إن الله لا يعجب. فبلغ ذلك إبراهيم النخعي، فقال: إنما شريح شاعر، ويعجبه علمه. كان عبد الله أعلم منه، وكان يقرأ: (بل عجبت). وهذا مع أن قراءة الضم قراءة سبعية قرأ بها من السبعة حمزة والكسائي. ولهم في ذلك مواقف في هذا الشأن تفوت الحصر^(٢). ولا يخفى أننا في كثير من الأحيان نبدو وكأننا أصحاب مطالب متناقضة، فإذا ألف شخص كتاباً - مثلاً - لم يأت فيه بجديد، زهدنا فيه، وشنعنا عليه. وإذا جاء عالم بجديد، توجستنا منه خيفة، وارتبا في قوله، واستوحشنا منه من غير أساس أو دليل يسوغ ذلك؛ وليس هذا من الإنفاق.

وفي الختام فإن اصطدام الآراء، ليس كارثة، وإنما هو فرصة لإثارة الفكر الذكي، وفرصة للبحث والتمحيص والمراجعة... وستكون النتائج - بإذن الله - باهرة إذا استطعنا استخراج خلاصات من خلافاتنا ومناقشاتنا، يجعلها أساساً لمشروعات عملية متجهة...؛ وعلى الله قصد السبيل.

(١) سورة الصافات: الآية ١٢.

(٢) بحثنا في هذا في كتابنا (فصل في التفكير الموضوعي): ١٦٤ وما بعدها.

www.alkottob.com

وعي
التخيير والتخيير

أ -
و -
ب -
ج -
ف -
م -
ه -
م -
ز -
و -
ال -
ل -
أ -
ل -
ش -
ال -
م -
(١)

www.alkottob.com

وعي التغير والتحفيز

إن انتقال الإنسان والمخلوقات كافة من طور إلى طور، ومن حال إلى أخرى، هو السنة العامة التي تحكم الوجود كله؛ لحظة ولادة، ولحظة فورة وقوه، ولحظة اتجاه نحو الضعف، ثم الموت. يقول الله - جل وعلا - معتبراً بصيغة العموم إشارة إلى هذه السنة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١) ويقول - سبحانه - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْئًا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ الْقَدِيرُ﴾^(٢).

هذا الحراك الوجودي، لا يكون دائماً في الاتجاه نحو الأسوأ، ولا في الاتجاه نحو الأفضل؛ فهو في المعايير الأخلاقية والمصلحية تطور محايده. وليس كل مرحلة من مراحل الوجود ذات بنية ثابتة وجامدة، وإنما هي بنية متفاعلة؛ حيث تشتمل على الكثير الكثير من النظم. آلية التطور مزدوجة، حيث ينبثق نظام جديد من نظام قديم، اجتاحه الخلل والاضطراب، وقد توازنه الخاص.

سنة التغيير هذه نعمة كبرى من الله - تعالى - إذ إن دوام حالة واحدة لأي شيء يجعله مملأ، فيفقد قيمته وألقه، أي أنه يفقد صلاحيته المثلث للحياة. الموت ذاته والذي يبدو مجرد تصوره مرعباً، يصبحي في حالات اشتداد الألم - كما في بعض مراحل أمراض السرطان - وفي حالات اليأس المطبق حلماً جميلاً، على نحو ما قال الشاعر العربي قديماً:

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) سورة الروم: الآية ٥٤.

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا
الانتقال من حال إلى حال، هو الباب العريض الذي يدخل منه كل
أولئك الذين يبحثون عن التخلص من ظروف النشأة والوضعية المتردية التي
وجدوا أنفسهم فيها، حين فتحوا أعينهم على الدنيا.

في تاريخنا الإسلامي رجال عظام ولدوا في أحضان الرق والعبودية.
وآخرون ولدوا في حالة من الفقر والبؤس الشديد، كما ولد آخرون وهم
يشكون من حالات إعاقة شديدة... لكن سنة الله - تعالى - في التغير
والتطور، كانت دائماً تولد خلخلة في تلك الأوضاع الرديئة، وتفتح أمام
أولئك دروبًا للارتفاع، كما تمنحهم فرصاً لحيازة المجد من كل أطرافه.

في معاييرنا الإسلامية أمام الشخص للخروج من ظروف الولادة الصعبة
ثلاث طرق واسعة ودارسة، هي التقوى، ونفع العباد والإحسان إليهم، والكفاءة
الشخصية في مجال التخصص والعمل والإنتاج. والمجتمع الإسلامي مطالب
بالاستجابة، وتغيير النظرة إلى كل من يتقدم في هذه السبل أو في بعضها.

كل ما يحدث في الكون وفي أجسامنا عبارة عن تغيرات قهرية، لا
يد للناس فيها، ولا يستطيعون تغيير سنتها، ولذا فإنهم بالتالي ليسوا
مسؤولين عنها، وهذا ما نسميه تغييراً.

أما التغيير، فإنه عمل قصدي بشري، يقوم به الناس بغية الوصول إلى أهدافهم.
القرآن الكريم يعلمنا أن تغيير الذات، هو أساس كل تغيير، بل إن
تغييرها، يمكن أن يؤدي إلى تغيير نظم طبيعية واجتماعية؛ وبالدعاء والاستغفار
والاستقامة يمكن أن تفيض السماء والأرض بالخير، كما يمكن أن يكثر النسل
والذرية. وحين تسوء أحوال النفوس، وتتغير النيات، ويفسد الداخل، فإن كل
النعم والإمكانات الجيدة، تمسي مهددة بالزوال؛ وفي هذه المعاني يقول الله -
جل وعلا -: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُفْتَنُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ يَتَعَذَّرُ مَا يُنَفِّسُهُ»^(١). وقال:

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ مُعِنِّيًّا بِنَفْسَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَعْرُوا مَا يَأْتِشُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَيِّئُ عَيْنَهُ﴾^(١). وقص علينا قول نوح ﷺ لقومه: «فَلَمَّا أَسْقَفُوكُمْ إِنَّمَا كَانَ عَنَّا عَذَابًا ﴿١٠﴾ يُرِسِّلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَازًا ﴿١١﴾ وَيَمْدُدُكُمْ بِإِيمَانٍ وَيَبْلُغُ لَكُمْ جَنَاحَتِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾»^(٢).

تجربتنا الإسلامية في الماضي والحاضر، تنطق بأن النصر الحقيقي الذي افتتحت به الحضارة الإسلامية انطلاقها، كان على مستوى النفوس، بتحريرها من حب الدنيا، ومن الطموحات الصغيرة، كما كان على مستوى العقول بتحريرها وتشغيلها، وفك إسارها من أغلال الخرافة والوهم والتقليد. ولم يكن التغيير الذي طرأ على النظام السياسي حين أسقطت منه الشورى، وممارسة الأمة لحقها في الولاية على نفسها - استجابة لتطورات سياسية واجتماعية، وإنما كان صدى لتراجع تأثير الإيمان في صياغة الشخصية، وتوجيه السلوك!

بات الاستعداد لأن نغير الكثير من سلوكنا وأوضاعنا أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى؛ فكل شيء اليوم يتتدفق، والابتكارات التي كانت في الماضي نتيجة جهد عدد من الأجيال، أصبحت الآن من نتاج جيل واحد. وهذا بالإضافة إلى أن من المتوقع أن يؤدي التواصل العالمي، وضمور تأثير المعطيات والاعتبارات المحلية إلى حدوث أزمات كثيرة على نحو متسرع، كما سيؤدي إلى وجود فرص سانحة، وأحياناً خاطفة، ويسبب من هذا وذاك فإن المطلوب من الأمم والأفراد على حد سواء امتلاك درجة عالية من الجاهزية للتخلص من عادات ونظم وأساليب وأدوات كانت إلى عهد قريب ملائمة للحياة الحضرية؛ والبحث عن بدائل لكل ذلك، تكون أكثر فاعلية، وأكثر انسجاماً مع المعطيات الجديدة. والمهمة الأولى تمثل دائماً في ابتكار نموذج للتغيير، ينسجم مع مبادئنا وأهدافنا، ويستوعب طبيعة التحديات المتتصاعدة التي تواجهها الأجيال الناشئة.

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٣.

(٢) سورة نوح: الآيات ١٠ - ١٢.

الناس غير مستعدين لتغيير أنفسهم، وتغيير مألفواتهم وعاداتهم، إلا إذا شعروا بحاجة ماسة إلى التغيير، أي إذا أجتناه إلى إلقاء. ولن يكون من المجدي كثيراً صدور قوانين ورفع شعارات تغييرية، إلا إذا أدرك الناس وظيفة هذه القوانين والشعارات وجدواها في تحسين أحوالهم، وتخليصهم من المعاناة اليومية التي تزعجهم، وهنا تبرز أهمية تغيير المجال الإدراكي للناس، وشحد أذهانهم، لتكون أكثر حساسية تجاه المتطلبات المتتجدة لحياتنا العصرية.

وأخيراً فإنني أعتقد أن فهم متطلبات التغيير يتوقف - في جزء منه - على فهم وقائع التغير الفهري الذي يحدث في هذا الكون، وذلك من أجل تحقيق الانسجام بين الإرادة الشرعية التي تتطلب تغييراً مقصوداً، وبين الإرادة الكونية التي تصف تفسيراً كونياً لا حيلة لنا تجاهه.

مقاومة التغيير

إذا أمعنا النظر في تاريخ البشرية، وفي واقعنا المعيش، وجدنا أن التطور (البيولوجي) يجعل من التغيير والتكييف قانوناً أساسياً للحياة^(١)، لكن مع هذا، فمحاولات الإخفاق في إحداث التغيير الملائم، وحالات الانتكاس عما تم تغييره، تشكل ملحاً من ملامح الحياة الإنسانية.

ويمكن القول: إن البشرية طالما وضعت في التغيير والتطور آمالها ومخاوفها في آن واحد؛ وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على حكمة الخالق عزّوجلـ في إيجاد التوازن الوجودي في أعمق طبقات الذات الإنسانية، وهذا التوازن نفسه، هو الذي يعقل جموح التغيير، ويرشده؛ وهو الذي يبحث البنى الثبوـتـية في حياتنا الاجتماعية على الانفتاح على الجديد، وعلى تقبـلـه؛ لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الموقف النهائي من التغيير يتم في معظم الأحوال وفق معادلة عقلانية مبـصرـة؛ فحقيقة الأمر أن الناس كثيراً ما يتمسكون بأمور تاريخية من غير مسوغات موضوعية، كما أنهم كثيراً ما يرفضون التغييرات الحديثة من غير أسباب مقنعة.

وإذا تسأـلـنا: لماذا يرفض الكثيرون التغيير، لم نجد الجواب الشافي في كل وقت، لكن بالإمكان وضع الـيدـ على عدد من المؤشرات التي يمكن أن نجملـها في الآتي:

- ١ - القصور الذاتي عامل مهم في مقاومة التغيير، حيث يشعر المرء

(١) تقدم الإنسان في السن - مثلاً - يتطلب منه تغييراً في عاداته الغذائية وبعض أنشطته.

في أعمق نفسه بالعجز عن استيعاب المتغيرات الجديدة، ويتحذّل التمنع من قبول الجديد شكلاً من أشكال الاستقطاب حول القديم والوقوعة عليه؛ فما كان هو خير، ومن الخير أن نبقي عليه. ومن السائر على السنة العامة: «الذي تعرفه خير من الذي ستتعرف عليه»، «ولا تعرف خيره حتى تجرب غيره». ولا أظن أن هذا القصور يعود إلى الطبيعة البشرية بمقدار عودته إلى طريقة التربية التي تلقاها الواحد منا، وإشراطات التعليم الذي تقلّب فيه؛ فالمرء إذ يقاوم الجديد، يدافع عن مفهومه للعالم - وهو مفهوم سكوني في أكثر الأمر - وعن القيم التي يخشى عليها من غواصات الأوضاع الجديدة؛ كما يدافع عن الحالة الآمنة التي يعيش في ظلالها.

القصور الذاتي هذا لا ينبع من حصيلة تكويننا الشخصي فحسب، وإنما من قصور المؤسسات التربوية والاجتماعية والسياسية التي تكون حساسيتنا نحو المتغيرات، فالمدارس - على سبيل المثال - تتسم بالكثير من الجمود؛ والمناهج التي تدرسها ضعيفة الشفافية نحو متطلبات المعاصرة، وحين يرى الطالب المنتجات التقنية، يتكون لديه شعور بتأخر مدرسته عن استيعاب الواجبات الجديدة التي عليها أن تضطلع بها.

٢ - موقف المرء من التغيير كثيراً ما يحكم من قبل الوضعية التي يتلبّس بها، فالراحة العقلية والشعورية، تشجع الإنسان على الانفتاح نحو الواردات الجديدة أيّاً كان نوعها؛ وذلك بما تشيّعه في حياة المرء من ثقة وتفاؤل.

في حالة التعب والإعياء، وفي حالة الضعف المتولد من التقدم في السن، تعمق المخاوف من التغيير، حيث يستحضر المرء آنذاك كل سلبيات التغيير، ويكون عاجزاً عن إدراك إيجابياته.

والمرء حين يتقدم في السن، يفقد من مرونته العقلية والتفسيرية على مقدار ما يفقد من مرونته الجسمية، حيث يكون التيسير هو سيد الموقف.

ومن الواضح أن الأجيال الجديدة، تبدي - بسبب حداثة السن - تسامحاً تجاه تطوير العادات والأعراف وتغييرها أكبر مما يبديه الرجال.

النساء أيضاً يبدين من المرونة تجاه المتغيرات أكبر مما يبديه الرجال؛ ولا سيما الأمهات منهن؛ فإنهن يعدلن من سلوكيهن بسبب احتكاكهن بأطفالهن. أضف إلى ما سبق أن التلاوم مع الجديد، يتطلب دائماً جهداً إضافياً، ولذا فإن غض الطرف عنه يمسى هو الأسهل لدى كل الضعفاء.

٣ - حين يهاجم الكائن الحي، فإنه ينكش، ويتجمع على نفسه، وحين يبذل الإنسان عدداً من المحاولات في تغيير أمر ما، ويجد الأبواب أمامه موصدة، فإنه - في الغالب - يستسلم لليلأس، ولا يتجمع حول ذاته، فحسب، وإنما يتكتس، فهو يقلل أو يوقف مبادراته مع البيئة المحيطة إلى أدنى حد ممكن. وكثيراً ما يستوى في نظره آنذاك القديم والجديد، والماضي والآتي؛ حيث علمته التجارب أن لا أمل في التغيير حيث لا فرصة أمامه. حالة عدم الاكتتراث بهذه نتاج مزيج من المشاعر المحبطة والتجارب المخفة.

وإذا نظرت في أوضاعنا اليوم، لا يتبادرك أي ريب، في أن السلبية المخيفة التي يبديها السواد الأعظم من مسلمي اليوم تجاه ما يدور حوله من أحداث جسام، هي مولود شرعي، لما ترسخ في أعماق شعوره من أن الكلام في أي أمر، ومحاولة الإصلاح في أي اتجاه، لا يعدو أن يكون صيحة في واد، وجهاداً في غير عدو، فكل شيء مُنتهٍ، والإيجابية والسلبية وجهان لعملة واحدة!.

٤ - يعود خوف الناس من التغيير، والتوجس من الجديد في أحيان كثيرة إلى غموض الآثار التي سيتركها الجديد في حياتهم؛ وهذا الغموض يعود على نحو جوهري إلى أن العديد من خيوط الأوضاع الراهنة مستقل بعضها عن بعض؛ بعبارة أخرى يخشى الناس من الآثار الجانبية وغير المباشرة التي يمكن أن تترتب على الأوضاع الجديدة.

وعلى سبيل المثال، فإن نشر التعليم في القرى كان ضرورياً، لكن لأنه تم بمنهجية لم تراع خصوصية البيئة الزراعية، فإنه قد ساعد على تفريغ

القرى من الشباب المتعلّم، إذ دفع بهم إلى المدن حين أهلّهم للعمل فيها؛ فالتعليم الذي كان يستهدف إعمار القرية ساهم - دون قصد في إضعاف موقعها ودورها في البناء الحضاري.

كثير من الناس خافوا من تعليم الفتاة - في البداية - لأنهم رأوا أن معظم اللواتي خلعن الحجاب، وأسسن للتمرد على الأسرة كن من المتعلمات...

لاحظ كثير من الناس أيضاً أن كثيراً من الأفكار التي تدعو إلى الاستقلال العقلي، ومسايرة روح العصر، قد ولدت لدى معتنقها نوعاً من العتمة الروحية، مما أدى إلى التحلل من كثير من القيود الأخلاقية التي كانت محترمة من قبل. وهذا في اعتقادي ليس نتيجة مباشرة لقبول الأفكار الجديدة، وإنما يحدث بسبب إهمال الجوانب الروحية لدى هذا الفريق من الناس.

بعض الناس يملك إحساساً بأن الاستجابة لدعوات الانفتاح والاتزان والتعقل، تفرز لدى كثيرين شططاً، يجعلهم في حالة من الترهل الشعوري، ويشير فيهم روح التوفيقية والنسبية، كما يضعف لديهم الحساسية نحو الخصوصية الثقافية والحضارية. وأعتقد أن هذه التوجسات مشروعة، لكن الاستسلام لها دون توسيع قاعدة الفهم والتحليل والمتابعة الدقيقة، ترتب عليه آثار سيئة جداً.

٥ - يقف المجتمع بكل فتاته حارساً على قيمه وأعرافه، وهو مستعد لإقصاء من يخرج عليها، ونبذه؛ ولذا فإن من المصادر الأساسية لمقاومة التغيير الخوف من الابتعاد عن القوانين التي يسنها المجتمع. ومن الواضح أن الناس كثيراً ما يتضايقون من بعض العادات والتقاليد، ويشعرون بعدم منطقيتها، لكن الخوف من العزلة الاجتماعية، هو الذي يجعلهم يمثلون لها، حتى في الأمور الشخصية التي لا تتعلق بأهداف اجتماعية، ما دامت ممارستها تتم في إطار اجتماعي. ولذا فإن بعض الباحثين الاجتماعيين يرون

أن تغيير عادات جماعة ما أسهل من تغيير عادات شخص منفرداً؛ وهذا هو بالضبط ما يعطي للقانون أهمية استثنائية، حيث إنه يُسن أساساً من أجل معالجة المسائل الاجتماعية، ويُطبق على الجميع.

٦ - يقاوم كثير من الناس التغيير لا لأنهم يرفضون مدلولاته أو نتائجه، ولكن لأنهم حملوا عليه حملاً، وأكروها قسراً على الاستجابة له. وهذا في الحقيقة مصدر كبير من مصادر مقاومة الناس لبعض جوانب الإصلاح في البلدان التي أهمل فيها الأخذ برأي الناس فيما يتصل بأوضاعهم ومصالحهم ومستقبلهم. وقد قام أحد الباحثين بدراسة للتعرف على موقف بعض العمال من إدخال آلات ونظم جديدة إلى أحد المصانع، حيث قام بتقسيم العمال إلى ثلاث فئات:

- أ - فئة وضعت لها الأنظمة والتعليمات من قبل خبراء، وأمرت بتنفيذها.
 - ب - فئة دعيت لإرسال مندوبيين وممثلين لها، يساهمون في وضع الأنظمة.
 - ج - فئة قامت كلها مجتمعة بالمشاركة في مناقشة الأنظمة وإقرارها.
- وكانت النتيجة أن الفئة الثالثة تقبلت الأنظمة ونفذتها على نحو ممتاز. أما الفئة الثانية، فنفذتها على نحو مرضي. أما الفئة الأولى فقد نفذتها على نحو سيئ.

هكذا فالناس يأنفون من تقبل التطوير الذي يملئ عليهم إملاء مهما كان موضوعياً ومنطقياً، ومهما كانت النتائج المرجوة منه باهرة.

بعد كل ما قلناه، فقد يرفض بعض الناس التغيير لأسباب نفسية أو عاطفية غامضة، كما أن بعض الناس قد يقاوم التغيير اتكاء على علل واهية وتافهة. وسيكون المطلوب في كل الحالات البحث عن الأسباب الحقيقية لمقاومة التغيير، وسنجد أن بعضها مشروع، وتجب مراعاته، كما أن بعضها غير مقنع ولا موضوعي، وهكذا الإنسان فإنه كثيراً ما يصنع المفاجآت، و يجعلنا عاجزين عن توقع ما سيفعل.

توجيه التطور

إن من تمام ابتلاء الله - تعالى - للإنسان أن جعله في سياق من التطور، يستوجب دائمًا نوعاً من تفتح الوعي والمجالدة، ومعالجة الكثير من أشكال التحول التي تنزع إلى ما هو ضار بدنيًا المؤمن أو آخرته. الإنسان حين يكون خاماً يكون وعيه بواقعه محدوداً، كما أن إدراكه لاتجاهات التطور الذي تتعرض له حياته الخاصة وبينته اللصيقة يكون سطحياً.

التقدم العقلي والعلمي ونضج الوعي، أمور تساعد المرء على التعامل مع التفاعلات الجارية، وتتخمين مآلاتها ومنطق تطورها، وتمكنه من التدخل فيها على وجه من الوجه، واستثمارها لتحقيق أهدافه الخاصة. ويمكن القول: إن أحد مقاييس التحضر المهمة اليوم يكمن في مدى سيطرة الناس على بيئاتهم الاجتماعية والطبيعية، ومدى قدرتهم على استيعاب سُنة التغيير، والتلاوُم معها. وحركة البحث العلمي في معظم مجالات الحياة تستهدف هذه المسألة على وجه التحديد.

وهذه بعض الملاحظات حول هذه المسألة المهمة:

١ - إذا ما أردنا أن نرشد التغيرات الجارية، فإن أول خطوة علينا أن نخطوها، هي فهم الواقع الذي ستؤثر فيه التغيرات المستقبلية.

ومن المؤسف في هذا الصدد أن نقول: إن الواقع السيء الذي يعيشه معظم المسلمين اليوم، قد دفع بهم إلى رفضه، والتصدُّد عن محاولة الإمساك بالخيوط التي تشكل نسيجه العام، على نحو ما يدفع الألْم الإحساس إلى عدم الشعور به. ومع هذا فإن هناك رغبة عارمة في تغييره،

وهذا وذاك، يؤديان إلى نتيجة سيئة، هي تصور الواقع من خلال المعلومات المخزونة والملحوظات الجزئية والانطباعات العامة، دون القيام بدراسات وأعمال مسحية وإحصائية جادة.

ونظراً للبعد عن الالتحام بالواقع، فإن الحلول المقترحة، تكون هي الأخرى عبارة عن طروحات نظرية، بعضها مختلف، وبعيد عن المحركات العقلية والعلمية الجديدة؛ وبعضها عبارة عن أوهام، نبعـت من خـلال الإحساس باليأس والتآمر وتراكمـات الإـخفـاقـ. ويمـكـن القـولـ: إنـ ماـ لـدـيـنـاـ منـ ثـقـافـةـ وـمـعـرـفـةـ، يـمـسـيـ أـدـأـةـ قـاـصـرـةـ عـنـ فـهـمـ الـوـاقـعـ وـتـغـيـرـهـ؛ لأنـهـ - بـسـبـبـ العـزـلـةـ - يـكـونـ مـحـرـومـاـ مـنـ الإـحـسـاسـ بـقـوـانـينـ الـضـرـورـةـ، وـمـلـجـنـاتـ الـظـرـوفـ الصـعـبـةـ، وـالـإـمـكـانـاتـ الـمـحـدـودـةـ، وـطـبـيـعـةـ الـمـواـزـنـاتـ الـدـقـيقـةـ وـالـمـحـرـجـةـ. وهذاـ هوـ السـرـ فيـ أـنـاـ دـائـمـاـ نـطـالـبـ غـيرـنـاـ بـإـنجـازـ أـمـورـ كـثـيرـةـ وـكـبـيرـةـ، لـوـ كـنـاـ فـيـ مـوـضـعـهـ لـمـ اـسـتـطـعـنـاـ أـنـ نـنـجـزـ أـكـثـرـهـاـ.

إنـ لـدـيـنـاـ الـيـوـمـ كـمـاـ هـائـلـاـ مـنـ الـمـعـلـومـاتـ التـيـ تـشـرـحـ الـوـاقـعـ، وـتـقـرـيـهـ إـلـىـ الـفـهـمـ، لـكـنـ أـكـثـرـ هـذـهـ الـمـعـلـومـاتـ ظـنـيـ، وـتـصـعـبـ الـبـرـهـنـةـ عـلـيـهـ. وـهـذـاـ الفـيـضـ الـمـتـدـفـقـ مـنـ الـأـخـبـارـ وـالـمـلـحـظـاتـ يـعـزـزـ الـوعـيـ عـنـ الـتـعـاـمـلـ مـعـهـ، مـاـ يـدـفعـهـ إـلـىـ الـاقـتصـارـ عـلـىـ بـعـضـهـ وـإـهـمـالـ الـبـاقـيـ. وـهـذـاـ الـذـيـ نـعـتـمـدـهـ مـمـثـلـاـ لـلـوـاقـعـ كـثـيرـاـ مـاـ يـتـمـ اـخـتـيـارـهـ عـلـىـ أـسـاسـ مـنـ تـوـجـهـنـاـ النـفـسـيـ وـأـحـوالـنـاـ الشـعـورـيـةـ. وـنـظـرـاـ لـعـدـمـ وـجـودـ تـنـسـيقـ بـيـنـ مـفـرـدـاتـ خـبـرـتـنـاـ الـمـتـعـلـقـةـ بـالـوـاقـعـ، وـنـظـرـاـ لـأـنـ أـجـزـاءـ مـنـ الـوـاقـعـ تـظـلـ مـسـتـرـتـةـ، حـتـىـ عـنـ أـكـثـرـ النـاسـ اـهـتـمـاماـ وـمـتـابـعـةـ؛ فـإـنـاـ نـشـعـرـ دـائـمـاـ أـنـ فـيـ الـصـورـةـ الـمـتـحـصـلـةـ لـدـيـنـاـ عـنـ الـحـالـةـ الـحـاضـرـةـ فـجـوـاتـ عـدـيـدةـ، تـحـولـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـ التـحـلـيلـ الـجـيدـ؛ وـهـذـاـ مـاـ يـلـجـنـنـاـ إـلـىـ اـسـتـخـادـ الـفـرـوـضـ الـفـلـسـفـيـةـ، حـتـىـ نـتـخـلـصـ مـنـ تـحـديـ الـمـسـافـةـ الـفـاـصـلـةـ بـيـنـ التـجـرـيـدـ الـذـيـ تـرـتـكـزـ عـلـيـهـ الـحـلـولـ الـعـلـمـيـةـ وـبـيـنـ التـنـوـعـ الـهـائـلـ وـالـمعـقـدـ لـلـوـاقـعـ الـمـعـيشـ.

وـإـذـاـ كـانـ الـأـمـرـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـالـ، فـلـيـسـ أـمـامـنـاـ سـوـىـ أـنـ نـبـذـلـ أـقـصـىـ

الجهد في تلمس ما يراد تغييره وتطويره، مع الاعتراف بالقصور والتقصير، وترك مساحة في طروحاتنا ومقولاتنا للخطأ والسلو، وتقبل الرأي المخالف.

٢ - في ظل النظام العالمي الجديد، وانفراد الغرب - ولا سيما أمريكا - بالتصريف بالشؤون الدولية، سوف يتضاعف إحساس المسلمين بالسيطرة الأجنبية، وبالمرارة، وسوف يحتاجنا شعور متزايد بتآمر الآخرين وعدوانهم. وسنعتبر عن ذلك بعبارات كثيرة؛ وهذا سوف يدفع الغرب إلى المزيد من الضغط علينا؛ ولا سيما أن أخلاقيات الغرب الحضارية القائمة على التسامح والتعددية، باتت في حالة من التأكل المستمر.

والنتيج لكل ذلك أن يحمل كثيرون منا نفسية الحقد والكراهية والأخذ بالثأر... ومع أنه لا يجوز لنا أن نتجاهل موقف الآخرين منا، أو نغض الطرف عنه، إلا أن المهم دائمًا لا ننسى أن هذه الأمة مكلفة بصفة دائمة، وحتى قيام الساعة بتبلیغ رسالتها الإسلام للعالمين، مهما كانت درجة عدائهم لنا. وهذا يقتضي أن نتشبع بروح الدعوة، وأن تفيض قلوبنا بالشفقة والرحمة والحرص على هداية الناس؛ فالدعوة ليست واجب الأمة فحسب، وإنما هي رسالتها الحضارية للبشرية، وهي أداتها للتمييز بين الأمم، وهي أحد مسوغات وجودها؛ كما قال - جل وعلا -: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلَّئَاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَوْمَنُونَ بِإِلَهٍ مُّنَاهٍ»^(١).

إذا غاب عنا هذا الحسن وهذا الهم، فإننا سنحكم على أنفسنا بالدونية وبالتهميش، ونتحول إلى كائنات بشرية، لا تحسن سوى الشكوى، ولكن شكوى لا يسمعها أحد، ولا تنفعها في دنيا ولا في آخرة! .

٣ - شهدت السنوات العشر الماضية تبدلات نوعية في أمور عديدة، فالتأزم الاقتصادي بات شيئاً مقيماً ومستمراً في معظم البلدان الإسلامية؛

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

وتحسنـه - فيما يبدو - سيظل في مستوىً أدنى مما يكفي لتلبية الحاجات الأساسية لمعظم المسلمين. في الوقت نفسه ارتفعت وتيرة الرغبة في الاستهلاك، وتحول الكثير مما كان يعد كمالاً إلى أشياء أساسية.

النشاط الدعوي والإصلاحي مصاب بالإحباط، والأفاق أمامه لا تبدو فسيحة. الحساسية العامة نحو أهمية الاستقامة والعدالة والحرية، شهدت انتكاسات مريرة... هذه الوضعية شبه عامة، وإن كانت تتفاوت درجتها من بلد إلى آخر.

نـتج عن هذا وأشياء أخرى من هذا القبيل نوع من التحلل في الشخصية، على الرغم من بروز بعض سمات التدين لدى بعض الناس. والرزانة التي كان يتميز بها الإنسان الشرقي عامة، باتت في أوهى حالاتها، وحل محلها انقياد قوي للرغبة، وخضوع أشد للمصلحة الخاصة...

ما هو مـسطـر في المناهج المدرسية من أخـلـاقـيات وأدبـياتـ، ما زـالـ على حالـهـ. والأحكـامـ الشـرعـيـةـ، كالـمـوـادـ القـانـونـيـةـ، هيـ الأـخـرىـ ثـابـتـةـ، لكنـ خطـ التـمـثـلـ وـالـتـشـرـبـ وـالـأـنـصـيـاعـ لـذـلـكـ كـلـهـ آـخـذـ فـيـ الـابـتـعـادـ عـنـ الـخـطـ الـذـيـ تـرـسـمـهـ الأـحـكـامـ وـالـنـظـمـ وـالـقـوـانـينـ، أيـ هـنـاكـ اـزـدواـجـيـةـ مـرـاضـيـةـ. فـعلـىـ المـسـطـوـيـ الـقـانـونـيـ هـنـاكـ -ـ فـيـ أـوـضـاعـ عـدـيـدـةـ تـخـمـةـ فـيـ الـقـوـانـينـ، لـكـنـ النـافـذـ مـنـهـاـ قـلـيلـ.

وـعـلـىـ مـسـطـوـيـ الـمـنـاهـجـ الـدـرـاسـيـةـ، هـنـاكـ مـنهـجـ مـضمـرـ مـصـاحـبـ لـلـمـنـاهـجـ الـمـجـسـدـةـ فـيـ الـكـتـبـ الـمـدـرـسـيـةـ؛ وـذـلـكـ الـمـنـهـجـ يـتـمـثـلـ فـيـ الـقـيمـ وـالـعـادـاتـ وـالـإـجـرـاءـاتـ السـائـدـةـ فـيـ سـلـوكـ الـمـدـرـاءـ وـالـمـدـرـسـينـ وـعـلـاقـتـهـمـ بـطـلـابـهـمـ، إـلـىـ جـانـبـ الـأـعـرـافـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـمـرـعـيـةـ. وـالـطـلـابـ يـتأـثـرـونـ بـهـذـاـ الـمـنـهـجـ أـكـثـرـ مـنـ تـأـثـرـهـمـ بـمـاـ هـوـ مـقـرـرـ عـلـيـهـمـ؛ حـيـثـ إـنـ لـسـانـ الـحـالـ أـبـلـغـ مـنـ لـسـانـ الـمـقـالـ. تـسـرـيبـ الـأـسـنـلـةـ لـلـطـلـابـ، وـالـغـيـابـ عـنـ الـمـدـارـسـ، وـاـنـتـشـارـ الـدـرـوسـ (ـالـخـصـوصـيـةـ) بـمـؤـشـراتـهـ الـأـخـلـاقـيـةـ السـيـئـةـ، وـتـضـاؤـلـ هـيـةـ الـمـعـلـمـينـ...ـ كـلـ ذـلـكـ أـدـىـ إـلـىـ إـجـهـاـضـ كـثـيرـ مـنـ الـمـدـلـولـاتـ التـرـبـيـةـ وـالـخـلـقـيـةـ لـلـمـنـاهـجـ

الدراسية، والمرجعيات القانونية، وستكون عواقب ذلك على الأجيال الجديدة مفزعه!

هذا الخط في تدهور الشخصية وتفككها أخذ - مع الأسف الشديد - في التعمق والاتساع؛ وبات من المهم اليوم أن نشن حرباً لا هوادة فيها على الفساد بكل صوره، وصرف المزيد من الاهتمام للتربية الأخلاقية، وتنمية حساسيات جديدة نحو النزاهة والنبل والاستقامة والالتزام بأخلاقيات المهنة، مما حثت عليه الشريعة الغراء، ومما تعارف عليه تميزو الأمم في كل مجال. وإذا لم نفعل شيئاً تجاه هذا، فإننا سنرى مجتمعاتنا، تذوب بين أيدينا ونحن واقعون للاستمتاع بمشهد السقوط الجماعي في مستنقع الانحطاط ! .

٤ - في زمان النبي ﷺ وما بعده من عصور إقبال الإسلام كان الخطاب الإسلامي بكل أدواته، يوازن على نحو مدهش بين الرؤية الشرعية والإسلامية للحياة والأحياء، وبين الملمح الإنساني أو النظرة الإنسانية، أو بين الفتوى والتقوى، حيث تلتقي أدق التفاصيل في مسائل الولاء والبراء والحلال والحرام مع التوجيهات العامة باحترام كرامة الإنسان وحقوقه ومشاعره وحرি�ته وطموحاته؛ بل تجاوز التوجّه الإنساني الاهتمام بشأن البشر إلى الاهتمام بشأن الحيوان والماء والنبات - على ما هو معروف ومشهور - لكن ذلك لم يكن على نحو عشوائي، وإنما من خلال بنية حضارية متقدمة، حيث يتم الانفتاح على الإنسان من خلال العلاقة بالخالق - جل وعلا - والانفتاح على الدنيا من خلال الانفتاح على الآخرة، أي أن الرؤية الإنسانية تقف على أرضية شرعية، وتتأطر بإطار ديني، فكل أشكال الإحسان للإنسان، وكل أشكال تقديره واحترام كيانه والاعتراف به، وحفظه... . تتم من أفق التعبد لله - تعالى - وكان هذا طبيعياً ومنطقياً في أمّة تعلن الولاء للدين الحنيف، وتسترشد به في المن斯特 والمكره.

حين دخلت الأمة في نفق الركود الحضاري - وكان ذلك على مراحل

- اختل ذلك التوازن الذي أشرنا إليه؛ لأن من شأن التخلف أن يضرب التوازنات، وأن يضعف الحدس والشفافية الكافية نحو المعادلات الحضارية.

قد صار الخطاب الإسلامي يركز على التفاصيل الفقهية والأداب الجزئية، وصارت حساسيته للمسات الإنسانية ضعيفة. إن قاعدة: «العقد شريعة المتعاقدين» قاعدة صحيحة وعالية، لكن اللهمحة الإنسانية تجعلنا ننظر إلى ما هو أكثر من هذا: إلى الظروف التي أحاطت بأحد طرف العقد ومراوغاتها، فقد يكون وافق على مضمون العقد بسبب الحاجة الماسة، كما في العامل الذي رضي بأجر زهيد وأقل بكثير من أجر أمثاله؛ حتى يدفع عن نفسه خطر ال�لاك وضراوة الجوع. حين يعجز إنسان عن قضاء ديونه، فإن للقاضي - بناء على طلب الغرماء - أن يحجر عليه، ويمنعه من التصرف في أمواله، وتبعاً ممتلكاته لتسديد حقوق الدائنين. ويدرك بعض العلماء أنه كان من حق الدائن في الجاهلية أن يطالب بحقه، فإن لم يجد المدين ما يدفعه إليه، فإنه يباع - ولو كان حراً - ويدفع ثمنه لغريميه! .

النظرة الإنسانية تتجاوز ذلك إلى الإحسان والمرءة والرحمة على نحو ما نجده في قوله - سبحانه وتعالى -: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةً فَنَظِرْهُ إِلَّا مَيْسَرَقَ وَأَنْ تَصَدِّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(١) فلم يكتف بالتوجيه إلى إنتظار المعاسر وإمهاله، وإنما أرسد إلى ما هو أسمى، وأدخل في باب الفضل، وهو إسقاط الدين عنه.

في عصور الجمود والتدهور الحضاري، لا تضعف النظرة الإنسانية فحسب، وإنما تداس كرامة الإنسان، وتنتهك حرماته... ويكثر الحديث آنذاك عن الإنسان المستسلم الزائل التافه الذي نقض يديه من الفوز الدنيوي والنجاح الحيادي، ووجد حقيقته في الإنسان اليائس المنعزل والمجرد من روح المبادأة والمبادرة... وأشار اليوم أن خطابنا - ولا سيما في الوسائل

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

الإعلامية - أخذ يفقد توازنه، لكن بصورة معاكسة لما كانت عليه الحال في العصور الماضية، فقد أخذت النظرة الإنسانية تحل شيئاً فشيئاً في محل الرؤية الشرعية المنضبطة، بل إن جزءاً من النظرة الإنسانية، يتم تعميمه اليوم، واعتماده محوراً للخطاب الاجتماعي، حيث تسود الدعوة إلى تكوين نموذج الإنسان المتسامح المتساهل بشأن الحرمات الثقافية، الإنسان الذي يقبل التعديدية غير المشروطة، الإنسان الذي يتمتع بما يكفي من ذوق ولباقة لتعامل حضاري راقٍ، الإنسان البطل الناجح ذي الإرادة المستقلة، الكفاء الذكي الإيجابي قناص الفرص الذي يعرف سبيلاً خلاصه الشخصي... . وقلما تتم الإشادة اليوم بالإنسان التقى الناسك المتبعد الورع الرحيم... . بل إن هذه السمات قد تذكر في سياق التعریض بغلة الشخص وتخلقه عن فهم روح العصر!

كل الدلائل تشير إلى أن هذه الوضعية آخذة في الترسخ والتعويذ بسبب أنها جزء من تيار عالمي لا ديني. ونحن مع أننا نغبط بكل ما يدعم الكيان الإنساني، لكننا في الوقت نفسه لا نستسيغ أن يتأسس أي خطاب في جنبات المجتمع المسلم، لا يراعي الثوابت الإسلامية، ولا يضع الأمور في نصابها الذي ينبغي أن تتوضع فيه.

إن على كل واحد منا أن يبذل جهداً مقدراً في سبيل استعادة التوازن المفقود في هذه المسألة من خلال العودة إلى أدبياتنا الأصلية، في صورتها الكلية المتكاملة، والجامعة بين الإطار الشرعي والملمح الإنساني اللذين يشكلان في النهاية معالم الخطاب الذي يتم من خلاله استئناف الإنسان المسلم، وتوجيهه، والدفاع عن حقوقه ومكتسباته. وتفصيل ذلك يحتاج إلى حديث خاص.

٥ - هاجس الخوف من التهميش يهيمن على نحو كبير على كل الدول والشعوب الضعيفة؛ ولذلك فهي تسعى إلى أن توجد بينها وبين الدول المتقدمة نسباً ما، ظانة أن ذلك يدينيها من أن تكون جزءاً من الحركة الحضارية الحديثة.

قبل إنهيار الكتلة الشيوعية، كانت معظم دول العالم الثالث مستقطبة من أحد القطبين الكبيرين.

أما اليوم فإن النموذج الغربي، هو الذي يستهوي كل الخطط التنموية، ولكن بطريقة سطحية واحتزالية عجيبة؛ إذ قلما تجد دولة نامية، تفاخر بأنها تملك جامعة مرموقة، أو مركز أبحاث معتمراً على مستوى عالمي، أو تملك وضعية أخلاقية أو قانونية، تقدم من خلالها قدوة ونموذجأً لما يسمى بـ(الدول الصناعية) لكننا نجد من يفاخر أن في بلاده أعلى ناطحة سحاب في العالم، ومن يفاخر أن عنده أكبر حديقة حيوان أو أطول نفق... إنه تقليد للغرب ليس على مستوى البنية العلمية والثقافية والحقوقية، وإنما على مستوى الثمرات والتائج.

وأشعر أنا نسير بخطى حثيثة نحو اختصار التنمية الشاملة، والمتكاملة إلى التنمية الاقتصادية، ظانين أنا بالتقدم الاقتصادي، نستطيع أن نؤسس لاستقلالنا السياسي والحضاري عامه. لكن الصحيح أن اعتماد أسلوب الغرب في التنمية الاقتصادية، لا يقلل من هيمته علينا، وإنما يجعلنا أكثر فأكثر في مجال سيطرته؛ ولا سيما أن ما يمنحك الخصوصية، وما يجعلنا شيئاً مختلفاً عن الآخرين - وهو البنية الثقافية، والأخلاقية - لا يلقى من العناية والحياة، ما يجعله يؤدي وظائفه على النحو المطلوب.

إن التجربة الحضارية لكل الأمم العظيمة تدل على نحو لا لبس فيه، أن أهم عوامل رقيها ونجاحها، لا يمكن في أنها استطاعت أن تفعل ما يفعله الآخرون، وإنما في قدرتها على الانفتاح على الآخرين، ثم قدرتها على التحوير والتعديل فيما تقتبسه منهم بما يلائم خصوصيتها وظروفها وحاجاتها.

إن ترشيد التطور في هذا المجال يقتضي أن نبحث عن الطريق الخاص بنا، وهو طريق لا يمْرُّ عبر المدن الكبرى في الغرب، وإنما يمْرُّ عبر المدن والعواصم الإسلامية، كما أنه طريق لا يمْرُّ عبر التشكيلات

والبني الاقتصادية، وإنما يمر عبر تشكيل رؤية حضارية إسلامية، تعلي من شأن الإنسان وحقوقه وحاجاته، وتجعل التنمية الاقتصادية شيئاً يخدمه، ويساهم في تنميته؛ وهذا لن يتم إلا إذا أعطينا الأولوية للمبدأ على المصلحة، وللجوهر على المظاهر، وللنحو الروحي على النمو المادي.

٦ - ثبتت الأيام والأحداث في كل مرة أن جانب (التدبر) لدى الإنسان، يظل من أضعف جوانبه، فالوعي لا يقود الحياة، بمقدار ما يقع في دوامة تلبية مطالبها؛ وهكذا فنحن نميل غالباً ليس إلى التفكير في مآلات أعمالنا، وإنما إلى التفكير في تسخير أمورنا اليومية و(تمشية الحال) على نحو يحول دون افجارات الأزمات!

الزيادة السكانية بما تفرزه من زحام، وما تقتضيه من توفير لخدمات الغذاء والدواء والتعليم... . جعلت الجميع ينشغلون في صياغة النظم التي تؤطر حركة هذه الجماهير المائحة والباحثة عما يقيم أودها، ويساعدها على الاستمرار في الصراع من أجل البقاء. والتنتجة لهذا وجود نموذج (القطيع البشري) الذي تعود أن يلقى أعباءه على غيره، فهو لا يفكر، ولا يعترض ولا يبادر، وبعد نفسه متوفقاً وناجحاً إذا عرف كيف يمثل، ، وكيف يملك إصرار الأرضة في تنفيذ أعمال عقيمة، قد تضرّ به وبمجتمعه أكثر مما تفع. وهكذا كلما كثر الناس، كثرت القيود، وتحول البشر من كائنات حرة ومبدعة إلى كائنات تسير بالتحكم عن بعد. والتنتجة ضياع التجديد، وخمود روح المبادرة والشعور بالمسؤولية؛ وحصيلة ذلك انحطاط جديد!

إذا تأملنا في بنية التشريع الإسلامي وروح التعاليم الربانية، وجدنا أن الذي ينبغي علينا أن نفعله مختلف عن هذا إلى حد بعيد، حيث إن قاعدة: «الأصل في الأشياء الإباحة» تعني أن تشجع الطلاقة والمبادرة الفردية والتميز الشخصي؛ لأن ذلك هو الذي يتناسب مع طبيعة الإنسان الحر المكرم المسؤول النامي المتنوع في تركيبته النفسية والعقلية... . ولا يعني هذا أن يفعل الناس ما يحلو لهم خارج أي إطار؛ فذاك لا يجوزه دين ولا عرف،

ولكن يعني أن نبحث باستمرار عن علاقة توتيرية مترتبة بين المبادرات الشخصية وبين النظم والأطر الاجتماعية، فلا يخنق النظم واللوائح والتقاليد التفتح الفردي، ولا تدمر المبادرات التجددية، والتحرّكات الذاتية وحده المجتمع وتماسكه.

ومع أن العثور على هذا التوازن ليس بالأمر المتيسر دائماً، إلا أن اعتبار تشجيع المبادرات الشخصية أصلاً، والبحث إلى جانب ذلك عن التنظيم الملائم لها، يعد كافياً لوضع الأمور على الطريق الصحيح، ولتفهم تململ الناس من الرتابة والتنميط ، والنمذجة.

إن كون معظم النصوص القرآنية مفتوحة، بالإضافة لجعل الإسلام كثيراً من التنظيمات الإدارية والاجتماعية رهناً بتطور المجتمع وحاجاته أكبر دليل على صحة ما نقول. فهل نعي المرامي البعيدة لبنية التشريع، ونهتدي بها في توجيه التغيرات التي يملئها التطور الاجتماعي؟

٧ - قضية المرأة من القضايا الكبرى التي ظلت موضع جدل عريض، وبيدو أن هناك الكثير مما يغرينا بالانتقال في شأنها من التقى إلى التقى. حين تكون الأمة في حالة ازدهار ونمو، فإنها تستطيع أن تبصر كل جوانب الصورة وكل عناصر الموازنة، ومن ثم فإن تعاملها مع المسائل الشائكة يكون أقرب إلى الرشد والاعتدال.

أما حين تمر في مرحلة انحطاط، فإن الأمر يكون مختلفاً.

إذا نظرنا إلى النصوص الشرعية والأحكام الفقهية المتعلقة بالمرأة على نحو عام؛ فإننا سنجد توازناً مدهشاً؛ فهي الإنسان المكرم المحترم المصون الحر الذي له حقوقه التي لا يصح الاعتداء عليها، وواجباته التي عليه أن يؤديها. ولا أريد أن أفصل في هذا الأمر، فقد سُوِّد فيه من الصحف ما يفيض عن الحاجة، ولكن أود أن أشير إلى ما يتعلق بما نحن بصدده من توجيه التغيير .

من الملاحظ أنه غير على معظم البيئات الإسلامية قرون متطاولة من التهميش للمرأة، فنشاطها في محیطها النسائي محدود جداً، فما نجده من

أنشطة تربوية ودعوية واجتماعية وعلمية على الصعيد النسائي، لا يتناسب أبداً مع حجم الطاقات والإمكانات المتوفرة. والاهتمام بتأهيلها للقيام بدورها في تربية الجيل ومهمات الأمومة والزوجية ضئيل للغاية. ومعظم النساء اللواتي تلقين من العلم والتدريب فيما ذكرناه لا يتبعن تنميته، ولا يجدن من يشجعهن عليه.

من المؤكد أن تعلم المرأة لإدارة المنزل وتدير شؤونه - ولا سيما اليوم حيث المعاناة من الأزمة الاقتصادية في تفاقم - إلى جانب تعلم أصول التعامل مع الزوج، وتنشئة صالحة للأولاد، سيكون له أكبر الأثر في تحسين أحوال الأمة ورقيتها؛ ففي البيت تكتسب الاتجاهات، وثبتت، وفيه يتعلم الصغار أساليب العيش والتعامل، وفيه تتم رعاية التقاليد والعادات الحميدة... وهذا كله في كفة، وتأهيل المرأة لتكون العنصر الصالح المستقيم فكراً وسلوكاً في كفة أخرى.

لا يخفى أن جهات عديدة استهدفت وضعية المرأة في البلدان الإسلامية، فدعت إلى سفورها، واحتلاطها بالرجال، وإعطائها عين الحقوق التي للرجل في مسائل الإرث والطلاق وسائل أخرى... وكان لا بد من وقفة حازمة في وجه كل من يسعى إلى إيجاد وضعية ثقافية وسلوكية، تُخرج المرأة عن الإطار الذي حدده النصوص القبطية في جميع المسائل المتعلقة بها. وأظن أن ذلك حدث، على نحو جيد، لكن تطور أوضاع المرأة جزء من تطور عام يقوده الغرب؛ ولذا فإنه لم يكن من الممكن تحقيق نتائج حاسمة في أي بلد من البلاد الإسلامية.

ومن وجه آخر فقد يكون من الخير أن نعترف أن القوى الإسلامية - على اختلاف مشاريبها - قد أنفقت من الجهد والاهتمام في الرد على تلك الحملات ما شغلها عن تنمية المرأة المسلمة، وفتح آفاق التطور أمامها، وإيجاد الأطر الوظائف التي تتجلّى فيها خيريتها وجهادها ومواهبها وإمكاناتها... ولو أنها رجعنا إلى أدبياتنا في قضايا المرأة، لوجدنا أن نحو

من ٨٠٪ من مؤلفاتنا ومحاضراتنا، يدور حول مسألة الحجاب وصيانته المرأة وحفظها، ولوجدنا نحواً من ٢٠٪ منها يتحدث عن ترشيد دورها في الحياة، وكان المطلوب هو العكس؛ لأن المطلوب من المرأة إنجازه على صعيدها الشخصي، وعلى صعيد أسرتها شيء هائل، يحتاج إلى الكثير من التنقيف والعنابة والمتابعة.

الإنسان كالماء إذا ركد فسد، وكمعظم الأشياء إذا هُمش ابنت صلته بنظم الوجود، وفي ذلك عطبه وفناؤه. ولو تساءلنا: ما الذي ترتب على انحسار الدور التربوي والدعوي والاجتماعي للمرأة من مشكلات، لأمكننا القول: إن الخسائر كانت فادحة، والمفاسد جمة، ولعل منها:

- ممارسة الكيد والدس والتآمر والحقن والحسد ضد أهل الزوج والجيران والضرة وأهلهما وذويها... وذلك بسبب عدم وجود مسارب اجتماعية وخيرية لاستهلاك طاقاتها الإبداعية، وشغل أوقاتها، فتصرفها في مثل هذه الأمور؛ حيث إن النفس البشرية إن لم تُشغل بالخير شغلت صاحبها بالشر.

- تتسم المرأة في بيئات إسلامية كثيرة بسيطرة الانفعال الزائد والعاطفة الجياشة عليها. ومع أن درجة من ذلك تعد فطرية لديها وإيجابية، إلا أن الصحيح أن عدم ممارستها للأنشطة الذهنية والدعوية والعلمية، جعل محاكمتها المنطقية للأمور، ودرجة العقلانية لديها منخفضة؛ وهذا ما أخل بتوازنها الداخلي، وجعل الجانب العاطفي لديها نامياً على نحو مشوه.

- عالم المرأة هو عالم الوهم والخرافة والشعوذة والسحر، فهي بسبب ضعف خبرتها في أمور الحياة - والتي تأتي عادة من ممارسة النشاط العام - ذات قابلية شديدة لتصديق الخرافات، والواقع في شرك المخترفين والسحرة والمشعوذين، ومعظم من يقصد السحرة وقراء وقارئات الكف والفنجان، ومعظم من يطوف حول القبور طلباً لمعونة الأموات، من العنصر النسائي. ولدى النساء إلى جانب هذا قابلية شديدة لتصديق الشائعات والأخبار

المغرضة والأوهام السائدة... وكل ذلك لا يرتد غالباً إلى تكوينها الخاص، وإنما إلى ضعف خبرتها في شؤون الحياة، مما يحرمها من امتلاك المعقولية الملائمة لوزن الأمور وتمحصها.

- حين لم تجد المرأة ما تتحقق به وجودها وذاتها، وتستثمر فيه علمها وعقلها وطاقاتها، لجأت إلى تحقيق ذاتها عن طريق الاستهلاك، والاستحواذ على أكبر تشكيلة ممكنة من العطور والملابس والحلبي وأنواع الزينة. ولا يخفى أن اهتمام المرأة عندنا بهذه الأمور أكبر بكثير من اهتمام المرأة الغربية بها للعلة التي ذكرناها؛ مع أن الذي ينسجم مع عقيدة المسلمة ورجائها للدار الآخرة هو العكس!

يتجه التغيير اليوم في المجال النسوي إلى جعل المرأة في وضعية متطرفة جديدة، حيث تبذل مساع حثيثة لزج المرأة في أعمال لا تناسب مع رسالتها في الحياة، ولا مع طبيعتها، ولا مع الوضعية الخاصة التي ينبغي أن تكون عليها.

والساعون إلى ذلك يتنكرون لدور المرأة الأساسي في تربية الأجيال ورعاية الأسرة، وهم في سبيل ذلك، يحاولون دائماً أن يثبتوا أن طبيعة المرأة واستعداداتها العاطفية والعقلية لا تحول أبداً دون ممارستها لكل الأنشطة والأعمال التي يقوم بها الرجال. ويرى أولئك أن مسألة خصوصية المرأة يشيرها الرجال من أجل تسهيل السيطرة على المرأة والاستبداد بها، وقمعها في وضعية دونية، تمهد لاستغلالها. وهكذا يروج لعمل المرأة بين الرجال، وتشجع - وأحياناً تجبر - على خلع حجابها في نفس الوقت الذي لا يجد فيه كثير من الشباب أية فرصة عمل، وترك المرأة أعباءها في إدارة شؤون البيت إلى الخادمة، أو ترك أطفالها في حالة من التسيب والإهمال حين يكونون في أشد الحاجة إليها!

والغرب الذي سبقنا إلى إخراج المرأة من بيتها، وزوجها في أتون مجتمع الرجال، لم يحقق لها وجودها - كما يزعمون - وإنما جعلها أداة

للتسليه والمتعة والإغواء، فالدعويات التجارية، وأغلفة المجالات والمسارح وبيوت المجنون والدعاية.... شواهد واضحة على ذلك.

ويجب أن نعترف مرة أخرى أن عدم الاهتمام بفتح المجالات المشروعة والملائمة لطبيعة النشاط النسوي، ساهم على نحو ما في حالة (التسبيب) التي صارت إليها المرأة في العديد من البيئات والمجتمعات الإسلامية، حيث يُغري التطرف دائمًا بتطرف مقابل، يوافقه في القوة، ويخالفه في الاتجاه.

إن الإبداع لا يتجلّى في حرمان المرأة من ممارسة الأنشطة الخيرية والدعوية الداعمة للكيان الاجتماعي والأسري والحضاري عامه، ولا في جعلها تخوض غمار الحياة العامة التي تعج بالذئاب وأرباب النفوس الدينية دون وعي باستعداداتها وحاجاتها ووظيفتها الخاصة، وإنما يتجلّى في أن يوجد المجتمع - وعلى المرأة مسؤولية متميزة في ذلك - الأوعية والأطر التي تستثمر من خلالها المرأة طاقاتها وتحقق شخصيتها في نفس الوقت الذي تحافظ فيه على تعاليم دينها، وتلتزم فيه بحجابها، وما يحقق لها الصون لكرامتها وعفتها، والراحة في حركتها. وهذا لا يتم إلا في جعل نشاطها موجهاً - في الجملة - إلى بنات جنسها.

إن هناك من النصوص ما يدل على أنَّ من مهام المرأة المسلمة أن تساهم في تصحيح مسار الحياة الإسلامية من خلال نشر الخير ومحاصرة الشر، إلى جانب المساعدة في التخفيف من لأواء المشكلات الاقتصادية، وهذا لا يتحقق إلا من خلال نشاطها وحركتها وجهدها. ونجد ذلك واضحًا في قول الله - جل وعلا - : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُنَّ أَوْلَيَاتٍ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَيَسْمُونَ الْأَصْلَوَةَ وَلَيَنْتُرُنَ الرَّازْكَةَ وَلَيُطِيعُنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَّمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

(١) سورة التوبة: الآية ٧١.

٨ - كان التلاميذ الأهلية في العالم الإسلامي يمثل نموذجاً يحتذى، فقد كان الناس يشعرون بالقرب بعضهم من بعض، وروح المعاونة والمساعدة في معظم الأحوال هي السائدة؛ والخصوصيات محدودة... وقد وفر هذا اللون من التمازج دعماً اجتماعياً مشتركاً ومتبادلاً على درجة عالية جداً، ولذا فقد كان الخوف من مغبات الجوانح، والخوف من المستقبل، والخوف على الأولاد بعد الوفاة... في أدنى درجاته.

هذا التضامن الأهلية الذي كان يشع أقداراً من الدفء والطمأنينة والشعور بالثقة... لا يمكن لأي مصدر آخر أن يوفرها - بات اليوم مهدداً من خلال أمرين جوهريين:

اتساع المدن وال عمران؛ مما جعل أبناء الأسرة الواحدة - فضلاً عن القبيلة والعشيرة - موزعين على أحياط وأماكن متباينة، وهذا جعل معرفتهم بأحوال بعضهم ضعيفة، وصاروا لا يلتقيون إلا في المناسبات، وحين يتم اللقاء يكون عابراً وشكلياً، حيث تسيطر عليه روح المجاملة.

الأمر الثاني: تخصيص العمل، حيث إن تعقد النظم الحياتية كافة، أدى إلى صعوبة استيعاب الإنسان لها، مما أوجب على كل واحد أن يتخصص في شيء، ينمّي مهاراته في إطاره. وعلى سبيل المثال فقد كان الأقرباء والجيران والأصدقاء يتعاونون في تشييد ٩٠٪ من أجزاء المنزل؛ لكنهم اليوم قد لا يستطيعون ذلك في أكثر من ٢٠٪. أما في المدن حيث الأبراج وناطحات السحاب، فلا يستطيعون أن يتعاونوا في أي شيء!

هذا كله ضخم - من غير قصد - دوائر الخصوصية على كل المستويات، وصار الزمان موحشاً؛ مما جعل المرء يشعر بالاغتراب في وطنه وبين أهله! وهكذا فمع أن التطور الطبيعي يوفر وضعيات جيدة كثيرة، إلا أنه يدمر في الوقت نفسه نظاماً وعلاقات مهمة للحياة السعيدة؛ مما يلزمنا بأن نحاول استعادة ما يتم تدميره بفعل التغير غير الوعي للحياة من حولنا؛ وذلك عن طريق إرساء أخلاقيات وتقاليد جديدة، وإنشاء تنظيمات

تكسر ظاهرة (الملفات) والدوائر المقلدة شديدة التخصص، فلا يترك أي شأن اجتماعي أو اقتصادي أو أخلاقي بعيداً عن المشاركة والرقابة العامة. ولا يعني هذا محظوظ الاختصاص وتجميع الأمور، لكنه يعني إيجاد حالة من الفعالية الاجتماعية، يساعد من خلالها الكل الجميع، ويتبعهم، كما يتم من خلالها سد الثغرات وتلافي النواقص، وتدعم الحسن النقدي.

وعلى سبيل المثال، فإن مسؤولية تقديم الطفل في الدراسة، لا يصح إلقاءها على كاهل المدرسة؛ بل لا بد للأمهات - على نحو أخص - من المساعدة في ذلك. وقد دلت بعض الدراسات في اليابان على أن الأم تتحمل من أعباء تفوق ابنها في التعليم أكثر مما تحمله المدرسة التي يدرس فيها.

الشركة والدائرة التي يعمل فيها الشخص، يجب أن تترك صدى في حياته الاجتماعية، من خلال مساعدتها له - مثلاً - على العثور على شريكة العمر، أو على تأثيث المنزل، أو دفع تكاليف حفلة الزواج.

الجامعات يجب أن يكون لها دور ما في مساعدة خريجها في الحصول على عمل، أو إكمال تخصصه، أو تجديد معلوماته فيما بعد.

على الجيران أن يسهموا - كما كانوا - في رعاية أطفال جيرانهم، أو في بناء المسكن، أو في إصلاح شيء تالف....

المقصود أن نتخلص من المفرزات البيئية للتطور العشوائي، ونحاول تفادي تدمير التلامح والتضامن الذي أظل أبناء المجتمعات الإسلامية عبر القرون الماضية؛ وهذا لن يكون إلا إذا أعرضنا عن سبيل التقدم الغربي ذي الإحساس الغليظ بهذه المسائل، وشققنا لأنفسنا طريقنا الخاص بنا.

٩ - النمو المطرد يؤدي إلى (العملقة) وتضخم الحجم، وهذا ما نجده اليوم في المصانع والشركات والمدن والجامعات والمزارع والأسوق... وكثيراً ما نت héج بهذا ونفاخر، حتى ترسخ في وعيينا أن

الشيء إذا كبر كان أقوى أو أعظم أو أجمل أو أنفع... مع أن لدينا شواهد كثيرة في مختلف المجالات، تشير إلى غير هذا، فهناك أنواع من المخلوقات انقرضت بسبب ضخامة حجمها، كما هو الشأن في الرواحف الضخمة التي انقرضت في نهاية العصر الجيولوجي الأول. الأشجار نظراً لضخامة حجمها تبدو أقل قدرة على معايشة الظروف الصعبة، إذا ما قورنت بالنباتات. القصور الذاتي نفسه يجعل من ضخامة الحجم في الآلات والمصنوعات والأبنية... هيأكل ضعيفة معرضة للتفكك والتمزق والانهيار.

تضخم القلب والكبد وأجهزة أخرى في أجسامنا، وتورم أي جزء في البدن وانتفاخه، كل ذلك لا يكون علامة قوة وصحة، بل علامة تراجع في الوظائف، وخلل في الوجود، وترهل في البنية. انهيار (الإمبراطوريات) والنظم الكبرى سنة من سنن الله - تعالى - في الخلق، وهكذا فكأن العملاقة والضخامة مؤشرات على التناهي في الوجود، والذي لا يكون بعده إلا التفكك والتحطم والفساد.

ويبدو أن العلة في هذه الظاهرة، تكمن في أن الشيء إذا تضخم صرف جزءاً كبيراً من موارده للمحافظة على وجوده، كما أن تأقلمه مع الظروف المتبدلة والطارئة يكون ضعيفاً. والشيء حين يتضخم يُحكم بنظام معقد، وهذا يجعل مراقبته عسيرة، كما يجعل إصلاحه مكلفاً. وهكذا فليست العملاقة في نظرنا من المبشرات بالخير، ولا هي من الأشياء الملائمة لما يبديه الوعي الإنساني من القدرة على التحكم والإدارة والمتابعة.

ولهذا كله فإننا بحاجة إلى أن نمتلك ما يكفي من الشفافية لمقاومة تضخم الأشياء والنظم والمؤسسات، والعودة إلى أسلوب التفكيك والتفريع من جديد. المدن يجب أن تكون أميل إلى الصغر^(١)، حتى نحافظ على

(١) المدن الأكبر في العالم ظاهرة من ظواهر البلدان النامية.

علاقات تعاونية بين سكانها، وحتى يظل للأعراف الصالحة مجال في تماسك المجتمع واستقامته.

الجامعات يجب تفتيت هيكلها العظيم إلى أقسام ومعاهد متخصصة، بحيث يكون لكل منها شخصيتها المستقلة وميزانيته الخاصة، وأهدافه المحددة. ويجب أن يقوم أداء كل قسم في أي كلية على حدة؛ كما يجب أن يظل تحمل المسؤوليات عند أدنى المستويات حتى لا نقع في مستنقع التلاؤم، والتهرب من القيام بالتبعات.

الأحزاب والجماعات يجب أن تقسم إلى أقسام أيضاً بحيث يناظر بكل قسم تحقيق جزء من الأهداف العامة لكل منها. حتى على المستوى الفردي الضيق، فإن المطلوب اليوم أن يكون لكل منا مشروعه الشخصي - كما سنوضح بعد - واهتمامه الخاص، مهما كان عمله، ومهما كان موقعه الاجتماعي؛ إذ لم يعد مقبولاً أن يتهم الواحد منا بكل شيء، ويتحدث عن كل شيء، فلا يخرج في النهاية بأي شيء!

ما ينبغي أن نفعله تجاه توجيه المتغيرات وتطويعها لمبادئنا وأهدافنا ومصالحنا أكثر من أن يحيط به كتاب أو فصل من كتاب؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

في منهج التغيير:

حركة الحياة ماضية في سبيلها على أي وجه كان، ولن تنتظر مسيرة التاريخ الإنسان حتى يجد الطريقة التي يمكن بها من جعل المتغيرات تصب في مصلحته، وتخدم أهدافه. الناس في كل زمان ومكان، يبذلون جهوداً مقدرة في استثمار الفرص المتاحة؛ لكن المشكلة العويصة التي تواجههم في كل مرة، تكمن في استشرافهم لمعالم المنهج الذي سيسيرون عليه في ذلك. ومما لا يغيب عن البال أن لكل مشكلة حبيباتها وعقدها الخاصة، وأن حلها يتوقف على العثور على المنهج الملائم لها؛ فتدخل جوانب الحياة، وكثرة العناصر التي تتدخل في ولادة الظاهرة الواحدة، تجعل ما

يصلح من الأساليب والأدوات في موضع لا يصلح في موضع آخر.
نعم هناك دائماً خطوط عريضة في كل شيء، وهناك ثوابت
ومراجعات، يصعب تجاوزها، لكن هناك أيضاً تفاصيل وأدوات خاصة تسمى
بفاعلية كبيرة في إحداث التغيير وتوجيهه. ولا أظن أن الناس سوف
يشهدون أية نهاية للبحث عن المنهج المناسب؛ حيث إن التقدم الحضاري
ذاته، يولّد مشكلات جديدة، ومناهج جديدة أيضاً لحلها؛ لذا فإن أحداً لا
يستطيع أن يقول الكلمة الأخيرة في هذا الشأن. وعلى هذا فإن أفضل ما
يمكن أن نفعله هو محاولة رسم بعض الأطر، وإبداء بعض الملاحظات،
وسيكون على كل واحد منا أن يختار من مجموعة ما يقال في هذه السبيل
ما يراه مناسباً لمعالجة مسائله ومشكلاته الخاصة.

١ - الرفق في الإصلاح:

إذا قلت للناس: إنني سأغير ما أنتم عليه، فإنك بذلك تستفزهم
وستتعديهم، وعليك أن تذكر لهم إيجابيات ما هم فيه، وأن توضح لهم أن
إدخال بعض التحسينات على بعض الأمور، سيكون مبهجاً ونافعاً لهم.
وهذا هو الأسلوب الذي اتبّعه النبي ﷺ في دعوته للناس، حيث أقرَّ كثيراً
مما كانوا عليه من مكارم الأخلاق، وأثنى عليه، ونبههم إلى الأخطاء
والنواقص في حياتهم بأسلوب ملؤه الشفقة والرحمة. ومعرفة تدرج القرآن
الكريم في تحريم الخمر والميسر، وتدرجه في فرض الفرائض؛ بل إن
الدرج كان إحدى الحكم التي انطوت عليها ظاهرة (النسخ) حيث كان يرى
الناس بالأحكام، وينقلون بها من حال إلى حال، وكانت الدعوة تسير ذلك
من خلال حركة التشريع، وهذا معروف.

المصلحون العظام هكذا يفعلون دائماً؛ فهم يحتزرون من أن تؤدي
حركاتهم الإصلاحية إلى استفزاز الناس أو إثارة النعرات القبلية أو الطائفية أو
العنصرية أو المذهبية بينهم، أو تحويلهم من أعباء التغيير، ما لا يطيقونه.

إن أسلوب التغيير أشبه بعمل من يحاول اقتلاع شجرة ليغرسها في

موضع آخر، فهو يحفر حول جذورها مع الحرص الشديد على سلامة تلك الجذور؛ ولذا فإننا ونحن وغير أوضاعنا، يجب أن نراعي حداً ما من إجماع الرأي والتوافق ووحدة الهدف، بل إن هذه المعاني، يجب أن تظل أهدافاً ثابتة نسعى إلى ترسيخها في كل الأحوال.

من العسير جداً أن يتم التغيير على الصعيد القيمي، والفكري - على نحو أخص - في أحواء متواترة ومتشحة، حيث ينصرف تفكير الناس آنذاك إلى الدفاع عن معتقداتهم وملامحهم الفكرية وموافقهم - مهما تكون غير صحيحة - وتكون القابلية للاستيعاب والتغيير في أدنى درجاتها. ويمكن أن يفسر قبول النبي ﷺ بشروط قريش المجنحة في صلح الحديبية بحرصه على أن تضع الحرب أوزارها مدة طويلة، ويزول خلالها التوتر بين المسلمين وأهل مكة، فتنتفع سبل قبول الدعوة الجديدة؛ ولذا فإن من أهم قسمات منهج التغيير أن يهتم بإيجاد البيئة الاجتماعية الهدامة، والأمنة؛ إذ لا يمكن للعقل أن تقبل الجديد في ظل مشاعر القلق والانفعال والتوصّل للقتال.

مهما بلغت أحوال أمة من التردي، فإنها تظل تشتمل على بعض الإيجابيات، علينا أن نتخذ من تلك الإيجابيات المدخل إلى تأسيس خطاب إصلاحي متوازن، نبت من خلاله الأمل والرجاء بإمكانات التحسن، كما نحارب من خلاله اليأس والقنوط.

٢ - إدراك العلاقات الترابطية:

لا بد لنجاح التغيير من أن نتجاوز الرؤية السطحية والتجزئية للأشياء إلى تكوين رؤية جديدة، تقوم على إدراك الوحدة العميقـة لحياة البشر، وإدراك العلاقات الترابطـية التي تكون تلك الوحدة، حيث يتـهيـأ لنا آنذاك أن نرى الشيء مؤثـراً ومتـأثـراً وآخـذاً وـمعـطـياً، وسـيـباً وـمـسـبيـاً في آن واحد.

الأزمة الأخـلاقـية قد تكون نـتيـجة فـسـاد سيـاسـيـ، وقد تكون نـتيـجة شـروـط بيـئـية واقتـصادـية سـيـئةـ، تحـمـلـ النـاسـ عـلـىـ الرـشـوـةـ وـالـغـشـ وـالـتـذـلـلـ، أو تـحدـ منـ طـموـحـاتـهـمـ، وـتـؤـطـرـ تـحـركـاتـهـمـ . . .

وفي الوقت نفسه قد نرى الأزمة الأخلاقية وهي تفسد النظام السياسي، وتدفع باتجاه التأزم الاقتصادي والاجتماعي من خلال تحطيم العلاقات الاجتماعية، والبنية التحتية في بلد من البلدان.

نجاح شخص ما في أعماله قد يكون بسبب رأس المال الذي خلفه له أبوه، وقد يكون بسبب خبرته المتميزة في مجال عمله، وقد يكون بسبب نوعية العمل الذي يمارسه، وحاجة الناس إليه في مرحلة من المراحل... ذلك النجاح نفسه نراه، وهو يسبب مشكلة مادية أو خلقية لشخص أو أشخاص آخرين، وقد نراه، وهو يغرى صاحبه بنجاح آخر، كما نراه وهو يدفعه نحو الغرور والكبر، أو نراه وهو يؤسس لحالة رخاء، تنفع أقواماً وتضر آخرين....

إذا لم نمتلك هذه الرؤية الترابطية، فإننا قد نجاهد في غير عدو، وقد نقطع ذيل الحية، ونترك رأسها يهددنا، وقد نعالج عوارض المرض، ونترك أسبابه تعيق إنتاجه من جديد.

والحقيقة أننا كنا نشكو دائمًا العوز في هذا النوع من الوعي والتحليل، مما أدى إلى اختلاط الأمور، والحصول على نتائج ضئيلة، لا تتناسب مع الجهد المبذولة. حين نرى الكل من خلال أجزائه، ونرى الأجزاء من خلال مجموعها، ونرى كل جزء في ضوء رؤيتنا للأجزاء الأخرى، تكون قد امتلكنا الرؤية المتكاملة، وأنذاك تكون مؤهلين لإحداث التقدم الشامل، ونكون قد وضعنا أرجلنا في بداية الطريق الصحيح.

٣ - الإحساس بالتغييرات البطيئة:

التغيير هو قانون الحياة، والوضع الذي نظنه ثابتًا مستقرًا، لا يكون أبداً كذلك، وإنما يستبطن سلسلة من التفاعلات الصغيرة والبطيئة التي تفضي في النهاية إلى تغيير ملامحه على نحو كلي. ونحن في العادة لا

نتمكن من رؤية تلك التفاعلات، ولذا فإن الوعي لا يحفل بها، ولا يدخلها في مدركاته وحساباته، وهذا هو منبع الخطورة فيها. أما التغيرات السريعة والكبيرة، فإنها تخل بالتوازنات القائمة، ومن ثم فإنها توقيط فيما روح المقاومة والتحفز، مما يساعدنا على الاستعداد لمواجهتها والتعامل معها.

حين حديث الردة بعد وفاة النبي ﷺ، وأحاط المرتدون بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم استفرت الأمة بأسرها، واستطاعت القضاء على تلك الفتنة الهائلة في مهدها، حيث إن خروجها عن كل إطار معقول أو مقبول سبب صدمة كبيرة للوعي المسلم آنذاك؛ لكن الأمة ابتليت بعد ذلك بانتكاسات وأزمات كثيرة، أبعدت أوضاعها على كل المستويات عن النموذج الأصلي الذي كان عليه سلفها، ولم تنتبه لذلك، ولا كانت تأبه ببعض التحذيرات التي كانت تصدر عن بعض أهل البصيرة فيها؛ وكان الوعي لا يعمل على النحو المطلوب إلا من خلال الهزات العنيفة التي تزول كيانه. واستمرت الأخطاء تراكم إلى أن صرنا إلى ما نحن فيه!

نحن بحاجة إلى تنمية حاسة لإدراك التغيرات البطيئة التي تهدم البنى والكيانات دون أن تشعر بها المصافي الثقافية لدينا. لو نظرنا في المرأة كل يوم، فعلى الأغلب أنها لن نجد فرقاً في وجوهنا بين يوم وآخر، لكن إذا قارن الواحد منا بين صورتين له يفصل بينهما عشر من السنين، فإنه لا محالة سيرى فروقاً عدبة. وبإمكاننا أن نفعل ذلك في أوضاعنا العامة، إذ يمكننا أن نحدد مجالاً ما، مثل الأخلاق أو الاقتصاد أو الاجتماع... ثم نصير إلى المقارنة بين ملامح حقبتين قصيرتين، لتفق على ما حدث فيهما من تغيرات إيجابية وسلبية. والملاحظ الآن أننا لا نفعل ذلك، وإنما نجري مقارنات واسعة جداً بين قرون متطاولة وأحوال وأوضاع متباعدة ومتعددة، فلا نعثر في النهاية على شيء ذي قيمة.

إن تشخيص طبيعة التغيرات الجارية، يعد إنجازاً رائعاً وخطيراً، على طريق تنظيم رد الفعل حيالها، والاستفادة منها، لكن ذلك أصعب بكثير مما

نتصور، ولكن حسبنا المقاربة والمناهزة، إن قصرت وسائلنا عن الاستحواذ والإحاطة.

٤ - التكيف المتوازن:

التغير المستمر في البيئة المحيطة والتحديات وشروط الإنجاز... يفرض علينا باستمرار ملامح جديدة، وهي ما نسميه بـ(التكيف). وليس التكيف شيئاً سوى التعديلات التي تقوم بها كي نظل متافقين مع التعديلات التي تطأ على بيئتنا - بالمعنى الواسع للكلمة - حتى لا نفقد زمام السيطرة عليها.

يحاول الناس أن يتكيّفوا مع المتغيرات بدافع الغريزة والضرورة في أحيان كثيرة، لكن تكيّفهم قد يكون فاقداً أو هامشياً، ويكونون في غالب الأحيان فاقدين لما يكفي من البصيرة والوعي لإحداث تكيف متوازن. التكيف المتوازن هو الذي يبقى على الذات الثقافية واضحة حية متماسكة، ويفتح أمامها في الوقت نفسه سبل استيعاب المتغيرات الجديدة، إلى جانب نوع من العمل ضمن أطراها ومعطياتها، مع الاحتفاظ بالقدرة على تعديلها.

حين يموت الإنسان، فهذا يعني أنه طرأ اختلال على توازنه الحيوي، لم يستطع تحمله أو التكيف معه. وهكذا فإن تجاهل التحديات الجديدة المتسارعة، وعدم إحداث الاستجابات الملائمة لها، يعني نوعاً من توقف النمو، ثم الضمور والتآكل. وبإمكان المرء أن يرى شعوباً أفريقية وأسيوية عدّة سائرة في هذه السبيل، حيث لم تستطع استيعاب منطق العصر، والتعامل الإيجابي المنتج مع معطياته.

ومن وجه آخر كثيراً ما نرى في مختلف بقاع المعمورة شعوباً ودولًا فهمت التكيف على أنه استسلام للقوى العاتية، وتناغم معها، ظانة أنها بذلك تمسي عصرية متقدمة! وهي في سبيل ذلك تقوم دون توان أو إبطاء بتأويل عقائدها وتاريخها ومجمل موروثها الثقافي على هدي رموز الفكر الغربي الظافر.

ونجد في أمة الإسلام اليوم من يلوى أعناق النصوص، ويخرق الإجماع، وينكر الأحكام القطعية، ويستغل الخلاف في المختلف فيه... بغية التقرير بين ذاتنا الثقافية والذات الثقافية الغربية؛ وهكذا فما كان كبيرة صار موضع جدل، وكادت كلمة (الحرام) أن تشطب من معجم بعض الكتاب، كما أن كثيراً من أركان الإسلام بات شأنه روحياً خاصاً يربط العبد بخالقه؛ وتم تحفيض مدلولات كلمات مثل (الشرف) و(العرض) و(الغيرة) و(الخصوصية الحضارية) إلى أدنى مستوياتها، إلى آخر ما هناك من عمليات المسخ للشريعة الغراء أحکاماً وأداباً... وهم مع كل ذلك يظنون أنهم مبدعون ومجلدون ومصلحون، أولئك منمن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ يَخْسِئُونَ أَهْلَهُمْ بِمُعْسِنَةٍ صُنْفًا﴾^(١).

التكيف الصحيح لا يكون بالتنازل عن الثوابت حتى نصبح ذيلاً للآخرين، وإنما يكون باستيعاب المعطيات الجديدة، ثم توظيف أصولنا الحضارية توظيفاً فاعلاً، يصون تلك الأصول ويعززها، كما أنه ينقل الأمة من موقع المتفرج على تحولات العصر إلى موقع المحور من خلال المشاركة الجادة في إنتاج الحضارة وتوجيه مسارها. وذلك يتطلب أول ما يتطلب إرادة حرة، ورغبة صادقة في أن تُبقي على درجة من التوتر بين الذات والأخر، وبين الثابت والمتحرك، والموروث والمعاصر، كما أنه يتطلب فهماً عميقاً للصراع الحضاري الأممي، والثورات الموجودة في بنية الحضارة الحديثة، بالإضافة إلى امتلاك رؤية متصلة للمستقبل، يبلورها مشروع فردي أو جماعي. وهذا كله يحتاج جهاداً في ذات الله - تعالى - وصموداً أمام إغراءات الهوى والشهوة والمصلحة.

التكيف المتوازن، ينطوي دائماً على نوع من التجاوز: تجاوز لبعض المفاهيم والآليات القديمة التي ليس لها سوى قيمة وفعالية زمنية، وتجاوز

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

لما تملئه المتغيرات الجديدة من استسلام وخنوع للقوى العاتية والغرائز البهيمية .

٥ - نوعية عناصر التغيير :

يظل الفرد في حالة من التردد بين الاستجابة لداعي التغيير وبين المحافظة على الحالة السائدة بسبب من حمامة المجتمع أو الإلف والعادة... وهذا التردد على مقدار ما يبدو معوقاً، يشكل في الحقيقة عامل اتزان.

عناصر التغيير في المجتمع كثيرة، منها المعتقدات والقيم والأفكار وأوضاع البيئة، إلى جانب الاتصال الثقافي والتقدم التقني والحروب والثورات، ومرور الأيام والليالي... وهذه العوامل لا تشغله غالباً في حالة تناغم، مما يعني أن بعض هذه العناصر قد يكون عاملاً على ترسيخ أسلوب ما أو وضعية معينة، على حين يكون بعض آخر منها عاملاً على إضعاف ذلك الأسلوب، وتغيير تلك الوضعية؛ فلأيها تكون الغلبة؟

الثقل النوعي للمؤثر في التغيير المستمد من فعاليته الخاصة، ومن مدى انسجامه مع الاتجاهات السائدة - ذو أثر بالغ في توجيه التغييرات، وتحديد إيقاعها. وقد كان ﷺ يدعو الله أن يعز الإسلام بأحب العُمرَنْ إليه: عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام؛ لأنهما ثقلان نوعياً في المجتمع القرشي. إن إسلام شخص عادي، قد يترك أثراً ما في توجه أولاده وزوجته... أما إسلام رئيس دولة - كما حدث للتتار - أو إسلام شيخ قبيلة - كما حدث ويحدث - فإنه قد يؤدي إلى إسلام مئات الآلاف.

إن وجود مطعم أو فندق أو متجر فخم، قد يغير في بعض أذواق الناس وعاداتهم وأسلوب حياتهم، لكن ذلك التغيير، لا يذكر إلى جانب ما تحدثه قناة فضائية أو إذاعة ناجحة أو جامعة راقية... حيث إن الغاية من إنشاء الأولى تقديم خدمات وjeni أرباح في المقام الأول. أما الثانية فإنها

عبارة عن أدوات بث للأفكار والقيم والمعتقدات، ولذا فإن مساحتها في التغيير مباشرة وفعالة.

هذا يعني أن على الدعاة والمصلحين أن يستثمروا جهودهم وأوقاتهم وأموالهم في الأدوات الأكثر فاعلية في تغيير الرأي العام، وهذا ما يفعله اليهود في أمريكا وأوروبا، حيث إنهم يملكون من الوسائل الإعلامية أكثر بكثير مما يتناسب مع حجمهم بوصفهم أقلية صغيرة.

مهما كانت طبيعة العامل التغييري، فإنه يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره إذا كان غير منسجم مع روح العصر ومنطقه وتوجهه العام، وعلى سبيل المثال فإن الناس في زماننا يسعون بكل ما أوتوا من قوة نحو امتلاك المال وحيازة الثروات، ونحو البحث عن المرفهات، وكل ما من شأنه توفير الراحة لأجسادهم؛ ولذا فإن آية دعوة للزهد والإعراض عن الدنيا، والعيش على الكفاف لن تلقى آذاناً صاغية - مهما كانت الوسيلة التي تصطفعها - بل قد يفقد صاحبها المصداقية، ويعرض سمعته للخطر. لكن الاستجابة ستكون أفضل حين تدعى الناس إلى أن يكدوا ويعملوا حتى يمتلكوا المال من طريق الحلال؛ فيتوسعوا على عيالهم، ويتصدقوا، ويوفروا فرصاً للعمل لأبناء وطنهم... وما ذلك إلا لأن مثل هذه الدعوة تنسجم إلى حد بعيد مع روح العصر ومنطلقاته.

ولا ينبغي بعد هذا وذاك أن يشغلنا النوع عن الكل، فقناة فضائية تدعو إلى الفضيلة في بحر من القنوات التي تدعو إلى الرذيلة، ستكون محدودة التأثير، لأن الناس لا يملكون ذائقه ثقافية ثابتة، تحاكم ما يعرض إليها، وإنما ما يبث هو الذي يشكل تلك الذائقه. هذا بالإضافة إلى اعتبار القدرة على الوصول واستقطاب الناس، ولا ريب أن قدرة الواحد غير قدرة العشرة.

إن التحول الصحي في مجتمع ما لا يتم من خلال الضغط والإكراه، ولا بطرق صناعية (بهلوانية) وإنما يتم عن طريق بلوغ عناصر التغيير مرحلة

(الكتلة الحرجة)، أي الحد الأدنى المطلوب لإيجاد أسلوب جديد للناس في تفكيرهم واهتمامهم وتعاملهم.

ومن المؤسف أن كثيرين ممن يشتغل بالدعوة والإصلاح والتغيير، لا يبدون أي استعداد للبحث في وزن عناصر التغيير، ولا في الكمية المطلوبة منها للنهوض بوسط معين؛ مما جعل الإنجازات، لا تناسب مع الادعاءات والأمنيات!

٦ - الشفافية نحو متطلبات التغيير:

مع إيماننا بضرورة توجيه التغييرات، والسيطرة على آثارها، إلا أن علينا أن نبذل جهداً آخر، وفي صعيد آخر؛ إذ إنّ ما يحدث من تطورات في حياتنا العامة، ليس كلّه سلبياً، كما أن بعضه يتمتع بقوة كونية هائلة، ومن ثم فإنه ليس هناك من سبيل لتجاهله وغض النظر عنه، وفي كلتا الحالتين، فإن علينا أن نغير بعض مفاهيمنا وعاداتنا الشخصية وأعرافنا العامة، حتى نبقى على توتر مناسب في فاعليتنا الحضارية، وحتى نستفيد من منجزات العصر، ونتقي الشرور التي يأتي بها التطور التقني الذي يوشك أن يخرج عن السيطرة، ويدخل مرحلة (التسبيب)!

الثورة المعلوماتية، وضيق الفجوة بين الأفكار النظرية وتطبيقاتها، وغزو المنتجات التقنية لكل شبر في الأرض، والمنافسة العالمية المفتوحة والرهيبة على كل شيء... كل هذا بات يتطلب أن نغير بعض الأخلاقيات الاجتماعية، وبعض العادات الشخصية، وصار من الواجب علينا أن ننقل وضعيات كثيرة من التنافس إلى التعاون، ومن الولع بالإنجازات الفردية إلى توطين النفس على العمل ضمن فريق، ومن الاحتكار والاستغلال إلى تأسيس الشركات المساهمة، ومن الطبقية والعنصرية إلى الأخوة والتسامح والعدالة والمساواة..

إذا لم نعمل في هذا الاتجاه، فإن بركات التقدم العلمي، ستتحول

إلى عوامل تخلف في مجتمعاتنا؛ حيث نحاول أن نجعل المعطيات العلمية والتكنولوجيا الأشد حداثة تتفاعل مع أطر أخلاقية وتنظيمية بالية ومنحرفة ومعوقة؛ وبذلك نحقق شكلاً من أشكال الازدواجية المقيمة، ويكون تحضيرنا شكلياً.

ربما كان أكثر المجالات حاجة إلى التطوير، هو المجال التربوي على الصعيد الأخلاقي وعلى الصعيد العلمي الفكري معاً. ويشعر التربويون اليوم بوجود فجوة بين النظم التربوية ومخرجاتها، وبين متطلبات المتغيرات الاجتماعية. وسبب هذه الفجوة هو الإيقاع السريع لمجتمع المعلومات مقارنة بالإيقاع البطيء الذي يتسم به تجدد النظم التربوية والمرتبطة بقوانين التغيير الاجتماعي المتسم دائماً بالبطء والتلتوؤ. ومع أن جهوداً كبرى تبذل من أجل تطوير المؤسسات التربوية، إلا أنه يبدو أنها مصابة بعاهات مستديمة، أصبحت تشكل ما يشبه الطبيعة الثانية لها، وصار هناك نوع من الشعور بضرورة معايشتها باعتبارها شيئاً محتمماً.

ومهما يكن الأمر، فإن الأوضاع العالمية الجديدة، والتنافس في سوق العمل، والبطالة المتزايدة... إن كل ذلك بات يتطلب من الآباء والأبناء تأهلاً جديداً وأداءً متميزاً؛ إذ إن العيش بكرامة، أصبح يتطلب خريجاً من الدرجة الأولى، وصار من واجب الآباء والأمهات أن ينظموا مذاكرة أبنائهم، ويشجعوهم على اكتساب عادات جديدة في القراءة، إلى جانب تنمية حب الاستطلاع لديهم، والمشاركة في الحصص المدرسية. وهذا يتطلب من الأب نفسه أن يكون نموذجاً لأبنائه في متابعة الجديد من المعرفة، والالتزام بالتعلم مدى الحياة. وهذا كله لم يعد كافياً للتفوق الشامل، ما لم نحرص على أن يتكامل في شخص البافع والشاب الاطلاع الجيد والفهم الحسن مع الخلق والالتزام بالعمل الجاد.

التعليم التقيني الذي أدمنته من مرحلة الروضة إلى مرحلة الجامعة أوجد متعلماً انفعالياً واتكالياً، ينتظر المساعدة من الأستاذ تارة، ومن الأب

تارة ثانية، ومن الكتاب تارة ثالثة. ولذا فإنه عندما ينتهي من الثانوية أو الجامعة، فإنه ينسى جل ما تعلمه، ولا يبقى لديه سوى الهيكل العظمي مما أفاده، وتخصص فيه، ونظراً للتدفق المعرفي الهائل، فإن ما يتبقى لديه من معرفة منظمة فيما بعد، يفقد قيمته يومياً، ليصبح في النهاية كالعدم ! .

الاستجابة لمتغيرات العصر في هذا المجال، تتطلب من المرء أن يؤهل نفسه لاكتساب القدرة على التعليم الذاتي، ومواصلة إخضاب مواهبه وتوسيع مداركه، وصقل مهاراته، بالإضافة إلى القدرة على تحليل المعلومات الواردة، واستخلاص المغازي والدروس منها؛ من أجل توسيع قاعدة الفهم لديه .

إذا لم تُضفِّغ لهذه المطالب، فإن علينا أن نعد أنفسنا لمزيد من الأزمات الشخصية والاجتماعية، ومزيد من اتساع الهوة بيننا وبين الآخرين .

٧ - التوجه المؤسسي :

بعض المصلحين إذا وجد مشكلة ألقى فيها خطبة، وبعضهم يؤلف حولها كتاباً، وبعض ثالث يصدر فتوى... وهذا كله ضروري ومطلوب؛ لكن زماننا يشهد تعقيدات لا عهد للناس بها، والاتجاهات الاجتماعية السائدة، لم تتكون بسبب خطبة أو مقالة، وإنما بسبب جهود ضخمة ومتعددة ومتواصلة، وذات مصادر، وامتدادات شتى، مما يعني أن الفعل العابر، لم يعد كافياً؛ حيث إن من المهم جداً أن نفكر في كيفية وصول الأفكار التغييرية إلى هذا العدد الهائل من الناس، وكيفية متابعة تأثيرها ومراقبته وتوجيهه... وهذا في الحقيقة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق وجود مؤسسات متخصصة، توجه جوانب الحياة كافة، وسنذكر هنا بعض الأمثلة عن سبيل التذكير، ليس أكثر .

- على الصعيد الإنساني والاجتماعي :

مؤسسات لرعاية الأيتام والأرامل والمسирدين واللاجئين والمعوقين

والمعوزين وذوي الظروف الصعبة والخاصة عموماً. ومن الأفضل أن يقوم أهل لكل حي - كما هو موجود في بعض البلدان - بإقامة المؤسسات التي تخدم أهل حيهم؛ فهم أعلم باحتياجاتهم الحقيقة.

- على الصعيد الخلقي والقيمي:

من غير الممكن اليوم تنمية الحس الخلقي لدى الناس من غير إطار ومؤسسات تخصص جهودها لنشر الفضيلة والأخلاق الإسلامية، وترسيخ التلاحم الاجتماعي، ومحاصرة الشرور، وتعليم الناس التعايش الأخوي، واللجوء إلى الحلول السلمية في فض النزاعات والخصومات وإصلاح ذات البين. ويمكن أن تصطنف لذلك حلقات للحوار والنقاش المفتوح، وبرامج نشر، وبرامج في الإذاعة والتلفاز) وما شابه ذلك.

- على الصعيد الإنتاجي والاقتصادي:

الناس بحاجة إلى مؤسسات تطرح برامج لبناء أخلاقيات وعادات وسلوكيات تدعم الإنتاج، وتحارب الهدر، وتساعد على تحسين الأحوال المعيشية، من نحو التبصير بأهمية الفعالية في الأداء، وتجويد الإنتاج، والحرص على الأدخار، والتشجيع على القرض الحسن، وانتظار المعسر، وإيجاد الأوعية الاستثمارية المشروعة، من مصارف وشركات مساهمة وغيرها. ومن نحو محاربة الإسراف والتبذير وإنفاق الأموال الباهظة على المظاهر والشكليات، وما شابه ذلك.

- على الصعيد الفكري والمعرفي:

نحن بحاجة إلى مؤسسات للتشجيع، والعمل على نشر التراث وتحليله وتوظيفه في حياتنا المعاصرة، ومؤسسات لزيادة الوعي بالتعامل مع التاريخ وفهمه وتفسيره، وأخرى للحث على القراءة، وتيسير اقتناء الكتاب، ومؤسسات لرعاية النابهين والمبدعين، ومساعدتهم على المضي في طريق

الاختراع والابتكار ومؤسسات لتعليم الناس التفكير الصحيح والموضوعي، وتحسين وعي الناس بمستجدات الواقع وتعقيداته، وأخرى تتعلق بالمستقبل وتوقعاته ومفرزاته ومطالبه . . .

- على الصعيد الإسلامي والدولي :

لا يعتقد أحد اليوم بإمكانية إقامة دولة واحدة ترعى الشعوب والجماعات الإسلامية في العالم لظروف وأسباب غير خافية على أحد، والبديل لذلك، هو كثير من المؤسسات التي تنشئ اتحادات مختلفة بين الفعاليات والتخصصات الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي، مثل اتحاد للمفكرين والمتقين المسلمين، وأخر للمعلمين، وثالث للأطباء . . .، وهكذا التجار والمهندسو والمزارعون . . . ومؤسسات اقتصادية وتجارية لإيجاد التكامل بين الطاقات والإمكانات الإسلامية. ومؤسسات لتعريف الشعوب الإسلامية بأحوال بعضها بعضاً، وتشجيع التواصل بينها.

أما على المستوى الدولي، فإن لدينا حاجة ماسة لإقامة مؤسسات تعنى بعرض الإسلام في مختلف المجالات والأصعدة الدولية، والكشف عن الإمكانيات الحضارية الضخمة التي يخزنها الإسلام، ويمكنه أن يقدمها للآخرين. أضاف إلى هذا أننا بحاجة إلى مؤسسات تحسن فهم المسلمين للنظم العالمية الجديدة، وما تعلمه علينا من تحديات واستجابات . . .

إن من واجب الحكومات أن تشجع هذه المؤسسات، وتسهم في تشييدها ومن واجب أهل اليسار والثراء أن يبذلوا لها من عفو أموالهم، ومن واجب المفكرين والعلماء أن يعطوها من جدهم ووقتهم وخبرتهم.

ويمكنتني بعد هذا القول: إن حجم المؤسسات الخيرية والحضارية ونوعيتها، ومدى انتشارها، يُعد مقياساً دقيقاً لما يحرزه المجتمع من تمدن ورقي ويستحيل على مجتمع فقير في هذه المؤسسات وأشباهها أن يعالج مشكلاته، ويحقق طموحاته في زماننا هذا على الوجه المطلوب.

٨ - تحية العقلية المكتبة:

هذه قضية مهمة، فالمطلوب اليوم هائل بكل المقاييس، ولن يقوى على تحمل أعبائه من نشاهدهم من جيوش الشباب الباحثين عن وظيفة حكومية، يجدون في ظلالها الأمان والأمان^(١). إن تضخم الأجهزة الحكومية، أفسدتها، ونشر فيها الرشوة والمحسوبيّة، وإن بحث الشباب عن العمل الوظيفي باعتباره الخيار الأول، قتل فيهم روح المبادرة الحرة، وأضعف لديهم ملحة الإبداع.

إن من مسؤوليات الأسر في البيوت والمربين في المدارس والجامعات أن ينموا في الناشئة والشباب (روح المخاطرة)، وتعشق الأعمال الحرة والمشروعات الصغيرة. ويمكن لجمعية من رجال الأعمال والخبراء بأحوال السوق والتنمية الاقتصادية أن يكون لها دور حيوي في إرشاد الشباب، وتشجيعهم على تأسيس أعمال خاصة محدودة؛ كما أن الدول ستخفف كثيراً من ضغوط الطلب على الوظائف لديها، إذا هي خصصت بعض مواردها لهذا الغرض، وأوجدت آلية لمساعدة الشباب على المضي في طريق ممارسة العمل الحر. ويمكن أن تنشأ مصارف خاصة، تقدم القروض للشباب ولغيرهم، ويتعاون معها أهل الخير من لديهم فائض مالي. والمقصود من كل هذه الإجراءات أن نوجد في المجتمع المسلم اتجاهات جديدة تحرر الشباب من الرغبة الجامحة في الأعمال المكتبية، وتدفعهم نحو البحث عن الفرص المتتجدة التي تتيحها حركة السوق.

٩ - المشروع الحضاري الشخصي :

لا نستطيع أن نوجد مجتمعاً أقوى من مجتمع أفراد؛ ولذا فإن

(١) بسبب البطالة المقنعة هناك موظفون، لا يُرون إلا في آخر الشهر، وهناك موظفون لا يجدون مكتباً أو كرسيّاً يقضون عليه باقي حياتهم؛ وهذا مما اختصت به الدول النامية والمختلفة دون غيرها! .

المجتمعات القوية والمنتجة لم تقم إلا على نجاحات وانتصارات كثيرة ومت米زة، حفظها كثيرون من أبنائهم في حياتهم الشخصية الخاصة. المشروع هو اجتماع الهدف والطاقة والإمكانية وبعد الزمني في خطة منطقية واحدة. ومن غير المشروع لا نحسن تحسين أهدافنا الخاصة، ولا نستغل أو قاتنا على الوجه المطلوب، كما أننا لا نستغل طاقاتنا وإمكاناتنا الاستغلال الأمثل.

الفكرة جديدة علينا، ففي ظل انتشار الأممية الأبجدية بين الأسر، والجهل بمتطلبات الحياة المعاصرة، لم تستطع التربية في البيوت تكوين هذه الفكرة عند معظم الأطفال والناشئين. أما المدارس، فإن تكدرس الطلاب فيها يحول في الغالب دون التفات المدرس إلى الاهتمام بمثل هذه المسائل. وهكذا ينشأ كثير من الشباب وهو لا يدرى شيئاً عما يمكن أن يقدمه لنفسه أو أمهاته، ويسلح من عمره سنوات كثيرة دون العثور على هدف محدد، يعمل من أجله، أو الوصول إلى برنامج محدد، يستثمر من خلاله إمكاناته.

المشروع الحضاري التزام شخصي بشيء يكرس له المرء عمره كله أو جزءاً منه، وهو أوسع تنوعاً مما نتصور؛ فقد يكون مناصراً لفكرة، أو نشراً لدعوة أو إتقاناً لعلم، أو كشفاً عن قضية غامضة أو رعاية لجمعية، أو تفرغاً لتربية ولد أو دعماً لمؤسسة خيرية. المهم دائماً أن يكون مشروعنا الحضاري الشخصي شيئاً يستحق العناء، وأن يكون على صلة بمشروعنا الأساسي، وهو الفوز برضوان الله - تعالى - والنجاح في الابلاء العام الذي كتب علينا. ويجب إلى جانب هذا أن نبرمج حياتنا، ونرسم أهدافنا من أفق حاجات مجتمعنا، أي أن يساهم مشروعنا الحضاري الشخصي في تحقيق أولوية اجتماعية، أو سد ثغرة ملحة وخطيرة.

سوف يحفز همتنا إلى مثل هذا التوجه مؤازرة أهلينا وإخواننا لنا؛ ولذا فينبغي ألا نعمل من تذكير إخواننا بطاقاتهم وإمكاناتهم، وما يمكن أن

يفعلوه. وإذا التقينا بادرة من أحدهم لعمل شيء، فينبغي أن نذكره بها، ونتابع إنجازه فيها. وللأسرة والمدرسين الأثر الأكبر في هذا؛ والتاريخ كالواقع مليء بأخبار الإنجازات الكبرى التي دفعت إليها كلمة من مرب أو والد. وقد سنّ لنا ذلك النبي ﷺ في بيان خصائص بعض أصحابه، وثنائه عليها، وكأنه بذلك يقول: رعاية هذه الخصيصة هو ما يمكن أن يرفعك أكثر فأكثر، ويدفع بك إلى المقدمة. بل إن الأمر تجاوز ذلك في بعض الأحيان إلى طلب أمر بعينه من بعض أصحابه؛ فقد أخرج الشیخان أن النبي ﷺ قال عن عبد الله بن عمر بن الخطاب: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل». قال سالم ابنه: «فكان أبي بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً».

إننا نطمح إلى أن تكون في المستقبل روابط تجمع بين أصحاب المشروعات الخاصة المتشابهة، من أجل تكوين هيكل من المعرفة والخبرة، يستفيدون منه، ومن أجل إيجاد أطر فنية متخصصة، تتيح لهم التعاون في إنجاز مشروعاتهم؛ وقد سبقنا الغرب إلى هذا في جملة ما سبقنا إليه. والله الأمر من قبل ومن بعد.

www.alkottob.com

تجذيب الثقافة

www.alkotob.com

www.alkotob.com

تجديد الثقافة

تدل مادة (ثقف) في اللغة على تجاوز ما هو طبيعي ومعتاد إلى ما هو أكثر استقامة وتفوقاً؛ فقد قالت العرب: ثقِف الشيءَ ثقفاً: حذقه. وثُقِفَ الرجل ثقافةً: صار حاذقاً خفيفاً. وقالوا: غلام ثقِفَ: ذو فطنة وذكاء. وقالوا ثقِفَ الشيءَ إذا كان سريع التعلم له. ويقولون: ثقِفَ الشيءَ: أقام المعرفة منه وسوأه. وحين يقول اليوم: إن فلاناً مثقف، تقصد أنه حاز من العلوم والمعارف ما جعله يبدو متفوقاً على الأشخاص العاديين، وما صقل ملكاته حتى جاوز السوية التي يكون عليها الأمي وشبهه.

لكتنا هنا لا نريد الحديث عن هذا؛ فالمعارف بكل أشكالها وأنواعها، لا تمثل سوى جزء من ثقافة الشعوب؛ إذ إن المدلول الحديث لكلمة (ثقافة) بات أوسع من ذلك بكثير. وقد استعرض بعض الباحثين أكثر من مئة وخمسين تعريفاً للثقافة والمفاهيم المرتبطة بها. ومعظم تلك التعريفات يقترب مما ذكره (تايلور) في كتابه (الثقافة البدائية) الذي نشره عام ١٨٧١ حيث قال عن الثقافة: «إنها ذلك الكل المركب من المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والأعراف، وكل ما اكتسبه الإنسان باعتباره عضواً في مجتمع ما». وعلى هذا فإن الثقافة تشمل:

- ١ - منظومات التفكير التي يستخدمها الناس في التعرف على أنفسهم، وعلى العالم من حولهم، والتي يوظفونها في إنتاج المعرفة وتنميتها.
- ٢ - ما يستخدمونه من معايير في الحكم على الأفعال والأشياء المختلفة، مثل العقائد والقيم والأخلاق والأحاسيس الجمالية.

٣ - طرق التعبير والصور والرموز التي يفصح من خلالها الناس عن الأفكار المشاعر والقيم . . .

٤ - المعارف والمهارات والوسائل التقنية التي يتعامل الناس من خلالها مع البيئة المحيطة .

ويمكن القول بعد هذا إن الثقافة بمعناها الواسع، تشمل جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، مثل نظم القيم والتقاليد والعادات، ومثل الحقوق الأساسية، إلى جانب الفنون والأداب وطرائق العيش .

الملكات والمواهب والمبادئ العقلية الفطرية تسمى العقل الأول. أما ما يكتسبه الإنسان من علوم ومهارات، فهو العقل الثاني، وهو مظهر من مظاهر التثقف. وهذا العقل هو المشار إليه بقوله - سبحانه - : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١). وكل كلمة (عقل) وردت في القرآن الكريم في سياق ذم الله - تعالى - للكفار فالمراد بها أيضاً العقل الثاني، كما في قوله - سبحانه - : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَيْتَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَّا هُمْ أَنْتُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

التفاوت بين عقلانية شعب وشعب، لا يكون في المبادئ والملكات العقلية، فهي موزعة على التساوي بين الأمم والشعوب، وإنما يكون في العقل الثاني، أي في بعض تجسيدات الثقافة. ونستفيد من كل ما سبق أن الثقافة ضرورة اجتماعية، إذ يستحيل تعايش الناس في أي مجتمع من غير ثقافة، لكن ليس كل الثقافات تكون في وضعية تمكن أصحابها من التمدن والارتقاء في معارج الحضارة، وهذا هو بالضبط ما يمنع المشروعية لما نسميه بـ(التطوير الثقافي) وـ(النقد الثقافي).

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣. (٢) سورة الأنفال: الآية ٢٢.

ملاحظات حول طبيعة الثقافة وارتباطاتها:

١ - انطلاقاً من شمول المفهوم لكلمة (ثقافة) يمكن القول: إن ثقافة أية أمة، هي ذاتها، فلا ذات اعتبارية ومعنوية من غير ثقافة؛ إذ إنها توفر ما نحتاجه من وسائل لوعي أنفسنا ووعي تاريخنا وواقعنا ومحيطنا العالمي، كما توفر كذلك كل ما يحتاجه التلازم الاجتماعي من عقائد وأفكار ورموز وتقاليد؛ حيث إنها هي التي تحول الوعي الذاتي لكل منا إلى وعي جماعي، وتشرط كثيراً من عمل ذلك الوعي. وإذا أردت أن تعرف جوهرية الثقافة في حياة إنسان، فانظر إلى وضعية إنسان مصاب بالفقد الكلوي للذاكرة، حيث إنك ستجد إنساناً مجرداً من كل المقومات التي تجعل منه إنساناً اجتماعياً، وتجد أن قابليته لأي نمو أو إصلاح لا تزيد على الصفر بشيء!

كلما كانت الثقافة - باعتبارها أدوات في يد الوعي - أصيلة ومنسجمة وفعالة كانت الأمة التي تحملها وتحيا بها ومن خلالها قادرة على التماسك والتواصل والإبداع. وهذا كله يتم في الحقيقة بصورة غير مرئية، لكن لا نعدم أن نجد في كل ثقافة بعض المحاور التي تستقطب حولها بعض المفاهيم والأفكار والرموز والتقاليد التي يتشكل منها جسم الثقافة وروحها. وتلك المحاور ذات ارتباط مباشر بلحظة الانطلاق والتكون الذي جعل منها ثقافة خاصة. فعلى حين يشكل المحور الأخلاقي الركيزة الأهم في ثقافتنا، فإن ثقافات الحضارة الغربية تتمحور حول ركائز عقلية وتقنية في المقام الأول. ولا يعني هذا انعدام القيم الروحية لديهم، أو هامشية المحور العقلي لدينا، وإنما المراد أن نوضح أن الركائز الثقافية، لا تحتل أهمية واحدة لدى الأمم، كما أن تلك الأهمية قد تتعرض لنوع من المد والجزر، بحسب الأحوال التي تمر بها الأمة.

٢ - ذكرنا أن الثقافة مكونة من عدد من الأنساق والبنيات المختلفة، ويمكن القول: إن كل مكون من مكونات الثقافة، يتمتع بمنطقية ومعقولية خاصة؛ ولذا فإننا، قد نلغى ثقافة من الثقافات متقدمة في أحد أنساقها،

متخلفة أو متحجرة في نسق آخر، وذلك يعود على نحو جوهري إلى أن البنية الثقافية لا تدخل النسيج الثقافي في حقبة واحدة، ولا تخضع في ذلك لشروط وظروف واحدة. وعلى سبيل المثال فإن العرب في الجزيرة كانوا في الجاهلية، يتمتعون بموهبة وقدرات بيانية رائعة، وكان الإبداع الشعري، يمثل أحد معالم تميزهم، لكن على صعيد السياسة ومعاييرها وأدابها، كانوا يمثلون متنهى التخلف والتفكك. وعلى الصعيد الخلقي كان أكثرهم، يجمع بين الكرم والشجاعة والمرءة وحفظ الذمم، وبين التمييز بين الذكر والأنثى الذي بلغ ذروته في وأد البنات عند بعض القبائل.

ونشاهد اليوم شعوبياً، تجمع بين أنماط فكرية وتقنية متقدمة وأنماط عقدية متخلفة، كما هو الشأن لدى الصين واليابان. ولا يعني هذا أن العزلة بين البنى الثقافية تامة، فهذا غير وارد، لكن يعني أن الطبيعة المعقدة للنسيج الثقافي، تسمح بذلك التعايش حقباً عديدة. وهذا التباين بين هذه الأنماط، يشكل مصدراً للصراع داخل الثقافة، وذلك الصراع، هو مصدر تجديدها، وباعتبارها الأكبر على الإبداع الراقي.

وما قدمناه يدل على أن ثقافتنا - كثقافة غيرنا - تظل قابلة لنوع من التطوير؛ إذا كان بعض جوانبها مشرقاً، فهذا لا يعني إعطاء براءة بالعافية للجوانب الأخرى، للاعتبارات التي ذكرناها. ومن وجه آخر، فإنه لا ينبغي لأية أمة - مهما بلغ انحدارها - أن تدمر بنى ثقافتها الخاصة لفتح الطريق أمام إحلال ثقافة أخرى محلها؛ كما يدعوا إلى ذلك بعض المفتوحين بالثقافة الغربية.

فالتجديد الثقافي - والذي هو تجديد للوعي - يجب أن يخضع في حالة التشذيب وفي حالة الاقراض والاقتباس لمعايير محددة، أهمها تناغم ما نريد اقتباسه مع بقية أنماط ثقافتنا، وأهليته في خدمة المحاور الأساسية لهذه الثقافة.

٣ - مع أن الثقافة هي النافذة التي يطل منها الوعي على القضايا

الروحية والعلمية والتنموية... إلا أن ذلك لا يجعل منها بنية جامدة متکلسة؛ فحن إذ تتحدث عن الثقافة الإسلامية - مثلاً - لا نقصد أنها تتمتع بشيئية مطلقة، تجعل توصيفنا لها صالحاً إلى ما لا نهاية. لا ريب أن في كل ثقافة ثوابت ومرتكزات وأسساً، تمنع الثقافة مشخصاتها الأساسية، وتقاوم الكثير من عاديات التغيير، لكن التاريخ يفيدنا أنه ما من نسق أو نظام ثقافي يملك ملجاً آمناً من التغيير والتطور. والعامل الجوهرى في ذلك هو افتتاح (الثقافة) على (الواقع)، حيث تمثل تطوراته وترميزاته المتتجددة ساحة لتبادل التأثير والتاثير بين الأنساق والبني الثقافية المختلفة. والأمثلة على هذا كثيرة، وعلى سبيل التوضيح فإن ما مارسته الكنيسة من تسلط على شعوب أوروبا أوجد واقعاً كارهاً للتدين عامة. وهذا ساهم في تدمير الإطار المرجعي للأخلاق في الغرب؛ مما جعل تطورها سهلاً. وهذا من جهته أثر في النسق الاجتماعي؛ فتحلل الأسرة وشيع الزنا والشذوذ الجنسي، كان بسبب اضمحلال تأثير المسيحية في الحياة اليومية لدى الغرب.

دخول المرأة سلك الوظيفة، أثر في العلاقات الاجتماعية، حيث صارت المرأة تشارك في الإنفاق على الأسرة؛ مما أثر في علاقتها مع زوجها، وأعطى للقوامة معنى جديداً. فإذا كان الرجل عاطلاً عن العمل وكانت المرأة هي التي تنفق على البيت، فإن العلاقة بينهما ستأخذ وضعاً مغايراً تماماً وهكذا...

الذي نريد توضيحه من وراء هذا الكلام أن علينا أن نراقب تطور ثقافتنا؛ ولا سيما في ظل الاتصال العالمي الذي فاق كل تصور. ولا ينبغي أن يخدعنا في هذا الشأن أن عقيدة التوحيد التي يحملها المسلم بين جوانحه، ستتضمن ثقافتنا حصانة من الانحراف والانجراف في التيار المادي العاتي الذي نعيشه اليوم؛ فالodelolas العقدية والقيمية، قد يتم تجاوزها وتؤولها دون انتبه الوعي لذلك؛ كما أن المنتجات التقنية، أوجدت ظروفاً جديدة، بدت في السلم القيمي لدى كثير من الناس، فارتفع شأن بعض

الأشياء، وهو بعضاها، كما أنها ولدت منطقة جديدة مرتكزة على المنفعة والمتعة والخلود إلى الراحة.

وهذا كله يدفع بالثقافة في اتجاهات جديدة، كثيراً ما تكون غير صحيحة ولا صحيحة. إن سنة الابتلاء، تلقى علينا مسؤولية إيقاظ الوعي، وتنبيهه للتحولات الكبرى التي بدأت تغير ملامح كثير من الثقافات؛ وتوفير الظروف التي تساعد ثقافتنا على الصمود والنمو.

٤ - إن العالم الثقافي عالم متحرك متفاعل، تشتبك، وتصطرب فيه المنظومات المعرفية والتكنولوجية مع المنظومات المعيارية، مع العادات والتقاليد... وهذا الاشتباك نابع من طبيعة الحياة الإنسانية ذات الجوانب والمطالب المتنوعة. هذا الصراع بين مجموعة الأساق المكونة للثقافة، ضروري لتوازنها؛ لأن انتهاءه، لا يكون في الحقيقة إلا بتغلب أحد هذه الأساق، وإفقار الأساق الأخرى. دعنا نتصور مجتمعاً يعطي للعادات كل اهتمامه، وي الخضوع لها خصوصاً تماماً، بقطع النظر عن موقع تلك العادات في المنظور الشرعي، أو بقطع النظر عن أثرها في الاقتصاد أو في التحرر السياسي، على نحو ما نجده عند بعض الشعوب من إكرام الضيف على نحو لا يدع لأهل البيت أي شيء يقتانون به بعد رحيله. ونحو ما نجده لدى بعض القبائل من إعطاء صوتها في الانتخابات للوجيه من أبنائها، بقطع النظر عن كفاءته السياسية، وقدرته على التحرك من خلال الوظيفة التي نالها. وتصور معي شعباً ينظر إلى مسائل المهن والحرف والتوجهات التقنية نظرة ازدراء وإعراض مع شدة حاجته إليها في استقامة حياته العامة وتكاملها، ماذا ستكون حاله؟

لا ريب آنذاك أن أعداداً ضخمة من الناس، ستجد نفسها خارج سوق العمل، بسبب عدم التمكن من استثمار الجهد والوقت في قطاع رئيسي من القطاعات الإنتاجية المهمة.

بعض المفكرين العرب خفضوا الثقافة كلها إلى نسق من أساقها،

وهو النسق المعرفي، وشطبوا النسق الروحي والعاطفي، بل النسق الأخلاقي أيضاً؛ وكان الأفكار والمعطيات العلمية والبحثية، هي التي تسير الوجود؛ وهذا خطأ فادح؛ فالبشر كائنات عاطفية في المقام الأول، وكثير من مشروعاتنا المصيرية لا يقوم على أساس عقلاني، فاختيار شريكة الحياة - كما اختيار الأصدقاء - كثيراً ما يقوم على أساس عاطفي، وأحياناً مصلحي. وكانت النتيجة لذلك أن عالم أولئك المفكرين والباحثين ظل مفعماً بمشاعر الوحشة والمرارة والجفاء.

بعض الجماعات الإسلامية التي تهتم بالمسائل الروحية، استثمرت كل إمكاناتها في تصفية النفوس، وإنعاش الجانب العاطفي، وأهملت الجانب الفكري، كما أهملت الجانب المعياري، فمعرفة أبنائها بالواقع وعقابيه، والمستقبل ومتطلباته ضئيلة جداً. ولا يشبهها في ذلك سوى معرفتهم بالأحكام الشرعية ومسائل الحلال والحرام. وقد حصدت تلك الجماعات ثمار ذلك الخلل في هيئة عزلة عن الواقع، وانحراف عن الجادة في قضايا كثيرة، بالإضافة إلى انطفاء الفاعلية الحضارية لدى كثير من أبنائها.

ومن الملاحظ اليوم أن المفتونين بالحضارة الغربية، لا يهتمون بصحة الأفكار، ولا بمدى انسجامها مع الأفكار والقيم الإسلامية التي تشكل صلب ثقافتنا - بمقدار اهتمامهم بفاعلية تلك الأفكار، وتأثيرها في تحسين الإنتاجية، مع أن الفكرة أو القيمة التي لا تجد لها أساساً في البنى العميقة للثقافة قد تحول فاعليتها من وسيلة بناء إلى وسيلة هدم، كما هو الشأن في النشاط الربوي - مثلاً - فهو قد يوفر - حسب الظاهر - فرصاً استثمارية، ويسهل عمليات التنمية الاقتصادية، لكنه من وجهة نظر نسقنا المعياري، يهدم في معتقد المسلم وفي أخلاقه.

يقف في الجهة المقابلة لهذا كثير من طلاب العلم الشرعي، فهم يبحثون دائماً في صحة الأفكار دون النظر إلى توظيفها وتفعيلها في خدمة الحياة المسلمة.

وهناك أعداد ضخمة من البحوث التي تحاول اكتشاف المنهج الرباني، أو حكم الله - تعالى - في شؤون الحياة، لكن ليس هناك سوى القليل من الدراسات التي تبحث في اكتشاف سبل توظيف ذلك المنهج، وجعله يهيمن على الحياة.

من خلال هذه الشروحات نصل إلى بعض النتائج الحاسمة في هذه المسألة:

أ - الصراع بين أنساق الثقافة المختلفة، يشكل ظاهرة صحية، فهو دليل على أن الثقافة تحيا بكل مكوناتها وخصائصها؛ والأجزاء الثقافية التي لا تتبادل التأثير مع الأنساق الأخرى، هي أنساق ميتة أو مهمشة.

ب - ليست هناك نقطة معينة يبلغ عندها التوازن الثقافي كماله، وليس هناك أي وسيلة لتحقيق ذلك؛ ولذا فإن المتوقع دائماً أن نعطي نسقاً ثقافياً أكثر من استحقاقه، كما أن من المأمول أن ينبل مكون ثقافي على الرغم من حاجتنا إلى تفعيله وتنشيطه.

ج - مهمتنا في هذه المسألة تتلخص في إبقاء التفاعل بين الأنساق الثقافية حياً ونشطاً، وأن نراقب ذلك التفاعل، ونحاول تصحيح ما يحدث فيه من جنف واحتلال. ووسيلتنا إلى ذلك النقد والتحليل، واعتماد الأصالة والفاعلية، باعتبارهما نقطتي توازن أساسيتين في البناء الثقافي.

د - من خلال فقه الواقع وفقه الحاجات الزمنية للانطلاق الحضاري، قد نفعل بعض الأنساق الثقافية، ونمنحها أهمية خاصة إلى أن يحدث ما نبتغيه، ثم نعود إلى التماس توازن جديد. وعلى سبيل المثال فحين يسود في الأمة الانغلاق والتقليد والخوف من الجديد، فإننا نصير آنذاك إلى تشجيع قيم الاجتهاد والجدل والافتتاح والحرية والمخاطرة... فإذا أحسينا أنه قد ولج في باب الاجتهاد من ليس من أهله مستسهلين ذلك، صرنا إلى التشدد في شروط الاجتهاد، وأكدنا على التصاق أشد بالنصوص، والخوف من القول على الله - تعالى - بغير علم...

تحديات في وجه الثقافة:

١ - تخشب الثقافة:

الثقافة هي السلاح، وهي العتاد الذي يستخدمه الوعي في مواجهة تغيرات الواقع ومتطلبات الحياة المتتجددة. وعلى الوعي كي يستطيع تجاوز الثقافة أن يترك مسافة ما بينه وبين الأنساق الثقافية. وهذه المسافة نفسها هي التي تجعل الثقافة أداة في خدمة الوعي. الثقافة من جهتها تميل إلى أن تجعل من نفسها بنية مستقلة عن الواقع حتى تتمكن من التعامل معه باعتباره أحدياً ومعطيات ومتطلبات متتجددة. وهي كي تتمكن من تشكيل ذاتيتها الخاصة، تميل إلى التمظهر في أنماط وقوالب جاهزة.

التحدي الذي يواجه كل ثقافة، يكمن في محافظتها على توازنها الذاتي مع تلبيتها لمطلب الثبات والتغيير؛ إذ إنَّ عليها كي تستوعب المعطيات الجديدة أن تبدو وكأنها مقولات وموضعات نهائية يعتمد عليها، ويوثق بها. كما أن عليها كي تطور ذاتها، وتحول بينها وبين أن يصيغها التقادم، وبالتالي العجز عن فهم الواقع أن تبدو قادرة على التخلِّي عن بعض ما كانت تعدد في يوم من الأيام شيئاً لا يمكن التخلِّي عنه.

هذا التوازن هو داء الثقافة وترافقها، وهو مكمن قوتها وضعفها في آن واحد. هذا كله يعني أن العلاقة بين الأنساق الثقافية، والعلاقة بين الثقافة والوعي، وبينها وبين الواقع، هي علاقة تفاعلية؛ وعلى مقدار تمكننا من إبقاء هذا التفاعل نشطاً ومؤطراً بثوابت عقدية راسخة؛ نحوَل بين الثقافة والتخشب الذاتي، كما نحوَل بين الواقع وتطوره بعيداً عن مطالب الثقافة.

في ظل ما نشاهده من تطورات متتسارعة تجد الثقافة نفسها عاجزة عن ترميز الجديد واستيعابه في أنساقها الخاصة، وهذا ما يولد لديها نوعاً من (الحررون)، ويدفعها إلى أن تنكمش على ذاتها، وهذا هو بالضبط ما يؤسس للجمود الثقافي، والذي يعني أول ما يعني تحويل الواقع إلى أداة تهدُّم في الثقافة، وتقصيها عن ممارسة وظائفها الحيوية.

الأمثلة على الجمود الثقافي أكثر من أن تحصى، وليس عليك سوى

أن تعيش أياماً في بلد متخلّف حتّى تختنق من مفرزات انفصال الثقافة عن الواقع؛ وعلى سبيل المثال فإن كثيراً من العرب في (موريتانيا) يتضورون جوعاً، ولا يقدمون على أكل السمك؛ لأنّ أكله من شأن العبيد، وليس من شأن الأحرار. وهكذا تتعرّض شرائح من مجتمع كبير إلى سوء التغذية من أجل مسألة رمزية، ليس لها أي ارتكاز في المعايير الإسلامية، ولا هي مقبولة في معايير زمان يعطي المتطلبات الصحية اعتباراً متقدماً.

في بلدان عديدة لم تتغيّر عادات الضيافة، حيث إنّ على صاحب البيت أن يستقبل أقرباء الوافدين من بلدة ثانية، ويجلس معهم ما طاب لهم المقام. أما ما عليه من التزامات تجاه وظيفته أو جامعته أو لقمة عيشه، فإن عليه أن يتجاوزه، ويتدبر أمره فيه إذا ما أراد الحفاظ على سمعته؛ فكثير من الناس لدينا غير قادر على استيعاب التنظيمات الجديدة للعمل، والتكيّف معها، وما زال يظن أن الأمر ما زال على ما كان عليه من قبل؛ ما لا يُنجز اليوم يمكن أن يُنجز غداً.

إن ترك الشريعة السمحّة كثيراً من المسائل في دائرة المباح والسكوت عنه، لا ينبغي أن يشجعنا على جعله أسيراً لأعراف ومواضعات اجتماعية ضارة ومكلفة، فيتحول التيسير الذي أرادته الشريعة إلى أنفال مرهقة، تعمل على القعود بالمجتمع عن أداء واجباته التنموية المختلفة؛ على حين أن مراد الشريعة من وراء وجود الفراغ القانوني إتاحة الفرصة للتنوع الثقافي، وإطلاق المبادرات الفردية، وتسييل الحركة، وتوسيع مجال الاختيار والإبداع.

٢ - البعد عن النماذج الأساسية:

ثقافتنا الإسلامية مع أن لها امتدادات في مرحلة ما قبل الإسلام، واقتباسات من ثقافات عديدة، إلا أنها تظل ذات نفس أولية مستمدّة من نماذج راسخة، شكلت انطلاقتها الأولى، وبات عليها أن تتمسّك بها إذا ما أرادت أن تبقى على رمزيتها وفعاليتها؛ فالمسلم غير مستعد للتفاعل مع ثقافة تحمل اسم الإسلام، وتخلّى عن أمور مهمة من مضامينه.

النماذج الأساسية في ثقافتنا تتجلّى في عدد من المبادئ والقيم، منها الإيمان، والعمل للأخرة، والزهد في الدنيا، والاهتمام بشؤون الروح، ونشر الدعوة، والعدل، والأخوة الإسلامية، واستثمار الطاقات الكامنة، وإعمار الأرض، وما شابه ذلك. ومن حق ما هو أساسى ألا تبتعد التجديفات الثقافية عنه، بل المطلوب دائمًا أن تخدمه وترسخه.

وحيث تطرأً أوضاع صعبة، تبعد الناس عنه، فينبغي أن ينتبه الوعي لذلك، وأن يُعد ذلك في جملة ما يرتكب للضرورة. والضرورات تقدر دائمًا بقدرتها. ويكون الكفاح آنذاك مركزاً على تجاوز تلك الضرورة من أجل العودة إلى الأوضاع الطبيعية.

هذه هي الحالة المثالية، وهي لا تستمر إلا إذا كان الوعي في أحسن أحواله، وكان الناس يملكون من الطاقة الروحية ما يكفي للالتزام بما يشير به الوعي. وهذا يعني ببساطة إيقاف حالة التدهور الثقافي أو تبطئها إلى أقصى الحدود. لكن واقع الحال غير هذا؛ إذ إن الناس كلما تطاول بهم الزمان، وكلما حققوا نجاحاً عمرانياً، وهم عري اتصالهم بالأسس التي قامت عليها ثقافتهم وحضارتهم. وهذا ما استفهم عنده موسى عليه السلام بعد عودته من الطور حين رأى قومه قد ضلوا: ﴿قَالَ يَقُولُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَيْنَكُمُ الْمَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلُّ عَلَيْكُمْ غَصَّبٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ فَلَمْ يَفْلَحُمُ مَوْعِدِي﴾^(١). وهذا ما حذر الله - تعالى - منه المؤمنين حين قال: ﴿أَلَمْ يَأْنَ لِلَّذِينَ مَاءَمُوا أَنْ يَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَكَيْدُ مِنْهُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢).

ويبدو أن قيام المسلمين بأمر الله - وهو ما يتوفّر في مرحلة الانطلاق - يوهمهم للظفر بأعدائهم، وإغراق الخيرات عليهم، وهذا ما ذكره القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَأَلَوْ أَسْتَقْنَمُوا عَلَى الْطَّرِيقَةِ لَأَسْتَيْنَمُهُمْ ثَمَّةَ غَدَقًا﴾^(٣). وكذلك

(١) سورة طه: الآية ٨٦.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٣) سورة الجن: الآية ١٦.

قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْئَانِ مَأْمُوا وَأَنْقَوْا لَفَتَّحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(۱). هذا الخير الناتج عن التمسك بالأصول والأسس، يدخل الأمة في مرحلة ابتلاء جديد، يتمثل في تدفق النعم واتساع العمran، وتعدد الخيرات، وهذا كله يولد لدى الناس عقلية (المحافظة على المكاسب) حيث يذوق الناس طعم الدنيا، كما أنه يوسع مدى استخدام (العقل)، والذي وإن كان المراد منه في الأصل بسط سلطان النص إلى حوادث وقضايا جديدة، إلا أن الحقيقة أن عملية الاجتهاد نفسها، يصاحبها عملية تأويل لبعض النصوص، وهذا التأويل عينه هو الذي يسمح بالبعد عن استشفاف روح النص ومراميه العامة، ويدفع باتجاه تمكين الأهواء والنمادج والرؤى الخاصة من أداء دور ما في صياغة أسلوب جديد للحياة، لا يكون فيه الفوز في الآخرة أولوية مطلقة، وإنما يصبح أحد الأولويات. وبعد مرحلة أخرى قد يصبح أحد المرغوبات، وخارج دائرة الاهتمامات القصوى.

وهذا يعني أن كل المبادئ والأصول التي تؤسس له، يصيغها نوع من التهميش حيث تخمد أحاسيس القدسية نحوها؛ وتنزاح عن مركزها الأصلي، لتعمله اعتبارات جديدة أكثر دنيوية، وألصن بالغرائز والشهوات والمصالح ...

ويمكن القول: إن هذا هو ما يحدث لأمة الإسلام بالتحديد اليوم، حيث تجد أن معظم المناهج الدراسية في أكثر البلدان الإسلامية مصممة لتربية إنسان ناضج في شؤون الدنيا، وتساعده على نيل شهادة، تحمله إلى وظيفة، تكون مصدراً للرزق والنفوذ، أما الفلاح الأخرى والذى هو الأهم فإن المناهج والبرامج الإعلامية، لا تعطيه من الاهتمام والجهد إلا جزءاً يسيراً مما يستحقه!

(تجديد الوعي) الذي عقدنا له هذا الكتاب هو تجديد للثقافة باعتبار

(۱) سورة الأعراف: الآية ۹۶.

ما. ومن أهم ما يلتبس به التجديد إثارة الاهتمام بما تم نسيانه من الأصول، وإعادة المكونات الثقافية المختلفة إلى فلكها الخاص الذي ينبغي أن تكون فيه، إلى جانب إيجاد حلول للمشكلات المنهجية والمعيشية التي دفعت إلى جفاء تلك الأصول والنماذج الأساسية، وإخراجها من دوائر التخطيط والتنمية وال التربية... وهذا كلّه يحتاج إلى العثور على منهج ملائم لهذا النوع من المعالجة، كما يحتاج قبل ذلك إلى الإحساس بالتأزمات التي دخلت فيها ثقافتنا نتيجة إضعاف محاورها الأساسية. ويحتاج بعد هذا وذاك إلى الأطر التي توجه، وتفعل الطاقات الخيرة والمستعدة للعمل في هذا الاتجاه.

٣ - ضعف الثقة بالثقافة :

إن الوعي يثبت في كثير من الأحيان تتمتعه ببنية ذاتية منفصلة عن الثقافة؛ وذلك حين يقوم الثقافة، وبطبيعة القدرة على نقدّها وتطويرها. وقد ذكرنا من قبل أن الثقافة للناس أشبه بالسلاح للمقاتل الذي يمكنه منع لصاحبه معنى من القوة والمنعنة، لا يجده في غيره، لكن هذا المعنى يظل منوطاً بنوعية السلاح وقدرته على توفير الأمن والغلبة لصاحبه، وهكذا الثقافة، يعزز بها أهلها، ويدافعون عنها ما داموا يشعرون بالوظائف الإيجابية التي تقوم بها، وتؤديها في حياتهم. ولا تستطيع أية ثقافة - مهما كانت ركائزها مقدسة أو عريقة - أن تناول شهادة أبدية بجاذبيتها أو تفوقها، أو قيادتها لمسيرة الحضارة؛ فالناس في هذه المسألة عمليون إلى أبعد الحدود.

في معركة الصراع العالمي تسعى جميع الأمم التي ما زالت لديها بقية من طاقة وطموح إلى أن تنتزع لها مكاناً بين الأمم، بل أن تتحقق نوعاً من الغلبة على غيرها، ووسيلتها إلى ذلك هي الثقافة بوصفها المنظومة التي يستقي منها الوعي رؤاه وفروضه وطروحاته على دروب النصر والتطوير والنقد الغيري والذاتي. وإذا شعر الناس بانحطاط مركزهم الحضاري بين الأمم فإن من الصعب إقناعهم بإخلاء طرف ثقافتهم من المسؤولية عن

ذلك. وحين يستمر بذل المحاولات لتحسين الوضعية الحضارية دون تحقيق نتائج ذات قيمة، فإن الناس يبدؤون في توجيه النقد إلى ثقافتهم بوصفها السلاح (المنسق) الذي مضى زمانه، فقد كفأته. والتواصل الإعلامي العالمي المتamenti اليوم، يُظهر للناس على نحو متزايد المركز الحقيقي الذي يحتلونه بين الأمم؛ مما يجعل مجال المناورة في مغالطة النفس أو ستر المعائب محدوداً للغاية.

الحرب الأهلية الدائرة في الصومال وأفغانستان - مثلاً - دمرت ثقة الناس هناك بثقافتهم المحلية؛ إذ ما معنى أن تكون عاجزاً عن إيجاد صيغة للاتفاق والتعايش الوطني، بل ما معنى أن تكف عن الاستجابة - لكل محاولات الصلح ورأب الصدع؟ إن المعنى الذي يولده ذلك هو الشعور بدونية الثقافة، وحاجتها إلى التطوير والتغيير.

المسلم الذي يجد بلاده متخلفة تقنياً دون وجود أية بارقة أمل لسد الفجوة بينها وبين البلدان المتقدمة، سوف يسحب ثقته من ثقافته، ويتحول إلى شحاذ ثقافي، يستجدي على أبواب الآخرين الأفكار والمفاهيم والنظم التي تملأ الفراغ الذي خلفته ثقافته المنهارة. وهو يغطي ما يفعله بغضائه من ادعاء الحرص على التحديث والنهوض، وادعاء كونية الحضارة الحديثة، ومشاركة جميع الثقافات في تشويدها؛ لكن الناس يشعرون أن واقعهم الحضاري - مهما كان شأنه - آخذ في التطور والتبدل خارج مدلول ثقافتهم ورموزها ومعاييرها، وهذا يعنيه هو مرض الثقافة واعتلالها؛ مما يعني في النهاية اليأس من الشفاء، والبحث عن بديل يؤسسون عليه جهدهم الحضاري، ويستمدون منه رؤى المستقبل.

حين تعتل الثقافة، تفقد انسجامها الداخلي، وتتحول كل منظومة فيها إلى أداة لهدم المنظومات الأخرى؛ فالعلم آنذاك، لا يعزز الأخلاق بل يهدمها، والتقدم الاقتصادي، لا يحقق العدل والمساواة، بل يُقصيهم، والتلامح الأهلي، لا يغدو مصدراً للشعور بالأمان، بل يتحول إلى عبه

يُثقل كاهل أصحابه وهكذا... ومهمما ارتفعت الأصوات التي توضح قيمة الثقافة المحلية، وتنادي بضرورة المحافظة عن الموروث القافي، والتي تنفر من الاستسلام للثقافة الأجنبية الغازية، فإن الناس سيمضون في طريقهم إلى تقدير الثقافات المتفوقة واحترام ثقافتهم الخاصة؛ إذ إن روح عصرنا تمجد القوة - بأوسع معاناتها - وتنجذب إلى التفوق على مقدار ما تستهين بالثقافات التي تحاول أن تستمد مشروعيتها من غير هذا الباب.

ليس أمامنا من طريق لاستعادة الثقة بثقافتنا، والكف عن الاستجداء الثقافي سوى التوصل إلى طريقة تنهي به التناقضات الداخلية في ثقافتنا الحاضرة، ونخلصها من الشوائب التي أقعدتها عن أداء وظيفتها في الريادة الحضارية. ولن يكون ذلك كافياً ما لم تتحسن سيطرتنا على البيئة التي نعيش فيها من خلال الارتقاء بنوعية الحياة لمعظم أبناء الأمة.

٤ - انزال الثقافة العليا:

للتقالفة في كل مجتمع مستويان: مستوى شعبي أهلي محلي، ومستوى صفوى نخبوى.

الثقافة الشعبية يتشربها الناس من البيئة المحيطة دونوعي منهم، ودونوعي بعثها من سمينها غالباً.

وظيفتها: تسهيل التعامل بين الناس، وتوفير رمزيات للكفاءة الاجتماعية، وتوفير كل ما من شأنه ترسیخ التضامن الأهلي، وإشاعة أحاسيس الدفء والأمان والارتباط بالتاريخ والوطن والمصالح الوطنية...

أما الثقافة العليا فإن تعلمها والتشريع بها يتم بطريقة اصطناعية، وفي بيئه خاصة - نوعاً - ومن مصادر خاصة... وطريقة التثقف بها قريبة من طريقة تعلم (اللغة الثانية)، فالمرء مهما بذل من جهد في تعلمها، تظل سلطتها عليها نسبية، وهكذا شأن تعامل المثقفين مع الثقافة العليا.

من الوظائف الأساسية للثقافة العليا أن تعرف الأمة على مكامن قوتها، وأن تفتح لها آفاق النمو والتطور، وأن تسلط أشعة النقد على

أزماتها ومشكلاتها، بالإضافة إلى الارتقاء بالثقافة الشعبية، من خلال تنقيتها من مرکوم العادات والتقاليد السيئة، وجعلها أكثر وعيًا بذاتها. وهي إلى جانب ذلك تعد أداة الاتصال بين الأمم؛ فالشعوب لا تواصل عبر ثقافاتها الشعبية، وإنما عبر ثقافاتها العليا، ولذا فإنها أكثر تغيراً، وأسرع تجددًا من الثقافة الشعبية. وهي لهذا السبب نفسه تتيح لأصحابها أن يصابوا بالانبهار بالثقافات والحضارات الأخرى، ولذا فإن الشعور بالتأزن من نصيبيهم تقريرياً؛ على حين تدغدغ مشاعر أصحاب الثقافة الشعبية الأحلام المريحة، وينعمون بالتكيف مع ما هو سائد.

على مدار التاريخ كنا نعاني من عزلة الثقافة العليا عن الثقافة الشعبية الأهلية، حتى بدا لنا أن ذلك هو الأمر الطبيعي الذي لا مهرب منه، حيث يشكل المثقفون جزراً متناثرة في خضم بحر من العامة الذين لا يملكون من الوعي بذاتهم وثقافتهم إلا القليل. والسوداد الأعظم من الناس يسمون تارة بـ(الرعاع) وتارة بـ(الهمج) وتارة بـ(العامة).. وهكذا فإن عدم استطاعة المثقفين إعادة تشكيل عقول الشعب وترقية ثقافتهم كان له أوخم العواقب؛ إذ ما فائدة جيش من الأطباء، لا يجد مرضى يعالجهم، أو يثقون به؟ وحين يحدث ذلك، فإن الثقافة العليا تحرم من حقل نشاطها الأساسي، حيث تظل القضايا التي تسعى الصفة إلى خدمتها وتجنيد الأمة لها مهمشة، كما يهمنس سلاح لا يجد من يستخدمه. وقد أثبتت التجربة التاريخية أن كل قضية - مهما كانت عظيمة - لا يحمل مسؤوليتها السوداد الأعظم من الناس، لا يتم إنجازها على نحو صحيح، وكل حمل يتم خارج رحم الأمة، هو كالحمل الكاذب.

أما الصفة أنفسهم فإن عدم استطاعتهم مد جسور التواصل الثقافي مع عامة الناس، قد جعل كثيراً من بحوثهم وكتاباتهم ومؤتمراتهم غير ذي معنى، فهي كصيحة في واد، وماذا يمكن أن يفعله قائد محنك إذا انقض عنه جنوده؟!

أما الثقافة الشعبية، فقد لحقها من ذلك أعظم الضرر، حيث إنها حرمت من مصدر تطويرها الأساسي، وهو الثقافة العليا، وصار العجز عن مسيرة المستجدات الحديثة أبرز سماتها، بالإضافة إلى عجزها عن تنقية نفسها من مرذول العادات والتقاليد والانحرافات الفكرية والعقدية التي يولّدها تتبع الأيام والليالي. والمخيال الشعبي إذ يواجه أحداث الوجود وتوترات الاجتماع الإنساني دون عتاد فكري أو معرفي يظل عاجزاً عن التعامل معها على نحو سوي.

أبناء الثقافة العليا يتشفون - في الغالب - إلى حشد الناس لمشاهدة آرائهم وجهات نظرهم، كما أن أبناء الثقافة الشعبية، يتطلعون إلى الخروج من شرنقة ثقافتهم الفطرية البسيطة، إلا أن الذي كان يحول دون ذلك دائماً، هو فقد الأدوات التي يتم بها التلاقي بين الثقافتين على النحو المنجب المبدع، والجو الذي يساعد على ذلك. ولعلنا نرصد في هذا الإطار النقاط الآتية:

أ - لم يتتوفر على مدار التاريخ الإسلامي من المدارس والمعاهد والمحاضن العلمية ما يكفي لتعليم جميع الناس وثقفهم؛ فعلى الرغم من أن كثيراً من الدول الإسلامية، تفقّد اليوم نحواً من ربع ميزانيتها على الشؤون التربوية والتعليمية إلا أن نسبة الأمية ما زالت مرتفعة، حيث تصل في بعض الدول الإسلامية إلى ٦٠٪ وهي في أحسن حالاتها لا تقل عن ١٥٪ وهذا شأن الأمية الأبجدية. أما الأمية الثقافية والفكرية والمنهجية التي تشنل القدرة على التفكير الموضوعي، والقبض على الواقع وتنظيم ردود الأفعال، فإنها - مع الأسف - هي القاعدة، وهي الظاهرة الطبيعية، وما سواها استثناء، لا يجرح القاعدة، لكنه يؤكدها.

ب - لم يبذل أهل العلوم والتخصصات المختلفة ما يكفي من الجهد لتيسير علومهم ومعارفهم، وتقديمها بأسلوب سهل، يمكن معظم الناس من الوصول إليها، حتى إن ما اتبّع في التأليف من شرح للمتون والتحشية

عليها، لم ييسر المعرفة بمقدار ما كان يثيره من الإشكالات، ويوجده من الحالات العقلية والمماحكات اللفظية التي لا يهم أكثرها إلا أهل الاختصاص.

تبسيط العلوم، وتقريبها من المستويات الشعبية الدنيا، يعني توسيع قاعدة الفهم المشتركة، وإيجاد أرضية معرفية فكرية، يتشكل عليها تيار وطني مدرك لطبيعة التحديات التي تواجه المجتمع، ومدرك لسبل الخلاص منها. وعدم وجود هذا التيار سبب رئيس في ديمومة بعض المشكلات لدينا قروناً من الزمان دون أن نتشر على حل لها!

ج - ضعف الشهية للقراءة والاطلاع لدى أكثر الناس عامل آخر في مسألة الانفصام بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية؛ وكما قال أحدهم: ما فائدة معرفة القراءة والكتابة لشخص لا يفتح كتاباً، ولا يمسك قلماً؟ إنها لا تزيد على فائدة سيف لم يغادر غمده في يوم من الأيام!

هناك إحصاءات ودراسات عديدة، تؤكد أن أمة الإسلام من أزهد الأمم اليوم في القراءة ومعاناة شؤون المعرفة؛ وحين تطرح المسألة للحوار، فإنك لا تسمع إلا الأعذار الواهية والحجج المتهافتة. إن دور النشر بات تؤثر أن تطبع ألف نسخة أو ألفي نسخة من الكتاب الواحد، على الرغم من تزايد الناطقين بالعربية. وقد صار طبع كثير من الكتب يعد مغامرة، حيث يتضائل الإقبال على الكتاب يوماً بعد يوم، كما أن الأزمة الاقتصادية المتتجذرة في كثير من البلاد الإسلامية. جعلت تزويد المكتبات العامة بالجديد مما ينشر ينكمش على نحو مطرد!

د - بعض الذين تلقوا تعليمهم في الغرب، وبعض من تأثر الأفكار الغربية أساء إساءة بالغة إلى ثقة الناس بالصفوة، حيث إنَّ كثيراً منهم امتهن التشنيع على الثقافة الإسلامية، وضرب أصولها ومبادئها العليا؛ مما أগفل الوعي الشعبي منهم، وجعل الناس يضعون حولهم أكثر من إشارة استفهام. وبما أن الغموض، هو سيد الموقف عندنا، فإنه قد جرى تعميم ذلك

على كثيرين لا علاقة لهم بذلك - وهكذا فقد صار يُنظر إلى كثير من المثقفين والمفكرين والمحظيين على أنهم وكلاء مسؤولون ومرؤجون للفكر الغربي، كما أن حساسيتهم للرموز الدينية والوطنية ضعيفة؛ مما يستدعي الحذر والتوجس.

هـ - لا تتوفر لدينا في كثير من الأحيان الأجراء التي تساعد على التثاقف حيث إنَّ ما هو متاح من ممارسة النقد الاجتماعي والتعبير، لا يكفي لوضع النقاط على الحروف في مسائل كثيرة، مما يدعو الكتاب وصانعي المعرفة إلى التلميح والتورية وتسمية الأشياء بغير أسمائها... وهذا أوجد الكثير من حالات سوء الفهم لدى الناس، كما حرم الثقافة العليا من (التعذية المرتدة) التي تعكس تفاعل الثقافة الشعبية معها، و موقفها من طروحاتها وقضاياها!

إذا ما أردنا أن نجِّس المجتمع، ونصلح أبناءه في بوتقة ثقافية واحدة، فإن علينا أن نعالج هذه المشكلات معالجة جادة، وإنما لا يحق لنا أن نتوقع نمواً ثقافياً يكافئ التحديات والمشكلات التي تتکاثر بطريقة سرطانية، وتهدد مستقبل الأمة برمتها!

تطوير الثقافة :

تظل الثقافات في حالة من التغيير والتتجدد المستمر، لكن ذلك قد ينصب على الشكل، وقد ينصب على المضمون، وقد يذهب بهما معاً؛ فالاحتفاء بالضييف، وبالنجاح والفوز مستمر في ثقافتنا، لكن شكله تغير. أما الاحتفاء بختان الطفل - مثلاً - فقد ذهب شكله ومضمونه في بيئة إسلامية عديدة... وليس لدينا قاعدة حاسمة تحكم ذلك، ولكن يبدو أن الشيء إذا كثر ضعف شعور الناس به، ودخل في جملة المأثورات المملوكة - أحياناً - ولم يعد لإعطائه اهتماماً خاصاً معنى. وقل مثل ذلك في العادات والتقاليد المكبلة جداً؛ فإن الناس يحاولون التخفيف من غلوتها، فإن استعصى عليهم ذلك تخلصوا منها على نحو كلي.

ونظراً لكثرة العوامل التي تتحكم في تبدل النسيج الثقافي المعقد جداً، فإنه من الصعب التنبؤ دائماً بالأوضاع التي ستؤول إليها ثقافة ما، لكن الذي يعنينا في كل الأحوال ليس تطور الثقافة وتتجددتها، وإنما إبقاء ذلك التجدد داخل دوائر الوعي، وتحت مراقبته، فذلك هو الذي يضمن للثقافة أن تظل على صلة بأصولنا العقدية والفكيرية، كما يضمن أن تحافظ على القيام بوظائفها الحيوية في خدمة وجودنا الإنساني وأهدافنا الكبرى.

الثقافة - كما ذكرنا - هي التي تكون الوعي، وتنميه، وتمنحه أدوات عمله، لكن على الوعي أن يثبت على نحو مستمر أنه مرفف ومحرر من الواقع في أسر الثقافة، مهما كان شأنها، ومهما كان نقاوها ونفوذها. وهذا يعني أننا نثق في قدرة الوعي على تجاوز معطيات الماضي والحاضر، من خلال ما يستخلصه منها من دروس وعبر، ومن خلال ما يصدره على الحركة الاجتماعية من أحكام، ومن خلال ما يبلوره من معايير.

مهما رجعنا إلى التراث، ومهما راجعنا مفردات الحداثة والمعاصرة، فإننا لن نحصل على الكثير إذا لم يكن الهدف من وراء ذلك صياغة ثقافة جديدة، يتجلى فيها خير ما أنجبه الماضي، وخير ما يأتي به الحاضر. ومن هذا الأفق تمسي القيمة الحقيقة للثقافة كامنة في استيعاب خبرات الأجيال الماضية وتصفيتها، وفي تحطيم أغلال الاغتراب، إلى جانب تحرير الذات من تراكمات التطور العشوائي.

من المؤسف حقاً أن معظم ما يبذل من جهد تنموي في البلاد الإسلامية، لا يتمحور حول الشأن الثقافي بما هو شأن إنساني في المقام الأول، وإنما يتمحور حول تحسين عالم الأشياء والبيئة الطبيعية، حتى التعليم الذي يبدو دائماً عامل تطوير للثقافة، فإنه فقد الكثير من فعاليته، إذ أصبح يرسخ قيم الأنانية والتنافس والشكليّة والتحايل، والوصول إلى الهدف من أي طريق كان، دون الاكتتراث كثيراً بالقيود الأخلاقية.

حاولت (اليونسكو) - دون جدوى - لفت نظر واضعي الخطط التنموية

إلى ضرورة إعطاء بعد الإنساني والثقافي أهمية أكبر في خططهم الحضارية، فأعلنت عقداً للتنمية الثقافية، يقع بين عامي (١٩٨٨ - ١٩٩٧) وقد انقضى ذلك العقد دون أن نرى أية نتائج ذات قيمة في هذه السبيل!

نحن بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى أن نشكل طرقاً جديدة للتفكير في بعد الثقافي وانعكاسات المنتجات التقنية والجهود التنموية عليه، إذا ما أردنا للإنسان المسلم أن يظل الكائن المكرم بتسخير ما في الأرض جمياً له، والقائم بأمر الله، والمتواثب في تحقيق ذاته في معرك الحياة الصالحة...

لا بد من القول: إن الأنساق الثقافية على اختلاف ماهيتها، تحاول المحافظة على تماสكتها الداخلي إلى حد بعيد. ولهذا فإن كثيراً من التغيير الذي يطرأ عليها، لا ينبع من داخلها على مقدار ما يكون استجابة للمتطلبات الاجتماعية، والتغيرات المولودة من ظروف كثيرة ما تكون بعيدة عن أي نسق ثقافي. وعلى سبيل المثال فإن كثيراً من مناهج التعليم يتتطور اليوم، ليس بسبب تداعيات منهجية داخلية، ولا بسبب قناعات تفرضها طبيعة أي علم، وإنما تتطور بسبب تطور حاجات السوق؛ فهذا الإقبال الشديد على تعلم (اللغة الإنجليزية) لا يتم بسبب ما طرأ من معرفة بجمالها أو سهولتها أو كفاءتها التعبيرية، وإنما بسبب أن إتقانها صار شرطاً لنيل وظيفة في مؤسسة مرموقة، أو بسبب اتخاذها نافذة ثقافية على العالم.

وقد يكون هذا هو التفسير المنطقى لما نراه من بطء التجديد والتحديث في كثير من مناهج المعاهد والجامعات؛ فمناهج اللغة العربية وأساليب تدريسها - مثلاً - لم تلق العناية بها، لأن حاجات السوق لا تلح على ذلك، ولا تتطلبها.

التواصل بين الأهل والأرحام في المدن الكبرى صار اليوم ضعيفاً، وربما لا يلتقي بعضهم إلا في مناسبات متباudeة. وهذا لا يعود إلى تغير عقائد الناس أو مشاعرهم تجاه هذه المسألة، وإنما بسبب صعوبة

المواصلات، وضغط ظروف العمل، وبسبب ما توفر لكثير منهم من المسليات والملهيات داخل بيئتهم، مما جعلهم يصنون عالمهم الخاص بعيداً عن ذويهم وأصدقائهم.

ويمكن أن يقال مثل هذا القول في الكثير من المسائل الثقافية^(١).

هذا كله يعني أن تطوير الثقافة، يخضع لعوامل غير مباشرة، وبعضها يفرض فرضاً من خارج الحدود، مما أدى إلى صعوبة التعامل مع هذه المسألة وضاللة ما لدينا من خبرات حولها.

مسألة ثانية تتعلق بتطوير الثقافة، وهي أن الفصل بين ما نسميه عوامل داخلية وخارجية شيءٌ نسبي؛ فطبيعة ثورة الاتصالات الحديثة أنها تعمل على نزع الخصوصية المحلية عن أمور كثيرة جداً. وقد ورثنا عن حقبة الاستعمار عقلية (التآمر) ونحن إلى هذه اللحظة نعتقد أن تطوير ثقافتنا يتم الآن بسبب الغزو الثقافي الخارجي، متتجاهلين مسؤوليتنا الشخصية عما يحدث لنا، ومتتجاهلين حقيقة راسخة، هي أنها حين لا نحترم الحقوق الأساسية للناس، ولا نلبي حاجاتهم الملحة، فإننا نتركهم مكشوفين ثقافياً لكل المؤثرات الأجنبية، على النحو الذي نفعله حين ترك جرحًا غائراً في وسط ملوث لتعمل فيه الجراثيم عملها!

ملامح ثقافة جديدة:

ليس على وجه الأرض مكان مسكون يخلو من ثقافة، كما أنه ليس هناك ثقافة تحتاج إلى تغيير كلي، أو ثقافة تستغني عن التجديد والتطور. وإلى جانب هذا فإن الناس يعدون انتشار ثقافاتهم وانجداب الناس إليها انتصاراً لها ولهم؛ لذا فإن كل الحضارات الكبرى تقوم على ثقافات، تحمل

(١) لم يكن حلق اللحي مألوفاً في فلسطين المحتلة قبل الاستعمار الإنجليزي، وحين عمدت الشركات الإنجليزية إلى اشتراط حلق اللحي فيمن ستوظفه انتشر حلق اللحي إلى أن أصبح هو القاعدة.

في طياتها قابلية للانتقال عبر الحدود، وتجاوز البيئات المحلية، وذلك لما تتمتع به من معقولية ومنطقية عالية، ولما تحمله من أفكار ونظم، أثبتت نجاحها في توجيه طاقة أصحابها، وتحقيق نوع من الغلبة لهم.

وثقافتنا الإسلامية، تحمل في بنيتها كل خصائص العالمية لقيامها على الدين الذي ارتضاه الله - جل وعلا - منهجاً للبشرية فيما تبقى من حياتها؛ لكن المشكلة تكمن في كيفية تجريد هيكلها الرسالي من التلوينات المحلية والإضافات التي أنتجهها نزوع الناس إلى جعل الدين جزءاً من إطاراتهم الثقافي عوض كونه مهيمناً عليه. كما أن تعميم ثقافتنا، يحتاج أيضاً إلى وسيلة نشر، تتکفل بإيصالها إلى أبناء الثقافات الأخرى. ومع هذا فلا بد من القول: إن الانتصارات التي حققتها ثقافتنا الإسلامية عبر تأسيسها لحضارتنا الزاهية، لا تغنى في مسألة انتشارها اليوم إلا غناء رمزياً. أما العامل الحاسم في ذلك، فإنه يكمن في قدرتنا على المشاركة في الحضارة المعاصرة، ومدى مساهماتنا في إنجازاتها، أي بإثبات أن ما تملكه ثقافتنا من سمو وفاعلية ومرونة كاف لجعلها أساساً في تقدم الإنسان واستثمار طاقاته وحل مشكلاته

إذا ما أردنا أن نجدد في منظوماتنا وأنساقنا الثقافية، فإن علينا أن نكتشف الأنماط والصيغ الثقافية التي تلبي متطلبات الدين الحق، وتساعد في الوقت نفسه على جعل الإنسان المسلم يعيش عصره بكفاءة وفاعلية، أي تلك التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة. وهذا لن يتم إلا من خلال فهم عميق لثوابت الإسلام ومراميه الحضارية، وفهم عميق لمتطلبات النجاح في الصراع العالمي المعاصر. ولن يعنينا ذلك عن التحليل بالجرأة في تحديد الاتجاهات والسلوكيات التي أدت إلى تراجع الحضارة الإسلامية - بوصفها تجسيداً للثقافة الإسلامية - وإيقافها عن العطاء والنمو، إلى جانب تحليل عميق للمشكلات الثقافية المائلة اليوم، والتي تقف حجر عثرة في طريق تجديد بُنانا الثقافية على النحو المطلوب.

قد تحدثنا عن الكثير من التجديدات التي ينبغي أن نحدثها في حياتنا العامة، وبقي علينا الكثير مما يمكن القول فيه إلا أن الحذر من تضخم الكتاب يلجم القلم عن التمادي؛ فلنقتصر إذن على ذكر بعض الملامح والسمات التي نعدهما أساسية في ثقافتنا المعاصرة، وذلك عبر النقاط التالية:

١ - مرجعية المنهج الرباني:

المنظومات المعرفية والجمالية والفكرية والرمزية والمعيارية والتقنية... تنموا وتحرك في أطر واسعة جداً، وكلما تقدمت الأمة في مضمار الحضارة، اتسعت منظوماتها الثقافية كافة، وصارت أكثر غنى وتعقيداً، وأمست مراقبة تطورها أكثر صعوبة، حيث تكثر الاجتهادات، واحتمالات الصواب والخطأ، وتتعقد الموازنات وأشكال مدافعة الشور والمواقف منها؛ ويبديوعي مزيداً من القصور عن الإلمام بالواقع وتفاصيله، ويصبح اتخاذ القرارات الحاسمة بحاجة ماسة إلى معلومات ومعطيات أكثر.

هذا كله يرشح الثقافة للتفلت من القيود العقدية والأخلاقية، و يجعل إياض الناس للغايات الكبرى من وجودهم أقل وضوحاً. ومن وجه آخر فإن من طبيعة التقدم الحضاري أن يزيد في احتياجات الناس، ويضخم مكانة (الأشياء) في وجودهم، وهذه من جهتها، تقوم بالضغط على العديد من المنظومات الثقافية، ولا سيما المنظومات الروحية، والأخلاقية منها. ولهذا كله فإن من واجبنا إذا ما أردنا لثقافتنا ألا تفقد الاتجاه - أن نغطيها بالمعاني والأفكار والرموز المرتبطة بالفقه في الدين، وأن نعيد للإحساس بمسائل الحلال والحرام مكانته التي همشت لأسباب كثيرة، أهمها انحسار مناهج التثقيف بها في معظم الدول الإسلامية، بالإضافة إلى عدم توفر (الكتلة الحرجة) من الملتزمين بتعاليم الدين الحنيف على نحو دقيق؛ مما أضعف من تأثير النمذجة الاجتماعية في إرشاد الناس إلى الارتباط بالمنهج الرباني الأقوم.

نحن اليوم بحاجة إلى نشوء (فقه معاصر) لا يلحظ السلوك الفردي، ولا يهتم بالتفاصيل الدقيقة فحسب، وإنما تسع معاييره وأطره لتوجيهه الحركة الاجتماعية برمتها، كما يلتحق الأمراض الحضارية الأكثر تأثيراً في تفكك المجتمع وتخلفه. المتأمل في فقهنا المدون يلحظ عنایته الفائقة بالفروض العينية، أما اهتمامه بالفروض الكفاية، فإنه محدود، ولا يكاد يعرف الناس منها سوى رد السلام وغسل الميت. أما ما يتعلق بتحقيق الغلبة الحضارية، وسد الحاجات المتتجدة للأمة؛ فإنه ليس لدينا فيه إلا القليل. لا يكفي أن نوضح للناس ما عليهم أن يعملوه حتى ينجحوا في حياتهم، وإنما علينا قبل ذلك أن نعلمهم كيف يجعلون نجاحهم الديني مشروعاً ومتناهماً مع نجاحهم الأخرى، إلى جانب كونه جزءاً من جهد أمة ذات أخلاقية ورسالة وأهداف محددة.

إن جعل المنهج الرياني إطاراً لتفاعل الثقافي، سيؤمن تواصلاً ثابتاً بين الأجيال، كما يوفر الكثير من الطاقات التي تهدرها الأمم في المناجزات والمناحرات الثقافية التي تقع بسبب افتقارها إلى إطار ثقافي مطلق ومجمع عليه. ولا يعني هذا بالطبع قطع الجدل الثقافي، وإنما يعني توفير أرضية لجعله متوجاً.

٢ - التفوق نعمة وليس امتيازاً:

التفاوت بين البشر في الفهم والقدرة والشكل والمآل... مصدر تنوع، والتنوع يمنح فرصة للتكميل وفق مبدأ: «نختلف لنأتلف». والتقدم الحضاري لا يقضي على هذا التنوع، ولا يدnyi الناس من التوحد والتطابق، وإنما يزيد في الفوارق بين الناس: في المهارات والإمكانات والممتلكات... التفاوت يدفع إلى المقارنة، ويجعل كل شخص، يرى نفسه من فوق ما عليه الآخرون. ومن الطبيعي آنذاك أن يجد بعض الناس أنفسهم مالكين لبعض سمات التفوق، وأن يجد آخرون أن ما لديهم أقل مما لدى غيرهم.

القرآن الكريم يعرض علينا نماذج لردود فعل الناس على ما ابتلاهم الله

- تعالى - به من الخير والشر، والزيادة والنقصان؛ فهذا نبى الله سليمان ﷺ يرى عرش بلقيس عنده، وقد أحضر إليه في طرفة عين، فيبعد ذلك ابتلاء من الله - تعالى - بالنعمـة والتمكـين: «قَالَ اللَّهُ عِنْدَمُ عَلَّمَ مِنْ أَكْثَرِ إِنَّمَا إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقْرًا عِنْدَمُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَلْوُقَ مَا شَكَرُ أَمْ أَكْفَرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّهِ عَنِّي كَيْمٌ»^(١).

لكن مما يؤسف له أن معظم الناس لا ينظرون إلى جانب الابلاء، ويعدون ما لديهم من تفوق وتمكن شيئاً لا معنى له إذا لم يستغلوه في العلو في الأرض وقهـر عباد الله، وحصد المزيد من المنافع الخاصة؛ وهذا ما فعله نموذج الشـراء (فـارـون): «إِنَّ قَفْرَوْنَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّوَيَّبِينَ وَمَا يَنْتَهُ مِنَ الْكُوْزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنَّنَا بِالْمُصْبَكَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ»^(٢). وحين نصحـه قومـه بالـكف عن الفـسـاد في الأرضـ، واستـخدـام أموـالـه الطـائلـة فيـ الخـيرـ قالـ: «إِنَّمَا أُوْتِنـتـهـ عـلـى عـلـيـهـ عـنـدـيـ»^(٣).

ويقرر القرآن الكريم مرة أخرى أن من سنـنـ اللهـ فيـ الخـلقـ أنـ النـاسـ لاـ يـقـفـونـ - غالـباـ - منـ المـيـزـاتـ التـيـ يـمـنـحـهـمـ اللهـ - تعالىـ - إـيـاهـاـ مـوـقـفـ الشـاكـرـ الـمبـصـرـ لـتكـالـيفـهاـ وـبـعـاتـهاـ،ـ وإنـماـ يـتـمـادـونـ فيـ استـغـالـهـاـ إـلـىـ حدـ الـبـغـيـ والـطـغـيـانـ: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَأَهُ أَشْتَقَقَ»^(٤)، «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِيَبَاوِهِ لَبَغَّا فِي الْأَرْضِ»^(٥). الثقـافةـ الـمـريـضـةـ، تـقدـسـ التـفـوقـ وـالـنـفـوذـ،ـ وـتـعـرـفـ لـذـوـيـ الـقـوـةـ بـوـضـعـ اـسـتـثـنـائـيـ،ـ يـمـنـحـهـمـ الـحـقـ فيـ التـطاـولـ عـلـىـ الـضـعـفـاءـ،ـ وـخـرـقـ الـقـوـانـينـ،ـ فـيـتـحـولـ التـفاـوتـ الـيـسـيرـ إـلـىـ طـبـقـيـةـ،ـ تـمزـقـ أـوـصـالـ الـمـجـتمـعـ،ـ وـتـضـربـ عـلـىـ جـذـورـ التـضـامـنـ الـأـهـلـيـ،ـ فـتـصـبـحـ فـرـصـ التـكـاملـ وـالـتـعاـونـ مـصـدـراـ لـحـرـوبـ بـارـدةـ شـرـسـةـ وـظـالـمـةـ.

(١) سورة النـملـ: الآيةـ ٤٠ـ.

(٢) سورة العـلقـ: الآيةـ ٦ـ.

(٣) سورة القـصـصـ: الآيةـ ٧٦ـ.

(٤) سورة الشـورـىـ: الآيةـ ٢٧ـ.

(٥) سورة الشـورـىـ: الآيةـ ٢٨ـ.

وهكذا يتحول المجتمع المسلم إلى فتتين: فئة السادة المستغلين، وفئة العبيد المستغلين. مجتمع الأذلاء المقهورين، هو الذي يعطي الفرصة لولادة مجتمع المستكبرين المسلطين. ولا سبيل لاستعادة السواء الاجتماعي إلا عن طريق تجديد البنية الثقافية من خلال العودة إلى المفاهيم الأصلية للتفوق، وإحکام الرقابة العامة على استثمار التفوق، ليظل في الأطر المشروعة، وليدفع أصحابه جزءاً من عائداته إلى المجتمع الذي هيأ له، ويشر أسبابه. وما فريضة الزكاة إلا رمز لما يمكن أن نفعله في هذه السبيل. ومع هذا وذاك فنحن بحاجة إلى إرساء تقاليد ثقافية رفيعة، تمجد التضحية والبذل والعطاء غير المشروط، وتشيع قيم الزهد في المناصب والواجهة المصطنعة. وتاريخنا غني بالرجال الذين ضربوا أروع الأمثلة في استخدام تفوقهم وموهبتهم في تحقيق المصالح العامة والنفع الشامل.

٣ - الاحتفاء بالعدل:

قضية العدل من القضايا الكبرى التي استقطبت الكثير الكثير من جهود الأنبياء ﷺ وجهود المصلحين والمفكرين والفلسفه؛ لأن إقامة العدل تعنى وجود مجتمع متجاوز لعلاقات التوحش والبربرية، كما تعنى وجود وعي سياسي أنجب دولة، تؤسس قياماً، وترسي مبادئ للحياة الحضارية.

بالعدل قامت السموات والأرض، والعدل أساس الملك. والحقيقة أن شیوع العدل في أمة من الأمم، يعبر عن نضج جوانب عديدة في شخصيتها، كما أن من المستحيل تحقيق استقرار اجتماعي حقيقي من غير شعور الناس بأنهم يعيشون في مجتمع يمكنهم من الوصول إلى حقوقهم، وإلى الفرص التي يستحقونها.

إن الله - جل وعلا - وحده هو القادر على إقامة موازين العدل المطلق، أما البشر فإن رغباتهم في الاستحواذ على ما ليس لهم - من غير آية حدود - وقصورهم في إقامة الموازنة الصحيحة بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع، بين الحرية والمساواة.. يجعل إقامتهم للعدل دائماً منقوصة

ونسبية. ولم يظهر قصور البشرية في أمر كقصورها في هذا الشأن. ومن المؤسف حقاً أن يكون تاريخ البشرية هو تاريخ الظلم والعدوان، حتى كان ذلك أضحوى طبيعة ثانية لها، وصار الذين لا يعرفون إلا بالعدل نماذج شاذة، تؤكد القاعدة، ولا تلغيها. بل إن القرآن الكريم يقرر أن المبالغة في الظلم شأن إنساني خالص، لا يكاد ينفك عنه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَتَتْنَا أَنَّ يَخْتَلِفُوا وَأَشْفَقْنَاهُمْ مِنْهَا وَحَمَلْنَا أَهْلَكَنَّا إِنَّمَا كَانُوا طَلُومًا جَهُولًا﴾^(١).

تعقد الحياة الاجتماعية، وتتطور الأساليب والأدوات التي يمكن أن يستخدمها الظالمون، وتتطور مفاهيم المجتمع المتحضر: كل ذلك منح لقيمة العدل أبعاداً جديدة تتجاوز إلى أبعد الحدود العدل بين خصميين متنازعين، والقسم بين زوجتين، وأضحوى يتجلّى في الثقافات المعاصرة في العديد من الرموز والأفكار والنظم والإجراءات، نذكر منها الآتي:

أ - في كل مجتمع فقراء وضعفاء ذوو ظروف صعبة، كالآراميل والأيتام والعجزة... ومن العدل أن يلقى هؤلاء المساندة والحماية من استغلال الأقوياء والمتغذين، حيث يقيم الأقوباء - مهما كان عملهم ومستواهم - في العادة تحالفًا خفيًا، يحققون من خلاله مصالحهم على حساب الكثرة البائسة التي لا حول لها ولا طول. ولن يكون من العدل ترك علاقات الأقوياء بالضعفاء تتشكل وفق منطق السوق: (العرض والطلب) لأن الأرضية التي يقف عليها الفريقيان مختلفة تماماً. وحين نفعل ذلك فإننا نكون كمن يطلب من الأسماك الصغيرة أن تتعايش مع التماسيع في بحيرة واحدة تحت شروط سيئة. وإذا لم يكن هذا ظلماً فما هو الظلم؟!

في بلدان عديدة، تمنع الدولة تشغيل العامل بأقل من أجر محدد، يضمن له نوعاً من العيش الكريم. وفي بعضها توفر الدولة خدمات شبه

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

مجانية للعناصر الأشد فقراً وضعفًا في المجتمع. وهناك دول عديدة، تدفع للعاطلين عن العمل ما يلبي حاجاتهم الأساسية إلى أن يعثروا على العمل الملائم... ومعظم الشعوب الإسلامية، تسمع بهذا ولم تر، وإن كثيراً منها لن يراه في المستقبل؛ لأن الاهتمام بالضعفاء لم يدخل إلى الآن في قائمة الأولويات، بالإضافة إلى وجود ظروف اقتصادية صعبة في الدول الأشد فقراً، لا تمكن من مثل هذه الإجراءات.

ب - إن التطور الذي يفرضه التقدم العلمي والتكنولوجيا سريع جداً، وهذا التطور يدخل إلى حد بعيد بالتوازنات الاقتصادية والاجتماعية التي غير عليها مئات السنين في بيئتنا المحلية؛ وقد بات من السهل أن تتحقق بعض الفئات الاجتماعية قفزات نوعية في أوضاعها المعيشية والاقتصادية، على حين ينحدر السواد الأعظم من الناس ليعيشوا على هامش المجتمع، ويصبح همهم الأعظم محصوراً في تحقيق نجاح في صراعهم ضد الفناء.

ولذا فإن المهم ليس أن يرتفع دخل الفرد فحسب، وإنما المهم وجود نوع من عدالة التوزيع لذلك الدخل؛ حتى يكون هناك نوع من التقارب في الاستفادة من مجمل الناتج الوطني. وإن نمواً بطيئاً يُؤدي على توازن معقول في الأوضاع الاجتماعية أفضل بكثير من نمو سريع، يحول المجتمع إلى فتنيين: فئة متخصمة مبدلة، وأخرى محرومة من أبسط الضروريات.

الإسلام أباح للحاكم المسلم أن يتدخل - كلما كان ذلك ضرورياً - للمحافظة على التوازن الاجتماعي والاقتصادي في البلد من خلال إعادة هيكلة مرتبات الأعمال والوظائف، وتقليل الفروق في تركيبة الأجور، ومن خلال خفض الضرائب على الضروريات وزيادتها على السلع الكمالية والدخول الكبيرة، ومن خلال الحماية الجمركية للم المنتجات الوطنية التي توفر فرص عمل للأشد فقراً... .

كثير من الدول لم تعدل بين شعوبها على مستوى المناطق، حيث صبت أموالاً طائلة في قطاع التنمية الصناعية على حساب التنمية الريفية،

فاستفاد أهل الحاضر والمدن، وتوفرت لهم فرض العمل، وتأكلت البنية الريفية، فهجرها أهلها إلى المدن، وبات الوضع مزرياً!

العدل بين الأجيال الحاضرة والقادمة، مطلب حضاري إذ لا يصح أن نبدد ما لدينا من ثروات وإمكانات دون أن نحسب حساب مستقبل أطفالنا، ودون أن تأمل مليأ في حال البيئة التي ستركتها لهم؛ فبعض الدول سمحت بتدفن النفايات النووية في أراضيها، وبعضها استنفدت المياه الجوفية في أراضيها بسبب سوء الاستخدام، وعدم وضع ضوابط صارمة لاستهلاكها، وهناك

ج - من العدل أن يتمتع الإنسان بثمار جهده ومواته، وأن تناح أمام أبناء المجتمع الواحد فرص متكافئة للنمو الروحي والاجتماعي والاقتصادي . . . وهذه مسؤولية الدولة في المقام الأول. ولا يمكن أن يتم ذلك من غير احترام للقوانين المرعية والنظم السارية، ووجود شفافية تجاه استغلال السلطة والنفوذ للحصول على فرص غير مشروعة.

وطبيعة التنازع الاجتماعي مرهفة جداً حيال هذه المسائل، إذ ما أن تتجاوز فتنة أو جهة حقها في الفرص التي يمنحكها إياها النظام حتى تغري باقي الفئات والجهات بعمل مثل ذلك، وتكون النتيجة تحول المجتمع إلى مجتمع لصوص من النوع اللطيف المسالم المتألق؟.

قامت (سيرلانكا) بعمل جميل في هذا الشأن، يحكي ما يمكن أن تكون فيه دولة فقيرة قدوة لدول عظمى ومتقدمة حين منعت كبار الموظفين وموظفي القطاع العام وعائلاتهم من تملك أي مشروع صناعي أو تجاري، أو الحصول على دخل ثانٍ من وظيفة إضافية، حتى لا يتحول هؤلاء إلى طبقة مميزة جديدة، تتقاسم المصالح الاقتصادية مع أثرياء البلد!

د - ليست حاجات الناس اقتصادية مادية بحثة، فهناك تطلع دائم من الإنسان إلى تحقيق الذات وإثبات الوجود، وهو يتосل إلى ذلك بأمور كثيرة. ومع أن هناك نصوصاً عدة تحت المسلم على الإعراض عن

المناصب والوظائف القيادية إلا أن واقع الحال أن الجهاز القضائي لا بد له من رئيس، كما أن المدرسة لا بد لها من مدير، والجيش لا بد له من قائد وهكذا... وما دام الأمر كذلك فإن من حق كل من يأنس في نفسه الكفاءة لشغل وظيفة عليا أن يسعى إليها، بل إن قبول تلك الوظيفة قد يكون واجباً في بعض الحالات.

ولذا فإن من العدل أن يعيش الناس في ظل نظام، يتبع أكبر قدر ممكن من الحراك الاجتماعي وتدالو مراكز السلطة والنفوذ الرمزي والفعلي وفق معايير واضحة وعادلة وعامة. وقد كثر الحديث في أوساط المثقفين اليوم عن التعددية والديمقراطية والمساواة والحرية، وكثير المتحمسون لهذه المفاهيم والنظم، وحاوت شعوب كثيرة استعارتها من الدول الغربية، إلا أن النتائج تمثل موضوعاً محزناً للقراءة؛ لأن الشروط الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي شكلت بيئه ولادة مثل هذه المفاهيم والنظم ليست متوفرة في معظم الدول المتخلفة؛ فالتجددية وتدالو السلطة، وسيادة القانون، ليست مفاهيم سياسية، وإنما هي أسلوب حياة، يقوم على ركيائز ثقافية في المقام الأول. ونحن لسنا من يحرض على الشكليات، ولا على الأسماء الرنانة، وإنما على الجوهر، والجوهر في هذه المسائل، مكفول في النظام الإسلامي؛ وخلاصته منع تكليس السلطة، وتأمين تداول سلمي لها، وتمكين الأمة من مباشرة ولايتها على نفسها ضمن مؤسسات سورية ملزمة.

وأعتقد أن ضعف النشاط الروحي والأدبي والاجتماعي، جعل منافذ تحقيق الذات أمام الناس محدودة، وصار التنافس وبالتالي شديداً على المال والنفوذ بوصفهما طريقين ممكنتين لذلك، مما أوجد مشكلات لا حصر لها.

- التشيع بمعانٍ السُّلْمِ:

إن الذي يتأمل في مجلل التعاليم الإسلامية ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية، ينتهي بالضرورة إلى أن الإسلام يهدف إلى أن يصبح وجودنا

الاجتماعي بصبغة الألفة والمودة والتفاهم والمحاورة بالحسنى واحترام التعدد الثقافى، وهذا ما نلمحه على نحو واضح في النصوص التي تحت على التسامح والعفو والإيثار وحسن الجوار وصلة الأرحام، وكف الأذى؛ وتلك التي تت وعد المعتدلين على حرمات الدماء والأعراض والأموال. وهذا كله بسبب أن اجتماع الناس - بطبيعته - يولد توترات عديدة، ويهدى للعدوان والصدام.

حين يسود الاضطراب الاجتماعي، وتبدأ الحروب الحامية والباردة، يفقد المجتمع بعض معانيه، والتي من أهمها توفير السعادة القائمة على توحيد الانفعالات. كما أن الاضطرابات الاجتماعية - ولا سيما العنفة منها - لا تترك للمفكرين سوى القليل من الخيارات، بالإضافة إلى أنها تعزل آنذاك المنظرين وقادة الرأي عن التيار الاجتماعي العام، والقائم على اعتبارات غير عقلانية وغير حضارية، حيث النفوذ للأعلى صوتاً والأقل رشداً. حين يسود التعانف يخسر المجتمع أهم موارده، وهو نوعية العلاقة بين الأخلاق والفكر، وبين الموارد الطبيعية والمهارات التنظيمية والتكنولوجية، حيث يربك الوعي، وتنحدر الفعالية الإنتاجية إلى أدنى مستوياتها، وتشيع مسوغات تجاوز القوانين والنظم المرعية.

عصرنا هذا هو عصر (العنف) فغياب العدل الاجتماعي في أكثر الأحيان، ساعد على تكوين ثروات هائلة غير مشروعة، وهي من جهتها تشجع على الاستهلاك الأحمق، فارتفعت الأسعار، وصار على كل واحد أن ينافس أشد المنافسة، ليحصل على الضروري، أو ليحظى على المزيد من الشراء عن أي طريق، وبأية وسيلة، مع الاستعداد التام لأن يدوس كل من يجده في طريقه، وارتقت نبرة السحق والمحو من على وجه الأرض، والتحطيم والتكسير!

الدول الصناعية وجدت طريقة لتنظيم الحياة، وتفرغ بعض أثريائها

لصناعة الموت في الدول النامية، وحتى تستمر مصانع السلاح في حركتها الدائبة، فإن على الفقراء والمتخلفين أن يظلوا في دوامة من الحروب الأهلية الطاحنة، فلا يكاد بلد يخرج من طاحونة الحرب، حتى يدخل فيها بلد آخر، وصار ما ينفق على التسليح أكثر مما ينفق على الصحة والتعليم والبني الأساسية، كما هو الشأن في كثير من الدول الأفريقية. وقد عاد كثير من الدول النامية إلى الحياة البدائية التي تعد الحرب شرعتها ومركز التوازن فيها!

الظلم وتجاوز القانون والظروف المعيشية السيئة، ومحاربة الناس في عقائدهم ومس揆اتهم الثقافية، واستسلام بعض فئات المجتمع لغرائزها البهيمية، وعجز المجتمع عن استيعاب الأجيال الجديدة نفسياً واجتماعياً.... كل ذلك مما يهيج الوحش الراهن في نفوس كثير من الناس، فتسقط القشرة الحضارية الرقيقة، وتعود الهمجية كأول عهدها، ولكن بأسلحة أشد فتكاً وتدميراً!

ومما يؤسف له أن انتشار العنف واليأس من السيطرة عليه، قد دفع إلى إيجاد مصطلح جديد، هو (إرادة العنف) أي التعامل معه على أنه ضربة لازب، والتخفيف منه، ليس باقتلاع جذوره، ولكن بتشذيب زوائد، وتحويل براكينه! ..

ليس أمامنا كي نتشبع بروح السلم وثقافته سوى أن نعلي من شأن القيم التي أرساها ديننا الحنيف، في هذا الشأن، وأن نزيل الأسباب التي تولده - كما أشرنا - وذلك يتطلب التضحية من قبل كل الأطراف، وإراسء مفاهيم وتقالييد في الخطاب والتعامل، تحول دون اللجوء إلى العنف، وترشد إلى حلول عديدة قبل الصيرورة إليه. وإذا لم نفعل ذلك، فسيجد كل واحد منا نفسه في بؤرة من الصراع الأهوج الأعمى، حيث يكون المرء هو الجزار والضحية في آن واحداً.

٥ - التداول والتبادل:

التنوع الثقافي يمكن أن يكون نعمة حين تتخذ منه مصدراً للثراء وتبادل الخبرات والتعاون، والنهوض المشترك بالمصالح العامة. وقد يكون نعمة ومصدراً لخصومات وشقاقات لا تنتهي.

القرآن الكريم يؤكد على أن (التعارف) بما يحمله من معاني التبادل والتأثير والتأثر هو الحكمة من وراء تنوع أجناس الناس وأعراقيهم، وفي هذا يقول - سبحانه - : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذِكْرٍ وَأَنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَبَلَّ لِتَعَدُّوْا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَسِيرٌ﴾^(١). وقد حدد الله تعالى - لنا مقياس التفضيل بيننا، وحصره في (القوى) بمعناها الشامل، وبكل ما تستدعيه من مفاهيم وسلوكيات، وهو بذلك يوضح لنا الأرضية المشتركة التي يمكن للجميع أن يقفوا عليها؛ فـ(القوى) شيء لا يقبل التفاوض ولا التنازع؛ لأن مضمونها ومقتضياتها ترتكز إلى المبادئ العليا والأصول الكبرى التي لا تؤدي وظائفها إلا من خلال ثباتها والاتفاق عليها والإذعان لها. أما ما عدا ذلك من التلوينات الثقافية، كاختلاف اللغات والأعراق والأجناس والألوان والطبع والمواهب والاستعدادات، فهذه خصوصيات ثقافية - ذات أهمية نسبية، والاحتفاء بها والإعلاء من شأنها، لا يستند إلى شيء مطلق، فكل أصحاب لغة - مثلاً - يرون في لغتهم ما لا يراه الآخرون فيها. وهذا في النظرة القرآنية يقتضي أمرين :

الأول: ألا يعتز الناس بأنسابهم وأعراقيهم وألوانهم... ويعغالوا في تمجيدها، فيكون ذلك على حساب محك (القوى) كما أنه يعزلهم عن المحيط العالمي، ويصبح ثغرة في حياتهم، إذ ينمى فيهم مقاييس خاصة غير موضوعية، تعوقهم عن مسايرة ركب الحضارة. وهذا ما نجده لدى عدد من الشعوب النامية في آسيا وأفريقيا.

الثاني: ألا يرغم شعباً آخر على التنازل عن خصوصياته الثقافية

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

التي أشرنا إليها من أجل أن يعتنق عوضاً عنها خصوصيات غيره؛ لأن ذلك ليس له أساس من عقل أو دين. وهذا ما فعله المسلمون أثناء حركة الفتوحات؛ إذ لم يرغم أحد على ترك لباسه أو تغيير اسمه، أو التكلم بغير لغته، أو التخلّي عن عاداته، ما لم يصطدم ذلك بتعاليم الدين العنيف.

النتيجة المترتبة على هذين الأمرين، وعلى تحديد (التقوى) قاسماً مشتركاً، هي تنشيط حركة التبادل الثقافي ضمن الجماعة الواحدة والأمة الواحدة، وعلى مستوى العالم أجمع؛ فالقيم والعادات والتقاليد والنظم والأساليب الخيرة والنافعة، لا ينبغي أن تحتكر من قبل أحد، ولا ينبغي لأحد أن يرفضها، لأنها ليست من تراثه أو مألفاته.

وقد عزز الإسلام ذلك من خلال التوجيه بالاعتراف للآخرين - ولو كانوا أعداء - بما لهم من ميزات وخصائص حتى نتجاوز الحساسيات النفسية، ونكون مستعدين للاستفادة والاقتباس، وفي هذا يقول الله - جل وعلا - : ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَ هُنَّ فِي الْأَرْضِ مُقْسِمَةٍ﴾^(١). وقال : ﴿وَيَأْتِيَهَا الَّذِينَ إِيمَانُهُمْ كُوَثُرٌ وَلَا شَهَادَةَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً قَوْمٌ عَلَىٰ أَلَا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ وَلَا تَقْنَعُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجِنِّ إِذَا هُمْ يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

إن الشر المحسن نادر، كما أن الخير المحسن أيضاً نادر؛ ومهما اختلفنا مع القيم والأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، فإننا نعتقد أنه لا تقوم حضارة على باطل محسن، ولا شر خالص؛ ولا يمكن لشعوب عديدة أن تنخرط في مؤامرة علينا، كما لا يمكن أن تكون السلوكيات الغربية قائمة على المصالح الممحضة دون أسس أخلاقية؛ وهذا كله يفتح الطريق أمامنا كي نعتبر ما لا يتصادم مع ثوابتنا وقطعيات ديننا، مما يحقق مصالحنا أو يدعم أنشطتنا، مطلباً لنا، نبحث عنه، ونحرص عليه، بقطع النظر عن أي اعتبار آخر.

(١) سورة هود: الآية .٨٥

(٢) سورة العنكبوت: الآية .٨

إن التبادل الثقافي، لا يهدم الخصوصيات، ولا يعرضها للخطر حين يتم على الوجه المطلوب، ولا يمكن أن نصل إلى التوازن الثقافي من خلال التناحر والانقسام، وإنما من خلال الاقتباس والتفهم لما عند غيرنا.

التبادل الثقافي لا يعني انتقال المكونات الثقافية من شعب إلى شعب آخر فحسب، بل يعني إلى جانب ذلك أن نبحث عن توازن ثقافي، يحافظ على بنية الثقافة الإسلامية، ويسمح في الوقت نفسه بإشباع التطلعات الثقافية للمسلم المعاصر، أي أن نعثر على صيغ ثقافية ذات مضامين إسلامية ووظائف عصرية. وبذلك وحده يمكن لثقافتنا أن تصمد في وجه الثقافات الأخرى، وأن تحافظ على جاذبيتها، أي على وجودها واستمرارها، وعلى قدرتها على استيعاب المتغيرات والتتجددات المستقبلية.

٦ - الحسن الإداري:

لا يملك معظم الشعوب الإسلامية تراثاً رائياً في العمل المؤسسي؛ إذ إنَّ معظم أبنائها يعملون في الرعي أو الزراعة أو التجارة أو الحرف الفردية. وهذه جميعاً لا تحتاج إلى مؤسسات ترعى أنشطتها. وفي العصر الحديث تناهى دور العمل المؤسسي على خلفية انتقال بعض البلدان من بلدان زراعية إلى بلدان صناعية، كما أن كثافة الإنتاج اقتضت وضع نظم إدارية كثيرة من أجل تحقيق الجودة بأسعار منافسة، ومن أجل التخطيط للمستقبل، ومتابعة الخطط والبرامج التنموية... وإذا كانت الدولة الصناعية هي الدولة التي تصنع المصانع - وليس الدولة التي تستوردها - فإنه ليس في العالم الإسلامي دولة واحدة يمكن أن تسمى دولة صناعية إلا على نحو جزئي محدود. ولهذا فإن لدينا حاجة ماسة إلى أن ننمي في ثقافتنا الأفكار والمفاهيم والممارسات التي تعطي (الإدارة) مكانتها التي تستحقها في حياتنا الشخصية وال العامة.

نحن أمة لا تملك الكثير من المال - على خلاف ما يتوهם كثيرون - وإنما نملك العنصر البشري؛ فالعالم الإسلامي ينمو على نحو سريع؛ وهذا

يوجب علينا أن نتعلم كيف ندير الإمكانيات المحدودة التي بين أيدينا حتى نتمكن من تأمين المتطلبات الضرورية للأجيال الحاضرة والقادمة.

مفهوم (الإدارة) مفهوم غامض لدى كثير من الناس، كما أن المردود الذي يمكن أن يعود عليهم من ممارسة الأسلوب الإداري الأمثل في حياتهم مجهول لديهم. وهذا وذاك مما يدفع إلى الزهد فيما يطرح من أفكار تحض على تنمية القيم والمفاهيم والأساليب الإدارية. ولعلي أذكر هنا إشارات سريعة في هذا الشأن:

أ - إن الإدارة أسلوب استثمار ما هو متاح من موارد من أجل تحقيق أفضل نتائج ممكنة؛ فمن خلال النظم الإدارية المختلفة، يمكن للمرء أن يوقف وضعية الهدر في الوقت والجهد والمال، كما يمكنه حصر الموارد وتنميتها والتخطيط لاستخدامها، بالإضافة إلى رسم الأهداف القرية والبعيدة المدى.

إن أمزجتنا وأفكارنا وإمكانياتنا وتطلعاتنا متفاوتة، وهذا التفاوت، قد يستطيل ليصبح نوعاً من (التنوع الثقافي) يتسبب على نحو غير مقصود في ارتباكتنا وحيرتنا، فنجد مفاهيمنا حول الأعمال المشتركة متعارضة، كما أنه يتسبب في هدم الطاقة الحيوية الجماعية، حيث يشتتتها في اتجاهات مختلفة.

هنا تأتي مهمة الإدارة - بما هي وعي بتفاصيل المتاح، وتطلع إلى ما يمكن أن يكون - في صهر كل التنوعات الثقافية في خطة عمل جماعية، تخدم أهدافاً مشتركة. ولو أنها شطبتنا من تاريخنا الحديث الإنجازات الضخمة التي جاءت من جهود المؤسسات والشركات الكبرى، لأمكن أن نرى أن زماننا لا يختلف كثيراً عن الأزمنة السابقة.

ب - الأزمات الكونية المتلاحقة، أعطت أهمية استثنائية لكل ما يمكن أن يحسن الإنتاج، ويرفع مستوى حياة الناس، حيث يعني من شكل من أشكال البؤس أربعة أخماس البشرية؛ وكثير منهم - مع الأسف - مسلمون.

وإذا تأملنا في أحوالنا وجدنا أن ثمة فجوة كبيرة بين ما هو متوفّر الآن من إمكانيات مختلفة وبين النتائج التي نحصل عليها من وراء استخدام تلك الإمكانيات. وهذا على مستوى كل الأعمال والتخصصات، وفي كل المجالات. وما ذلك إلا لأن خبراتنا في إدارة مواردنا، ما زالت متواضعة، وببعضها يديرها بأساليب الآباء والأجداد، على حين حين يدير أبناء الدول المتقدمة مواردهم بخبرات العام الذي يعيشون فيه.

الإدارة الجيدة، لا تسير مؤسسة على مبدأ (ماشي الحال) وإنما تثور الطاقات الكامنة، وتحول ما لدى الناس من أفكار ومعارف وقيم وتقالييد إلى عناصر إنتاجية، تساهم في تقدمهم الشخصي، وفي تقدم البيئة والوسط العام. إذا طلبنا من الإدارة ذلك، وتحسّستها هذا الهدف، فإن تغييرات خطيرة سوف تطرأ على حياتنا الخاصة وأعمالنا المؤسسية.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تخيل ماذا يحدث لو أن مثفأً اكتشف نقاط القوة لديه، أو لو أن عاملاً اكتشف ما يمكن أن ينميه من مهارات، ولأي عمل يصلح، أو أن مؤسسة اكتشفت الفرص الذهبية التي أمامها، أو أن شركة استطاعت بفضل إدارتها أن تتحول من الخسارة إلى الربح... لا ريب أن النتائج ستكون باهرة. وإن وسليتنا لكل ذلك هي الإدارة. على مدار التاريخ كان للناس مبادئ ومعارف وتطلعات، لكن منجزات أكثرهم ظلت متواضعة، وذلك بسبب عدم وجود سياسات وبرامج تجمع بينها في رؤية واحدة ونسق واحد. وما زال كثيرون منا إلى هذه اللحظة يستخدمون (الخطابة) وأحاديث المجالس بوصفها وسائل لبلوغ الأماني، وتغيير الأوضاع!

ج - التخطيط ركن ركين من أركان الإدارة. وهو جهد ذهني معرفي، يبذله الإنسان في تصور الأوضاع والإمكانيات الحاضرة، ووضعها في برامج، يستهدف من ورائها مواجهة ظروف مستقبلية بغية الوصول إلى هدف محدد. والتخطيط بهذا المعنى عمل تحكمي قصدي، يراد منه الاستفادة من معطيات المستقبل، وتطويعها لإرادة الإنسان على قدر المستطاع.

المستقبل غيب، لا يعلمه إلا الله - جل وعلا - ولكن سنن الله النافذة في كل مجالات الحياة تعطينا مؤشرات لما يمكن أن يحدث. وحين يكون ما نخطط له في المدى القريب، فإن توقعاتنا تكون أقرب إلى التحقق.

في عصور إقبال الإسلام، كان وعي المسلم يتسع للجمع بين التوكل على الله - تعالى - والأخذ بالأسباب، والسعى إلى تحقيق أشياء بعيدة المنال. وكان القول المأثور: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». يشكل دستور الحركة اليومية لكثير من المسلمين. لكن حين دخلت الأمة في عصور الانحطاط عجز وعي كثير من أبنائها عن إقامة الموازنات الدقيقة، وبات حديث الشخص عن التخطيط وعن المستقبل يثير الشك في صدق إيمانه - ولا سيما في المرحلة القريبة الماضية - وتوكله على الله وثقته به؛ فصار التخطيط للمستقبل، يمثل جانباً من أضعف جوانب الحياة الإسلامية وصارت الأمة تأتي دائمًا بعد الحدث عوضاً عن أن تأتي قبله. وبات قصر النظر والتصرفات الاعتباطية، والحبرة تجاه المستجدات - علامات بارزة في أوضاع أكثر أبناء الأمة!

للخطيط دعائمه وعناصره التي تشكل بنائه الأساسية، وستتناول أهمها بياحاز. ويمكن القول: إن التخطيط يقوم على دعامتين، هما الأهداف والتنبؤات.

الهدف: هو الحصيلة التي يرمي الخطط إلى الوصول إليها. أما التنبؤ فهو عملية اختراق ومد لقرون الاستشعار في جوف المستقبل. ولكل منها قواعد وأدبيات تساعده على قيام عملية التخطيط على أحسن وجه.

إذا نظرنا في حياة الناس وجدنا أنها مليئة بالأهداف من كل الألوان والأشكال، لكن بعضها عبارة عن أمان وأحلام، ليس لها أي خطة في حياة أصحابها، وبعضها من التفاهة بحيث لا يستحق أي تضمينة، وليس له أي ركيزة في نفوسهم يمكن أن يقوم عليها. ولهذا فالهدف الذي نتحدث عنه هو هدف من نوع خاص، وله مواصفات خاصة، ومن أهمها:

- الإيمان بالهدف والاقتناع بضرورة تحقيقه أول شرط من شروط وجود هدف جيد. وكلما كان الهدف مرتبطاً بفكرة سامية، أو كان مشيناً لحاجة ضرورية، زادت درجة الاقتناع به. ويعد (الشهيد) النموذج الأرقى لما يفعله الإيمان بالهدف من بعث على التضحية.

وهكذا فقد يكون الهدف من التمكّن في داخل الإنسان إلى درجة أن يضحي بالحياة كلها من أجله. وتبهر قيمة الهدف في الأعمال الجماعية، حيث يستطيع المخطط المقتنع بهدف ما أن ينقل قناعته إلى غيره من المعاونين والمنفذين. وكثير من الأعمال يموت لأن قائد العمل لا يحمل من القناعة به ما يكفي لحشد الطاقات والإمكانات التي يحتاجها:

- وضوح الهدف وتشخيصه في مفردات محددة من السمات المهمة والضرورية لإنجازه، وينبغي أن نحاول صياغة أهدافنا في عبارات واضحة وسهلة وصريحة. علينا أن نحاول استخدام الأرقام فيها - كلما كان ذلك ممكناً.

ولوضوح الهدف وتحديده أهمية بالغة في وضوح الرؤية أثناء رسم الخطة، وخلال سيرها في طريق التطبيق، وعند إرادة قياس ما تم إنجازه من الهدف.

- لا بد أن يكون الهدف ممكّن التحقّيق، لأنّه يقع ضمن نطاق الإمكانيات الذاتية لمنفذيه، وضمن الإمكانيات والموارد المتوقعة. وقد رأينا كثيراً من الأهداف في حياتنا الخاصة والعامة، يظل حبراً على ورق، لأنّه أكبر بكثير من قدرات المخططين والمنفذين له، ولذا فالهدف الممكّن التحقّيق، هو هدف يقع ضمن حدود الطاقة الذاتية الحقيقية، دون جنوح إلى المبالغة والإغراء في الوهم، ودون الاعتماد على مصادر يشك في تعاونها في تحقيق الهدف، أو يشك في استمرارها حتى بلوغه.

ولا بد أن يكون الهدف مقبولاً ومنطبقاً في زمانه ومكانه وظروف تحقّيقه.

وإنما يتّأّتى له ذلك إذا كان متفقاً مع الخبرة التخصّصية المتراكمة في

مجاله؛ فنجاح متجر ضخم في صحراء - مثلاً - أو مصنع سفن في بلد ليس فيه بحار ولا مياه غير متقبل في الخبرة التجارية والصناعية السائدة. ولا بد بعد هذا للهدف من أن يكون منسجماً مع المثل والقيم والنظم التي يؤمن بها العاملون على تنفيذ الهدف، والمستفيدون من إنجازه أيضاً. وأخيراً فإن نسيان الهدف أمر وارد، بل كثيراً ما ننسى أهدافنا، ونشغل بأمور بعيدة عنها. ولذا فإن من المهم أن يبقى الهدف حاضراً في الذهن، وحاضراً على مرأى منا؛ وأن يذكر بعضنا بعضاً به. ويقتضي هذا الأمر أن تكون الحقائق المتعلقة بالهدف والمسار إليه واضحة أمام المنفذين. الدعامة الثانية للتخطيط هي (التنبؤ). ولا يعني التنبؤ الرجم بالغيب، أو إطلاق توقعات من الخيال والحدس دون أية معطيات، ولكنه يعني تلمس أحوال المستقبل بناء على معلومات ومعطيات محددة، يستخدمها تفكير منطقي ونظر ثاقب. ومهما كان لدينا من الخبرة والبراعة، فإن التوقع يظل توقعاً نظرياً لاعتماد صدقه على أساس ظنية، ونظرياً لأن تائج تخطيطنا، تظل خاضعة لتأثيرات عدد من النظم المفتوحة. ولكن مهما كان الشأن، فمن غير الممكن وضع أي خطة دون أن تنبأ بالظروف والمتغيرات التي قد تصاحب تفيذها. ولعلنا نلمح في هذا الصدد الأمور التالية:

- إن التنبؤ بالمستقبل، يرتبط بالماضي، فال التاريخ هو الوعاء الذي تصب فيه تجارب البشرية، وسنن الله - تعالى - هي التي تجسّر العلاقة بين الماضي والحاضر. والحدث الذي وقع فيما مضى، يمكن أن يقع ما يشبهه إذا تهيأت الظروف نفسها التي أحاطت به. وهذا معنىأخذ العبرة من التاريخ، والاستفادة من مدلولاته ومعطياته.

ولهذا فإن توقعنا لحدوث ظاهرة ما سيكون محتاجاً إلى التعرف على مسارها معتمداً على ما يجمعه من بيانات وإحصاءات عنها، وعن التذبذب الذي تعرض له ذلك المسار.

- يقوم المخطط بدراسة العوامل التي أثرت في سلوك الظاهرة في الماضي بناء على التحليل الذي أجراه المخطط للبيانات المتوفرة لديه؛

وذلك حتى يفترض أن تلك العوامل لو ظلت فاعلة في المستقبل، فما حجم التأثير الذي يمكن أن تتركه في الظاهرة المعنية؟

- يضع المخطط افتراضات مقبولة لما يمكن أن يحدث من تغيرات في هذه العوامل مستقبلًا، مستندًا في ذلك إلى التفكير المنطقي والخيال العلمي.

لا بد لنا ونحن نتنبأ بما يمكن أن تأتي به الأيام من ظروف وأحوال من أن نحذر من الواقع في التفاؤل الشديد أو التشاؤم الشديد. وربما كانت مشاورة أكثر من جهة خبيرة فيما توقعه مدعوة إلى تحاشي ذلك.

ويستخدم للتنبؤ بالمستقبل طريقتان:

الأولى: هي البيانات الإحصائية التي جمعها عن تاريخ ما نخطط لإنجازه.

الثانية: ما يستشعره أهل الخبرة والتجربة من أحاسيس نحو المستقبل، وما يقوم في نفوسهم من انطباعات حوله؛ ولكن لا يمكن الوثوق كثيراً بهذه الطريقة؛ لأن الأحاسيس، قد تصلح لبناء مواقف في قضايا فردية أو صغرى، أما حين يتعلق التخطيط بمستقبل منشأة أو قضية كبرى، فلا بد من معطيات وبيانات ملموسة، يصح الاعتماد عليها.

إن ما يمكن أن نذكره حول الحس الإداري، والاتجاه نحو البرامج لإنجاز ما نهدف إليه، كثير جداً، ولا يتسع المقام لأكثر مما قلناه، لكن ما أحب أن أؤكد عليه، هو أن الإدارة علم وفن، وعالم الإدارة مليء بالمفاهيم والأساليب التي ينبغي أن نلم ببعضها من أجل إدارة حياتنا الشخصية ومؤسساتها وشؤوننا العامة بالكيفية المقبولة والمتجهة.

إن هناك الكثير الذي يمكن تسطيره في مسألة تجديد الوعي الثقافي، من نحو الكفاءة والفعالية والسرعة والجاذبية والعملية...، لكن رغبتنا في عدم تضخيم الكتاب دفعت إلى عدم الإفاضة فيه، ولعل بحوث المستقبل تتکفل به. والحمد لله أولاً وأخراً على ما يسر وأعان، ووفق وهدى؛ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

- فهرس المراجع.
- فهرس الأفكار والمقولات العامة.
- فهرس الموضوعات.

www.alkottob.com

مراجع مختارة

- ١ - أصول الإدارة د. محمود عساف. القاهرة، مكتبة عين شمس، بدون تاريخ.
- ٢ - اغتيال العقل تأليف د. برهان غليون. بيروت، دار التنوير ط٢ عام ١٩٨٧.
- ٣ - بنية التحالف تأليف إبراهيم البليهي. الرياض، سلسلة كتاب الرياض، العدد السادس عام ١٩٩٥.
- ٤ - تحضير الطفل العربي لعام ألفين. تأليف د. محمد عماد زكي. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠.
- ٥ - التربية والتحدي (التجربة اليابانية) تأليف ميري هوايت، عرض وتعليق د. سعد مرسي ود. كوثر كوجك. القاهرة، عالم الكتب عام ١٩٩١.
- ٦ - التربية والتقدم الاجتماعي والاقتصادي للدول النامية تأليف جون و. هانسون ترجمة محمد لبيب التجيحي. القاهرة، دار نهضة مصر عام ١٩٧٦.
- ٧ - التربية والتغير الثقافي تأليف د. محمد الهادي عفيفي. القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ط٥ عام ١٩٨٠.
- ٨ - التنمية الثقافية تأليف لفييف من خبراء (اليونسكو). ترجمة سليم مكسور. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ عام ١٩٨٣.
- ٩ - جدلية التخلف والتنمية. تأليف د. غسان بدر الدين. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط١ عام ١٤١٣.
- ١٠ - حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي. بقلم مجموعة من الخبراء، ترجمة د. عبد السلام رضوان. الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عام ١٤١٠.
- ١١ - سر تطور الأمم. تأليف غوستاف لوبيون، ترجمة أحمد فتحي زغلول. بيروت، دار الفنايس ط١ عام ١٤٠٧.
- ١٢ - الصورة الذهنية تأليف فهد العسكر. الرياض، دار طويق ط١ عام ١٤١٤.
- ١٣ - العالم الثالث غداً. تأليف (بول هاريسون)، ترجمة مصطفى عبد الرزاق. الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٩٢.

- ١٤ - علم اجتماع المعرفة. تأليف د. نبيل رمزي. الإسكندرية، دار الفكر الجامعي. ط١.
- ١٥ - عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة. تأليف (جان ماري بيلت)، ترجمة السيد محمد عثمان. الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٨٩، عام ١٤١٥.
- ١٦ - الغرب وأسباب ثرائه تأليف (ناثان روز نبرج) وزميله، ترجمة صليب بطرس. القاهرة، دار الفكر العربي.
- ١٧ - قاموس (جون ديوي) مختارات من مؤلفاته جمعها رالف ن. وين. ، ترجمة د. محمد علي العريان. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٤.
- ١٨ - قضايا التجديد. تأليف د. حسن الترابي. الخرطوم، معهد بحوث الدراسات الاجتماعية ط١ عام ١٤١١.
- ١٩ - مختصر دراسة التاريخ تأليف (أنرولد توينبي) ترجمة فؤاد شبل. القاهرة، ط١ عام ١٩٦٠.
- ٢٠ - المدرك والغامض تأليف د. مختار بدر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥.
- ٢١ - مناهج التربية الإسلامية تأليف د. ماجد الكيلاني. بيروت، عالم الكتب ط١ عام ١٤١٦.
- ٢٢ - نقد السياسة. تأليف د. برهان غليون. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢ عام ١٩٩٣.
- ٢٣ - الوعي الذاتي. تأليف د. برهان غليون. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢ عام ١٩٩٢.

فهرس الأفكار والمقولات العامة

الصفحة	الفكرة
11	- الإنسان نتاج الثقافة، فهو عند مولده كائن خام، ولا تبلور إمكاناته إلا في بيئة مادية ووتجانة وثقافية ملائمة.....
11	- من الثابت أن الكائنات الحية بدأ بالفيروس وانتهاء بالإنسان، تسعى ياصرار إلى الاستقلال المتزايد، والحرية المتنامية من أجل سمو الذات. ..
12	- إن حاجة الوعي الماسة إلى الصور الذهنية، تجعله يشكل صوراً مبسطة ومحضرة - وأحياناً زائفة - لما يرغب في التعامل معه.
12	- الصور النمطية الجامدة تسهل عمل الوعي، لكنها تجعله متخلقاً عن الواقع السريع التغير.
13	- إن كثافة المنتجات الثقافية، وسرعة التغيرات الاجتماعية، قد جعلت الوعي قاصراً عن ترميزها، وإرسال الإشارات الملائمة للتعامل معها.
14	- إن أكثر ما يغير في وعي الإنسان هو افتتاحه على أحداث الحياة اليومية، ودلالات المنتجات التقنية، وما يحدث في العلوم والفنون المختلفة من تطورات.
15	- في كل الأحوال تكون طبيعة التغيير الذي يتعرض له الوعي متوقفة على طبيعة الأحداث والصور والظروف الطارئة، إلى جانب طبيعة التركيب العقلي للفرد والمجتمع.
15	- يتحكم (اللاوعي) في سلوك الإنسان البدائي، وسلوك المجتمعات التي فسدت نظمها ومؤسساتها المدينة.
15	- الإسلام بما هو بنية تمدنية، يطالينا دائماً بأن يسيطر وعيانا على أكبر مساحة ممكنة من مشاعرنا وسلوكياتنا.
17	- طبيعة عمل الوعي في الملاعنة بين الثنائيات ودمجها في إطار واحد، هي التي تعرضه للتشتت والانقسام على ذاته.

- إن كثيراً من الحلول التي نشدها لأزمة الوعي الإسلامي، لن نعثر عليها داخل ذلك الوعي، وإنما في تحسين الواقع، وعيش زماننا بكفاءة وفاعلية.
١٨
- الحديث عن تجديد الوعي يعني في النهاية الثقة في قدرة الوعي على تجاوز ذاته وتطويرها.
١٨
- مهمة الوعي الكبرى أن يشكل ذاته، وبيني استقلاله بعيداً عن سجن الواقع وخارج معطيات البرمجة الثقافية المحلية.
١٨
- من خلال اقتراب الوعي من الحقائق الموضوعية، وتفسيره للواقع، يغير في بنائه الخاص، ويجدد في الآليات التي يستخدمها، لكن لا يشرط في ذلك كله أن يسير في طريق النضج دائمأ.
١٩
- إن حركة التاريخ تأتي في كل يوم بابتلاءات جديدة، وتقدم للوعي رموزاً ودلالات تبعده في كثير من الأحيان عن استشراق المنهج الرباني الأقوم.
١٩
- سيكون من الخطأ الاعتقاد بارتفاع الوعي إذا هو أسلم نفسه لقوى العاشرة التي تصوغ الرؤى الثقافية لمعظم سكان الأرض.
٢١
- الفكرة الشفافة والخطة الذكية، لا تستمد مقومات نجاحها من بنيتها الداخلية، بمقدار ما تستمدها من السياق السياسي والاجتماعي الذي تعمل فيه.
٢٢
- لا يمكن للوعي - بما هو رؤية لما ينبغي أن يكون - أن يتجسد في جميع سلوكياتنا، إذ إن هناك اعتبارات عديدة تجعل ما هو ممكن عقلاً أوسع مما هو ممكن فعلاً.
٢٧
- العقل الإسلامي عقل أخلاقي.
٢٨
- لم يستطع الإنسان فهم الوجود، فعمد إلى تجزئته حتى يسهل عليه استيعابه، لكن الوعي كثيراً ما يجد نفسه عاجزاً عن تركيب ما فكره حتى يبصر وحدة الخلق.
٢٩
- الرؤية الكلية عبارة عن محاولات لرؤية الشيء في أبعاده المختلفة، وعلى مستويات عدّة.
٣٠
- لدينا نزوع غريزي إلى فهم الأشياء السهلة، واستسلامنا له أدى إلى تكوين بنيات فكرية عاجزة عن التعامل مع المسائل المعقدة.
٣٢
- مع أن لكل من الداخل والخارج فضاءاته المتميزة، إلا أن كلاً منها محكم بمؤثرات ومعايير عالمية، ويتحرّك في إطار شبكة علاقات دولية واسعة.
٣٣

- الرؤية الكلية تساعدنا على رؤية الوضعيات المختلفة للشيء الواحد، ففي المجال الحضاري قد يكون الشيء سبباً ونتيجة في آن واحد. ٣٦	- الرؤية المتعددة توفر نوعاً من التوازن العقلي، وتحسن سوية المقارنة. ٣٨
- كلما اتجهنا نحو الحديث في الفرعيات، قلت الأدلة، وتشتبك الرأي، واتسع مجال القول. ٣٨	- تفكيرنا بواسطة حصيلتنا الثقافية، تجعل عقلانيتنا، أفراداً وجماعات، لا تتمتع بسمة الإطلاق. ٣٩
- يعني (النقد) وعي الوعي لذاته، وقدرته على تجاوز النماذج الشائعة، والعودة إلى الأصول والأهداف الكبرى. ٤٠	- البناء الفكري بناء هش، ولذا فإنه يحتاج دائماً إلى رعاية وحياطة؛ والنقد هو الذي يساعد على تجديده ودوام توهجه. ٤١
- إن النقد لا يحيا إلا بالنقد، ومجادلة الفكر بالفكرة والطريقة. ٤٢	- القصور البشري هو الذي يعطي المشروعية للنقد والمراجعة والتصحیح. ٤٢
- الخيال قد يتبع لنا ارتياح آفاق الممكن، لكن الذي يكشف احتياجات الحركة، هو الحركة ذاتها. ٤٣	- كثيراً ما يغيب عن أذهاننا أن لكل عمل أسلوبه الفني الخاص؛ ومن غير ذلك الأسلوب، ستكون فائدة الحماسة محدودة. ٤٣
- سيطرة العاطفة، دفعت كثيراً من الناس إلى استخراج نتائج عامة من معطيات جزئية. ٤٤	- إن كثيراً من العبارات المحكمة الصياغة، لا يقصد أمام النظر المتمعن، لكنه يمارس دور المخدر في إيقاع الوعي عن ممارسة التحليل. ٤٥
- اكتشاف السنن الربانية، لا يتم على نحو مبئس ومتعسف، وإنما ضمن سياقات يبيها الوعي، وتنميها الممارسة. ٤٦	- إن بعض صور نفي احتمال الخطأ عن الأشخاص آخذة في التوطن في بعض بلاد المسلمين على نحو مسرف في التطرف، بحيث لا يجرح كبراء العقل فحسب، وإنما يعكر صفاء التوحيد. ٤٧
- إن طبيعة اشتغال الذهن بالمعلومات الواردة إليه، تسبب له بعض الأضرار والمؤثرات السلبية في منطقته وطلاقته، ولذا فإن عليه أن يحمي نفسه من نفسه. ٤٨	

الصفحة	الفكرة
٤٩	- تكتسب الحقائق العلمية صلابتها من كونها صماء عمياً قابلة للاستخدام في الخير والشر.
٤٩	- تحمل الفلسفة دائمًا المسحة الإنسانية والشخصية؛ ولذا فإنها تحتمل الخلاف والتباحث والاتجاهات المذهبية.
٥٢	- لا بد للخيال من أن يتمدد على سجين الخبرة، مهما كانت عظيمة، ولكن عليه أن يبقى قريباً منها، وضمن مجالها.
٥٢	- معظم انجازات العلم الكبرى ظلت مدينة لجرأة الخيال، واختراق طرق التفكير القديمة.
٥٢	- إنسان العصر الحديث مشرق الوجه مظلم الروح، كثير الذكاء، قليل العقل.
٥٣	- العقل في عمق ثقافتنا، لا يعني القدرة على الاكتشاف، بمقدار ما يعني طاقة جيدة على تحقيق التوازن الشخصي، وتوازن المرء مع بيته.
٥٤	- هشاشة البنى الفكرية لدى معظم الناس، وسيطرة العواطف عليهم، مما اللذان جعلنا لا نملك ما يكفي من القدرة للوصول إلى الحقيقة.
٥٥	- حين قامت حضارة الإسلام الزاهية، تحول مركز السلطة في حياة المسلمين من (القوة) إلى (المعرفة).
٥٦	- العلم اليوم ليس شيئاً موازياً للمال، كما كان الشأن في الماضي، وإنما هو مصدر للمال والثروات العظيمة.
٥٩	- العلم إذا لم يكن مؤطراً بعقيدة صحيحة، ومتزامناً في عمله مع نظم سياسية وأخلاقية جيدة، فإن قدرته على النهوض بالحياة، ستكون محدودة.
٥٩	- إن المعرفة التي لا نعرف لماذا نكتسبها تكون عرضة للتشويه المستمر.
٦٠	- إذا امتلكنا الإطار العلمي الصحيح، فإن وعينا يكون قادرًا على الانتقال من مقدمات ناقصة إلى نتائج مناسبة ومقنعة.
٦١	- إن الأطر المعرفية التي تمجد النجاح الدنيوي، لا تستطيع أن تلامس البنية العميقية لذاتية الأمة.
٦٢	- إن المقوله الواحدة، تكون ذات وقع متعدد بحسب النظام الرمزي للذين يتلقونها.
٦٢	- إن المعلومات التي لا نستطيع دمجها في مبادئ ونظم ونماذج عامة، لا تجدد سوى جزء يسير من الوعي.

- بات من الصعب اليوم الاقتناع بأن النمو الاقتصادي والتقدم التقني، يمثلان هدفين واضحين ومستقلين بذاتهما.	63
- بعض الناس يرى أننا لن نجد طريقاً للخلاص مما نحن فيه إلا عبر انهيار الغرب، لذلك يجعل دينه الحديث عن ذلك.	65
- إذا كان وعي الإنسان عرضة للكثير من التغير، فإن جوهره أقرب إلى أن يكون ثابتاً.	66
- هناك اعتقاد متزايد بأن اكتشاف أنظمة المعنى المتصلة بالجوهر الإنساني، سيجعلنا قادرين على تلمس التوازن الأعمق لوجودنا الكلي.	67
- النظام اللغوي نظام قاصر بطبعه، ومدلولاته كثيرةً ما تكون واسعة وغامضة، وتتجسد她在 في النظم والواقع هو الذي يمنحها التحديد.	72
- لكون الهوية لا تتضح إلا من خلال تجسيداتها السلوكية، فإنها تظل مشروعأً تحت التأسيس، وليس هناك نقطة ما يكتمل عندها إنجازها.	72
- إن دخول الأمة في مرحلة التراجع الحضاري، سوف يعني الكف عن تجديد الهوية، وبعثها وإعادة إنتاجها.	73
- الفتنة الثقافية عبارة عن فقد الأمة للقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، والعجز عن اتخاذ القرار في المسائل الكبرى والمصيرية.	74
- يمكن أن تقرر أن درجة من الشعور بالدونية، وانسداد الآفاق لا تكاد تفارق أيام هوية.	74
- إن حل أزمة الهوية لن يكون إلا من خلال إعادة تنظيم حياتنا الشعورية والأخلاقية والعقلية في ضوء المنهج الرباني الأقوم، ومن خلال شروط أخرى	74
- من نقائص الوعي البشري أنه يميل دائماً للتعامل مع الظواهر المطردة وال مباشرة، ويهمل المسائل الصعبة والغامضة.	76
- إن الوعي يدرك القيم من خلال تجسيداتها في سلوك الناس، وهذا هو الذي يجعله يتعرف عليها على أنها أشياء نسبية.	78
- المعيار الأخلاقي في نظر الناس، ليس مطلقاً، كما قد يتواهم، بل هو معيار يتمتع بالنسبة، ويختضع في صرامته لمعطيات الظروف والأحوال المختلفة.	80
- إن الكرامة والحرية ليست شعارات ترفع، بمقدار ما هي نواتج للخروج من عالم القهر والضرورة إلى عالم الخيارات المتعددة.	81

- كان وعينا بحاجة بين الفينة والفينة إلى صدمة كي يفيق من سباته،
٨٢ ويستعيد وظيفته في بناء الحياة الجديدة.
- سيكون من الواجب علينا أن نحاول ترجمة ما نتحققه من تقدم عمراني إلى
٨٣ تقدم خلقي مدنى، تكون الأولوية فيه لمعانى الإيمان والنمو الداخلى.
- كل تجارب الأمم ناطقة بعمق استخدام القوة والنظم في تسيير الحياة
٨٣ العامة، ما لم تكن مرتكزة على أساس من معتقدات الناس وأخلاقهم.
- فهم كثير من المسلمين (الفردية) السائدة في الغرب على أنها تحلل من
٨٩ الالتزام نحو الآخرين.
- لا شيء يغرى بالانحراف كالانحراف نفسه.
- حين يستمر الهروب من أداء الواجب، فإن الوعي يتبع له ما يغطيه من
٨٩ فلسفات وتنظيرات قائمة على المزيد من الرضوخ للواقع السيء.
- القصور البشري بكل مدلولاته يكتنف علاقة المبدأ بالوسيلة، فيقضي بها
٩٠ على استعلائه، ويجعلها إلى سجن له، بل كثيراً ما يجعلها تحل محله. ..
- في عهود الانحطاط، يسيطر على حس الناس المباشر والمحسوس والقريب.
- في حالة الإقبال الحضاري تملأ الفجورات القانونية بالرحمة والتسامح
٩١ والعفو. أما في حالة التدهور، فإنها تملأ بالعنف والقوة الغاشمة
والتهديد.
- إن من طبيعة الانحطاط أنه يهمش النبل والنبلاء، ويتيح للمتوحشين قوة
٩٢ إضافية.
- في زماننا هذا صار المهم تحقيق الإجماع الشكلي بقطع النظر عن
٩٣ مضمونه؛ إذ المطلوب تسهيل الأمور ولو عن طريق التلفيق.
- في زمان التخلف يقدم الذي يمنح الولاء على الأ��اء حتى يؤدي وظيفته
٩٥ في استمرار دوران العجلة نحو الخلف.
- من شأن المصلحين العظام أنهم يتخذون دائمًا من أمجاد الأمة ورمزياتها
٩٦ القائمة رأس جسر للعبور نحو ما هو مطلوب.
- إن التاريخ لا يتحرك، ولا يتتطور إلا بسيطرة عالم القيم والأخلاق على
٩٦ سلوكيات الناس وموازناتهم في قضاء حاجاتهم.
- لا يعكس البناء القيمي صفاء العقيدة الإسلامية إلا إذا تم في ظروف
٩٨ تشجع على الاستقامة الخلقية.

الفكرة	الصفحة
- العيش على هامش الحياة كثيراً ما يكون مصدراً للتحلل الذاتي.	98
- إن النجاح الذي ينخلع من الإطار الاجتماعي، أو الذي لا يتم إلا بذلك الانخلاع، لا يورث صاحبه سوى مشاعر القلق والاغتراب وتشتت الجذور.	99
- إن الدنيا - على اتساعها - ستظل ضيقه حتى نصلها بعالم الآخرة الرحيب.	100
- الشعار الذي يجب أن نستلهم منه إدارة الصراع في داخلنا، هو: الكرامة فوق القوة، والذاتية فوق الملكية.	100
- تعني (الحكمة) على نحو أساسى تساوى معتقدات الشخص وتصرفاته مع أحكام العقل، وتناسبها مع الخبرات والمعلومات المتوفرة.	101
- ستكون الكفاءة والأهلية والريادة أهم الحصون التي يتحصن بها المرء من ويلات (العزلة) ونظام التجارة الأعمى الأصم.	102
- قلما ينفع التوجيه الأخلاقي في وسط فقير بالرجال العظام الذين يجسدون القيم الرفيعة في سلوكهم الخاص.	103
- لم يختبر الوعي البشري النقد الثقافي والاجتماعي إلا من أجل أن يؤكّد لنفسه أنه يدرك الفرق بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون.	107
- الظواهر الكبرى تستعصي دائمًا على التفسير بسبب أو عامل واحد.	109
- من المأثور أن تعايش الأمم وهي في قمة ازدهارها بعض أنماط التخلف في بعض منظوماتها الثقافية، والأخلاقية.	113
- سيكون من البراعة النادرة أن ندرك نقاط القوة في الكيان المنفك المحطم.	113
- إن الأمة قد تربّع أرضاً ثابتة لأفكارها ومبادئها في نفس الوقت الذي تخسر فيه عسكرياً، أو تتفكك سياسياً.	114
- إن الحضارة الغربية الحديثة تمزج بين أعلى درجات التقدم والرقي وأعلى درجات الانحطاط والتخلّف.	114
- من أخطر المشكلات التي تواجه الوعي الإنساني قابلته الشديدة للوقوع في أسر اللحظة الحاضرة والمعطيات الجاهزة.	115
- حرص القصص القرآني على أن يلقي في روح المسلم أن رسالات الأنبياء ﷺ تملك طاقة الانتصار والغلبة، مهما كانت فداحة الخطوب التي تواجهها.	116

- إن القرآن الكريم يعلمنا أن الكروب والشدائد تواري في داخلها نوبات للرخاء والتقدم ١١٦
- قليل أولئك الذين حاولوا فهم النصوص التي تدل على حتمية التراجع الحضاري في إطار التكليف الشرعي، وفي إطار رؤية شاملة لتلك النصوص ١١٩
- ١٢٠
- إن الأزمات تمنحنا الفرصة للمراجعة والنقد، ولوم النفس على ما كان منها ١٢١
- إن عيش الناس من غير أزمات وظروف معاكسة كثيراً ما يؤدي إلى انحطاطهم ١٢٢
- من المؤسف أن تجربتنا التاريخية تثبت أن اتساع العمran كان غالباً مصحوباً بانخفاض درجة التدين والالتزام ١٢٣
- إن أهم ما يحتاجه التقدم هو اتخاذ القوى الروحية والمعنوية أساساً للنهوض والتغيير ١٢٤
- ١٢٤
- القوى المعنوية تصنع دائمًا المفاجآت لما تمتلكه من قدرة على تجاوز الحسابات ١٢٤
- إذا استخدمنا ما لدينا من إمكانات مادية بعيداً عن القيم والأطر المعنوية، فإن الإنجازات ستكون فارغة، وسيستفغ بها عدد محدود من الناس ١٢٥
- ١٢٥
- ١٢٥
- جوهر التقدم عبارة عن سلسلة من الإجابات على أسئلة كبرى، تشكل في مجموعها امتحان التاريخ لمجتمع ما ١٢٦
- ١٢٦
- الأسئلة التي لا نجد لها جواباً لا تظل خاملة على حالها، وإنما تأخذ في الاتجاه نحو الصعوبة ١٢٦
- ١٢٦
- الأجروية على أسئلة التاريخ ليست موجودة عند فئة بعينها، وإنما هي إشعاعات المشروع الشخصي والبرنامج اليومي لكل واحد من المسلمين ١٢٧
- ١٢٧
- سيكون من الخطأ الفادح الظن أن مجرد ضخ الأموال في السوق، أو توفير فرص العمل سيتيح عنه نمو روحي وعقلي وقيمي؛ لأن الطريقة التي نشبع بها الحاجات، لا تقل أهمية عن طريقة الإشباع نفسها ١٢٨
- ١٢٨
- إذا ما أردنا لأنشطتنا أن تستمر وتكون متجدة، فعلينا أن نجعلها دائمًا في إطار من المشروعية والاعتدال ١٢٩

- إن إيماننا أن لكل شيء ثمناً، يجعلنا نحترم طموحات الآخرين، وألا ننحصر من تحقيق مصالحتنا مصدرًا للعدوان على العباد، وسلب الحقوق. .. ١٣٠
- إنه ما التقى قوي وضعيف إلا كان القوي هو الأكثر استفادة من ذلك اللقاء. .. ١٣٢
- عالم البداوة هو عالم الضرورات المعزول تقريباً عن المرفهات والكماليات. ١٣٣
- كلما أوغل الناس في الحضارة أخذت معالم الحياة تتوضّع بالمساحة الأنثوية أكثر فأكثر، وازدادت نفوذ المرأة. ١٣٣
- الطموحات في البداية ضعيفة؛ لأن الخيارات والبدائل المتاحة محدودة. ١٣٤
- ومدى ما يصل إليه خيال الواحد من سكانها قصير. ١٣٤
- الشعور بالإحباط نتيجة شدة التفاوت المعيشي في المدن، هو المحرك الخفي للرغبات في مجتمعات الاستهلاك. ١٣٤
- في المدن يكون إحساس الناس بالأزمات، وتطبعهم إلى المستقبل أشد، لكن إحساس الناس بالأمن الاجتماعي يكون أقل؛ فالخوف مما تأتي به الأيام هو سيد الموقف. ١٣٥
- في مجتمع المدينة المنورة كانت الأهداف الكبرى واضحة، وسيطرتها على توجيه حركة الحياة شديدة إلى درجة تسبق المسلمين - حتى الأطفال منهم إلى نيل الشهادة. ١٣٦
- أشّق شيء على الإنسان أن يلتتصق بالهدف العظيم الذي يولّد نظاماً للحياة، يصبح معه للأنشطة المختلفة معنى ومنطق. ١٣٧
- المعدات الحضارية باتت كاملة، لكن أهداف هذه الحركة المحمومة لبني البشر مشوّشة وغامضة. ١٣٧
- في المجتمع المتواحش تقوم العلاقات على القوة والقهر؛ حيث يعد كل واحد من أفراده نفسه ليكون المفترس أو الفريسة. ١٣٧
- الإنسان المتمدن هو الذي يستطيع السيطرة على سلوكه وزواجه، والوقوف عند الحدود التي تبدأ عندها حقوق الآخرين. ١٣٧
- في المجتمع الذي أضع مدينته تكون النظم والقوانين هي الإخراج النهائي للقوة، حيث يكون الأقوياء هم الأكثر استفادة منها. ١٣٨
- لدى الأمم المتدهورة قوانين ودساتير، لكن لديها أيضاً بجوار كل قانون مكتوب قانون غير مكتوب يمثل الوجه، ويمثل القانون المكتوب القناع. .. ١٣٨

الفكرة	الصفحة
- حين تكون الثقافة عقيمة ومجدبة، فإن أهلها يدخلون الحضارة من باب الاستهلاك فتهلكهم، وتحولهم إلى مخلوقات عجيبة.	١٣٨
- من المؤسف أن أكثر المسلمين، يعاني من تشتت بين مطالب هويته ومطالب المعاصرة، وما ذلك إلا لأن المدينة التي تليق بنا لم نبلغها بعد.	١٣٩
- التمدن هو أهلية الإنسان لاكتشاف الإمكانيات الحضارية واستثمارها في تحقيق أهدافه الكبرى.	١٣٩
- حين ذابت روح المدينة الإسلامية، تحول المسلم المبدع المقدم إلى مسلم منكمش على ذاته، مرتكب في تفسير أحوال عصره.	١٤٠
- المدينة الحقة تصنع الحضارة، لكن الحضارة لا تصنع المدينة، بل قد تدمرها، وتفكك منظوماتها.	١٤٠
- من أهم سمات الإنسان المتمدن أنه يبحث باستمرار عن طرق مشروعة وغير عنفية لتجاوز التعارض بين مصالحه ومصالح الآخرين.	١٤٠
- المدينة اكتشاف للذات واكتشاف لإنسانية الإنسان، وتقدير لجهوده، وتأسيس للثقة بقدرته على السمو.	١٤١
- إن مسيرة التاريخ تبدأ في اللحظة التي تصبح فيه تنمية الإنسان ذات أولوية مطلقة.	١٤٢
- إن بإمكان الماضي أن يكون مصدراً لتجديد وعيينا، كما أن بإمكانه أن يكون مصدراً للبلبلة وارتباكه.	١٤٧
- إن كثيراً مما ورد إلينا من الماضي يجذب إلى أن يكون ملتبساً وغامضاً، وما ذلك إلا لأنه على صلة بالإنسان.	١٤٨
- المؤرخ لا يجعلنا في الحقيقة نعيش الحدث السابق، بمقدار ما يحاول إعادة تركيبه وإنشائه من خلال وسيطه المعرفي.	١٤٨
- المعطيات التاريخية المتعارضة في دلالاتها، هي التي تحمل المؤرخ على وضع ما ينقله في إطار نظام ما من (المعقولية التاريخية) ومن فضاء روئيته الخاصة.	١٤٩
- إن البناء التاريخي هو دائماً بناء انتقائي.	١٤٩
- لا بد لقارئ التاريخ إذا ما أراد تجاوز عقایل عمل المؤرخ من أن يكون له دور ما في صياغة الواقعية التاريخية.	١٥٠
- نحن باعتبار ما شيء من الماضي، ومظهر من مظاهر تحققه. ورؤى السنن هي التي تضفي نوعاً من التنظيم والمنطقية على أحداث التاريخ.	١٥٠

- إن مما تعلمناه من التاريخ أن وعي الناس متحرك، فما يهتمون به اليوم قد يهملونه غداً. وما يعدونه اليوم منفراً، قد يستسيغونه من خلال الإلـف والعادة.....	١٥٢
- الأفكار العظيمة قليلة الانتشار والتأثير؛ لأن تأثير الناس بمتطلبات غرائزهم وحاجات أجسامهم أكبر بكثير من تأثيرهم بالفكر المجرد.....	١٥٢
- إن الأحداث المبترطة الصلة عن إطاراتها ومناسباتها تظل مستغلقة، فهي أشبه برقم ليس له منظومة عددية.....	١٥٢
- إن من طبيعة الانبهام أن يسمع بعدد كبير من التأويلات الفجة.....	١٥٣
- إن من شأن التخلف أن يربك الوعي، ويجعل حده تجاه التراث واهياً .	١٥٣
- الانطباع الذي يخرج به من يقرأ للكثير من الكتاب المتغيرين أن تاريخنا كان مختصاً بالانكسارات والتفاقص، وأن ما يسمى بالحضارة الإسلامية عبارة عن وهم كبير !	١٥٤
- المتعلدون بأمجاد الماضي، لا يرون في الحاضر سوى الانتكاس والتقهقر.	١٥٥
- إن الأمم حين تملك عتاد الانطلاق الحضاري تستطيع تجاوز المعوق من تراثها تارة، وتؤويه تارة أخرى.	١٥٦
- في التراث أصول هادبة ومستندات أدبية لجهودنا البناءية، لكن ليس فيه حلول جاهزة لمشكلاتنا المعاصرة.	١٥٦
- حين نفصل التراث عن الواقع، فإننا نعرض ذلك التراث للانحطاط؛ إذ إن حياته في دوام قراءته من أفق خبراتنا المتجددة.	١٥٧
- العقول الجبارة حقاً هي التي تكافح من أجل دمج معطيات التراث في مرئٌ كبير شامل هو الحياة الحضرية النامية المتطرفة وفق الأصول الريانية الهدابي.	١٥٨
- الإسراع في حركة الفتوح أدى إلى قصور آليات الاستيعاب التربوي والثقافي والاجتماعي للمسلمين الجدد.	١٥٩
- لأسباب كثيرة يغير الإنسان في عناصر رؤيته للكون، وبذلك يتغير الكون نفسه؛ إذ الكون ليس إلا ما نراه فعلاً أنه الكون.	١٦٠
- يوجهنا القرآن الكريم إلى أن نجعل من المعطيات التاريخية أدوات نفتح بها حقولاً جديدة للفهم، وبذلك تتجاوزها بدل أن نقع أسري لها.	١٦١
- الإنسان بسبب من قصوره الذاتي، يبدو وكأنه يلهث خلف الشيء بدل أن يكون في موقع القيادة والتخطيط.	١٦٢

- إن المطلوب من الوعي دائمًا أن يبحث عن ذاته لا في ذاته، ولكن في المعطيات العلمية والحضارية الجديدة. ١٦٢
- جوهر التجدد الحضاري أن ينتقل الإنسان من العيش وفق أحكام الغريزة إلى العيش وفق أحكام العقل. ١٦٣
- من المؤسف حقاً أن البطولة خارج القانون تعمق في حياتنا يوماً بعد يوم. ١٦٤
- إن الإسلام لا يرضى بفرض أية عقيدة على الناس؛ لأن في ذلك تدمير روح الإيمان، وتدمير القاعدة الأساسية للشعور بالمسؤولية. ١٦٦
- إن هدفنا أن نبني ذاتاً حرة، تفعل ما تراه ملائماً، وتحمل نتائج أعمالها عن طيب خاطر. ١٦٦
- الجهال هم الذين يخطئون عند النظر في القضايا الكلية. أما الخطأ في الأمور الفنية، فهو من اختصاص العلماء والخبراء. ١٦٩
- إن سمة (الالتزام) هي أكثر السمات قبولاً للتعميم في المجتمع المسلم، وأكثرها ملائمة للخلفية العقائدية والثقافية لدى المسلمين. ١٧١
- الحالة النموذجية في حياة الأمة أن تختلف فيما يحتمل الاختلاف، وتنتفق حيث لا يجوز إلا الاتفاق. ١٧٢
- ليس من المستبعد أن يؤدي التطابق في الفروع إلى ثورة على الأصول. ١٧٢
- حين تدور الفكرة في فلك شخصي أو مذهبي، فإنها تفقد جزءاً من مصداقيتها، وجزءاً من جاذبيتها أيضاً. ١٧٤
- إن الفكرة الحرة يجب أن تظل دائماً مرفقة، تستعصي على القولبة والبرمجة. ١٧٤
- إن اصطدام الآراء ليس كارثة، وإنما هو فرصة لإثارة الفكر الذكي، وفرصة للبحث والتمحيص. ١٧٥
- آلية التطور مزدوجة، حيث ينشق نظام جديد من نظام قديم، اجتاحة الخلل والاضطراب، وقد توازنه الخاص. ١٧٩
- يعلمنا القرآن الكريم أن تغيير الذات، يمكن أن يؤدي إلى تغيير نظم اجتماعية وطبيعية عديدة. ١٨٠
- النصر الحقيقي الذي افتتحت به حضارتنا الإسلامية انطلاقتها كان على مستوى النفوس إذ تحررت من حب الدنيا، ومن الطموحات الصغيرة. ١٨١
- نحن بحاجة إلى ابتكار نموذج للتغيير، ينسجم مع مبادئنا وأهدافنا وإمكاناتنا. ١٨١

- التطور (البيولوجي) للإنسان، يجعل من التغير والتكيف قانوناً للحياة.	١٨٣
- طالما وضعت البشرية في التغيير والتطور آمالها ومخاوفها في آن واحد.. ..	١٨٣
- القصور الذي نبديه في التجاوب مع المتغيرات، لا يعود إلى الطبيعة البشرية، وإنما إلى الطريقة التي ربينا بها، وإشارات التعليم الذي تلقيناه.	١٨٤
- التلاوم مع الجديد يتطلب دائماً جهداً إضافياً، مما يدعو الناس إلى تجاهله والإعراض عنه.	١٨٥
- لاحظ كثير من الناس أن كثيراً من الأفكار التي تدعوا إلى مسايرة روح العصر، ولد لدى معتقديه نوعاً من العتمة الروحية والترهل الأخلاقي.	١٨٦
- إن الناس يأنفون من الامتثال للتطوير الذي يقسرون عليه، مهما كان موضوعياً ومنطقياً.	١٨٧
- إذا لم تتخذ موقفاً صلباً تجاه ما نراه اليوم من تحلل الشخصية، فإننا سرى مجتمعاتنا وهي تذوب بين أيدينا، ونحن واقفون للاستمتاع بمشاهد السقوط الجماعي في مستنقع الانحطاط!	١٩٢
- في عصور إقبال الإسلام كان افتتاح الإنسان على الإنسان يتم عبر العلاقة بالله - تعالى - حيث تقف الرؤية الإنسانية على أرضية شرعية.	١٩٢
- من شأن التخلف أن يضرب التوازنات، وأن يجعل الناس يفقدون الشفافية نحو المعدلات الحضارية.	١٩٣
- إن كثيرين منا يقلدون الغرب ليس على مستوى البنية العلمية والحقوقية، وإنما على مستوى الشمرات والتنانيع.	١٩٥
- إن الأمم العظيمة، لا تستمد عظمتها من قدرتها على فعل ما يفعله الآخرون، وإنما من قدرتها على التحويل فيما تقبسه منهم بما يلائم خصوصيتها وظروفها.	١٩٥
- إن وعياناً لا يقود الحياة بمقدار ما يقع في دوامة مطالبه.	١٩٦
- في زحمة الجماهير المتلاطمة صار البحث الأساسي منصبأً على صياغة النظم التي تؤطر الحركة، وتعلم الناس الامتثال عوضاً عن المبادرة والإبداع.	١٩٦
- سيظل من واجبنا أن نبحث عن علاقة توتيرية متنجة بين المبادرات الفردية والنظم الاجتماعية.	١٩٧
- يجب أن نعرف أننا بذلكنا جل جهودنا في الحديث عن حجاب المرأة وصونها، وقصرنا في التنظير لتنميتها، وتمكينها من تحقيق ذاتها واستثمار إمكاناتها.	١٩٩

الإنسان كالماء إذا ركد فسد. وكمعظم الأشياء إذا همش انتهت صلته بنظام الوجود، وفي ذلك عطبه وهلاكه. ١٩٩	-
يعود قدر من طغيان العاطفة على المرأة المسلمة لدينا إلى عدم ممارستها للأنشطة الدعوية والذهنية والاجتماعية. ١٩٩	-
حين لم تجد المرأة ما تحقق به ذاتها لجأت إلى الاستهلاك بوصفه أداة تميز اجتماعية. ٢٠٠	-
التطور العمراني غير الموجه، جعل الناس يشعرون بالاغتراب داخل أوطنهم وبين أهليهم. ٢٠٢	-
إذا ما أردنا استعادة التضامن الأهلي فلا بد من تنكب سبيل التقدم الغربي ذي الإحساس الغليظ بمعنى الآخرة والقرابة والجوار. ٢٠٣	-
نحن مفتونون بالأشياء الضخمة مع أن هناك شواهد كثيرة، تشير إلى أضرار العملاقة في مجالات عديدة. ٢٠٤	-
لكل مشكلة حبيباتها وعقدها الخاصة، وحلها يتوقف على العثور على المنهج الملائم لها. ٢٠٥	-
التقدم الحضاري يولد مشكلات جديدة، ومناهج جديدة أيضاً لحلها، ولا أظن أن الناس سوف يشهدون أي نهاية للبحث عن المنهج الملائم. ٢٠٦	-
إذا قلت للناس: إني سأغير ما أنتم فيه، فإنك تهيجهم وتستعد لهم عليك. ٢٠٦	-
إن أسلوب التغيير أشبه بعمل من يحاول اقتحام شجرة ليغرسها في مكان آخر. ٢٠٦	-
من العسير جداً أن يتم التغيير على الصعيد القيمي والفكري في أجواء مشحونة بالتوتر. ٢٠٧	-
لا بد لنجاح التغيير من أن تتجاوز الرؤية السطحية للأشياء إلى تكوين رؤية جديدة، تقوم على إدراك الوحدة العميقـة في حـيـة البـشـر. ٢٠٧	-
التغيير هو قانون الحياة. وما نظنه مستقرأً يستحمل على سلسلة من التغيرات الصغيرة التي تغير ملامحـه في النـهاـية. ٢٠٨	-
إن التغيرات السريعة تخل بالتوازنـات القـائـمة، ومن ثـمـ فإنـها تـرقـظـ فيـنا رـوحـ المـقاـوـمـة. ٢٠٩	-
إن تشخيص طبيعة التغيرات الجارية، يعد إنجازاً خطيراً على طريق تنظيم رد الفعل حـيـالـها. ٢٠٩	-

- ليس التكيف سوى التعديلات التي نقوم بها كي نظل متوافقين مع التعديلات التي تطراً على بيتنا ٢١٠
- موت الإنسان يعني طروء خلل على توازنه الحيوي، لم يستطع تحمله أو التكيف معه ٢١٠
- التكيف المتوازن، يتطلب دائماً نوعاً من التجاوز: تجاوز بعض المفاهيم والآليات القديمة التي ليس لها سوى قيمة وفعالية زمنية ٢١١
- مهما كانت طبيعة العامل التغييري، فإنه يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره إذا كان غير منسجم مع روح العصر ومنطقه وتوجهه العام ٢١٣
- التغيرات الكثيرة الجارية، تحتم علينا الانتقال من التنافس إلى التعاون، ومن الولع بالإنجازات الفردية إلى توطين النفس على العمل ضمن فريق ٢١٤
- يمكن للتقدم العلمي أن يمسي عامل تخلف إذا ما سمحنا للمعطيات العلمية والتكنولوجيا الأشد حداثة أن تتفاعل مع أطر أخلاقية وتنظيمية بالية ومنحرفة ٢١٥
- يبدو أن مؤسساتنا التربوية مصابة بعاهات مستديمة، أصبحت أشبه بالطبيعة الثانية لها ٢١٥
- التعليم التقني الذي أدمنته من الروضة إلى الجامعة، أوجد متعلماً انفعالياً واتكالياً، يتظر، المساعدة ويجهل المبادرة ٢١٥
- من غير الممكن اليوم أن ننمي الحسن الخلقي لدى الناس من غير أطر ومؤسسات تخصص جهودها لنشر الفضيلة والأخلاق الإسلامية ٢١٧
- إن حجم المؤسسات الخيرية والحضارية ومدى انتشارها من أهم المؤشرات على ما يحرزه المجتمع من تمدن ورقي ٢١٨
- لن يكون تضخم الأجهزة الحكومية علامة صحة، ولا علامة حيوية، بل هو دليل ضعف الكفاءة الاجتماعية، وسوء الأخلاق ٢١٩
- المشروع عبارة عن اجتماع الهدف والطاقة والإمكانية والبعد الزمني في خطة منطقية واحدة ٢٢٠
- من المهم أن يكون مشروعنا الحضاري الشخصي شيئاً يستحق العناء، وأن يكون على صلة بمشروعنا الأكبر، وهو الفوز برضوان الله تعالى ٢٢٠
- الثقافة ضرورة اجتماعية؛ إذ من المستحيل تعايش الناس في أي مجتمع من غير ثقافة ٢٢٦

- إن ثقافة كل أمة هي ذاتيتها، وهي أداتها في وعي الوجود، كما أنها المصنوع الذي يحول الوعي الفردي إلى وعي جماعي ٢٢٧
- على حين يشكل المحور الأخلاقي الركيزة الأهم في ثقافتنا، فإن الثقافة الغربية، تتمحور حول ركائز عقلية تقنية في المقام الأول ٢٢٧
- مكونات الثقافة ليست دائمًا متجانسة، ولا تتمتع بمعقولية واحدة، ولذا فقد نلقي ثقافة متألقة في أحد أنساقها، متحجرة ومتخلفة في نسق آخر ٢٢٧
- لا ينبغي لأية أمة أن تدمر بني ثقافتها الخاصة، مهما كانت رديئة، لفتح الطريق أمام إحلال ثقافة أخرى ٢٢٧
- إن التجربة التاريخية تفيدنا أنه ما من نسق ثقافي يملك ملجاً آمناً من التغير والتطور، وذلك بسبب افتتاح الثقافة على الواقع ٢٢٩
- حين توفر ظروف معينة، فإن المدلولات العقدية والقيمية يمكن تجاوزها وتأويلها دون أن يتغير الوعي لذلك ٢٢٩
- الصراع بين مكونات العالم الثقافي ضروري لتوازنه؛ إذ إن انتهاءه سيعني انتصار بعضها وإفقار الأخرى ٢٣٠
- من الخطأ الفادح تخفيض الثقافة كلها إلى النسق المعرفي وحده؛ لأن البشر كائنات عاطفية في المقام الأول ٢٣١
- إن الفكرة التي لا تجد لها أساساً في البنى العميقة للثقافة، قد تحول فاعليتها من وسيلة بناء إلى وسيلة هدم ٢٣١
- ليس هناك نقطة معينة، يبلغ عندها التوازن الثقافي كماله، وليس هناك أي وسيلة لتحقيق ذلك ٢٣٢
- ليس أمامنا سوى إبقاء التفاعل بين الأنساق الثقافية حياً ونشطاً، وأن نراقب ذلك التفاعل، ونحاول تصحيح ما يحدث فيه من خلل ٢٣٢
- الثقافة هي السلاح، وهي العتاد الذي يستخدمه الوعي في مواجهة تغيرات الواقع ومتطلبات الحياة المتتجدة ٢٣٢
- التحدي الذي يواجه كل ثقافة، يكمن في محافظتها على توازنها الذاتي مع تلبيتها لمطابقي الثبات والتغيير في المفترق الحضاري ٢٣٣
- تدفق المنتجات الثقافية من كل اتجاه، يجعل الثقافة عاجزة عن استيعاب الواردات الجديدة وترميزها، وهذا هو الذي يولد لديها نوعاً من الحررون ٢٣٣

- من حق كل ما هوأساسي ألا تبتعد التجديفات الثقافية عنه، بل المطلوب دائمًا أن تخدمه وترسخه ٢٣٥
- إن من المؤسف أن الناس كلما حققوا نجاحاً عمرانياً، وتطاول بهم الزمان وهرت عرى اتصالهم بالأسس التي قامت عليها ثقافتهم وحضارتهم ٢٣٥
- تجديد الوعي هو تجديد للثقافة باعتبار ما. ومن أهم ما يتلخص به التجديد وإثارة الاهتمام بما تم نسيانه من الأصول ٢٣٦
- إن الوعي يثبت في كثير من الأحيان أنه يتمتع ببنية ذاتية مستقلة عن الثقافة، وذلك حين ينقد الثقافة، ويظهر القدرة على تطويرها ٢٣٧
- لا تستطيع أية ثقافة مهما كانت عريقة أن تناول شهادة أبدية بجاذبيتها أو تفوقها؛ فذاك منوط بأدائها الذي لا يخلو أبداً من قصور ٢٣٧
- إذا شعر الناس بانحطاط مركزهم الحضاري بين الأمم، فإن من الصعب إقناعهم بإخلاء طرف ثقافتهم من المسؤولية عن ذلك ٢٣٧
- إن من أخطر ما يصيب الثقافة من على تطور الواقع الحضاري خارج مدلولها ورموزها ومعاييرها ٢٣٨
- إن روح عصرنا تمجد القوة، وتتجذب إلى التفوق، على مقدار ما تستهين بالثقافات التي تحاول أن تستمد مشروعيتها من غير هذا الباب ٢٣٩
- الشعور بالتأزم من نصيب أصحاب الثقافة العليا، على حين تدغدغ مشاعر أصحاب الثقافة الشعبية الأحلام المريرة، وينعمون بالتكيف مع ما هو سائد ٢٤٠
- أثبتت التجربة التاريخية أن القضايا التي لا يحمل مسؤوليتها السواد الأعظم من الناس، لا تخدم على النحو الصحيح ٢٤٠
- إن عجز الصحفة عن مد جسور التواصل مع الناس قد جعل كثيراً من جهودهم المعرفية غير ذات معنى، وصاروا أشبه بقادش تخلى عنه جنوده ٢٤٠
- مع تشوّق أبناء الثقافة العليا والشعبية إلى التمازج والظاهر، إلا أن الذي يتحول دون ذلك هو فقد الأداة التي يتم بها التلاقي بين الثقافتين على النحو المبدع المنجب ٢٤١
- إن امتهان بعض المتأثرين بالفكر الغربي التشنيع على الثقافة الإسلامية وضرب أصولها، أجمل الوعي الشعبي منهم، وجعل الناس يضعون عليهم أكثر من إشارة استفهام ٢٤٢

- عدم وجود أجواء ملائمة للنقد الاجتماعي، جعل صانعي المعرفة، يعمدون إلى التلميح، وتسمية الأشياء بغير أسمائها، مما أوجد الكثير من حالات سوء الفهم. ٢٤٣
- إن الشيء إذا كثُر ضعف شعور الناس به، ودخل في جملة المألفات المملوكة. . ٢٤٣
- إن الذي يعنينا في كل الأحوال ليس تطور الثقافة وتجددها، وإنما إبقاء ذلك التجدد داخل دوائر الوعي وتحت مرافقته. ٢٤٤
- مع أن الثقافة هي التي تكون الوعي، وتنمي، إلا أن على الوعي أن يثبت على نحو مستمر أنه مرفف، ومحرر من الواقع في أسر الثقافة، مهما كان شأنها ونقاوها ونفوذها. ٢٤٤
- إن الأنماط الثقافية، على اختلافها، تحاول المحافظة على تمسكها الداخلي ولذا فإن التغيير الذي يطرأ عليها لا ينبع من داخلها على مقدار ما يكون استجابة للمتطلبات الاجتماعية. ٢٤٥
- نحن كثيراً ما نتجاهل أننا حين لا نحترم الحقوق الأساسية للناس، فإننا نتركهم مكسوفين ثقافياً لكل مؤثرات الثقافات الأجنبية. ٢٤٦
- إن كل الحضارات الكبرى، تقوم على ثقافات، تحمل في طياتها قابلية للانتقال عبر الحدود، وتجاوز البيئات المحلية. ٢٤٦
- إن الانتصارات التي حققتها ثقافتنا الإسلامية في الماضي، لا تغنى في مسألة انتشارها اليوم إلا غناه رمزياً. ٢٤٧
- كلما تقدمت الأمة في مضمار الحضارة، اتسعت منظوماتها كافة، وصارت أكثر غنى وتعقيداً. ٢٤٨
- إن من طبيعة التقدم الحضاري أن يزيد في احتياجات الناس، ويضخم مكانة (الأشياء) في حياتهم؛ وهذه من جهتها تضغط على العديد من المنظومات الثقافية. ٢٤٨
- إن جعل المنهاج الرياني إطاراً للتفاعل الثقافي، سيؤمن تواصلاً ثابتاً بين الأجيال، كما يوفر كثيراً من الطاقات التي تهدّرها الأمم في المناحر الثقافية. ٢٤٩
- التفاوت بين البشر مصدر تنوع، وهو يمنح فرصة للتكامل.
- التفاوت بين الناس، يدفع إلى المقارنة، ويجعل كل شخص يرى نفسه من أفق ما عليه غيره. ٢٤٩
- الثقافة المريضة، تقدس التفوق والنفوذ، وتعترف لذوي القوة بوضع استثنائي. ٢٥٠

- من طبيعة التفوق أن يؤدي إلى المزيد من التفوق ما لم يرافق المجتمع
استثماره ليقي داخلاً للأطر المشروعة..... ٢٥١
- من المستحيل تحقيق استقرار حقيقي من غير شعور الناس بأنهم يعيشون
في مجتمع يمكنهم من الوصول إلى الفرص التي يستحقونها..... ٢٥١
- حين ترك العلاقات بين الأقواء والضعفاء، تتشكل وفق منطق السوق فإننا نكون
كمن يطلب من الأسماك الصغيرة أن تعايش مع التماسيع في بحيرة واحدة..... ٢٥٢
- حين تتجاوز فئة أوجه حقها في الفرص التي يمنحها النظام فإنها تغري
باقي الفئات والجهات بعمل مثل ذلك..... ٢٥٤
- إن من العدل أن يعيش الناس في ظل نظام يتبع أكبر قدر ممكن من
الحرك الاجتماعي وتداول مراكز النفوذ..... ٢٥٥
- إن ضعف النشاط الروحي والأدبي والاجتماعي جعل منافذ تحقيق الذات أمام
الناس محدودة، مما أحجمهم إلى المال والنفوذ بوصفهما طريقتين ممكنتين لذلك..... ٢٥٥
- إن اجتماع الناس - بطبيعته - يولد توترات، ويهدى للعدوان والصدام..... ٢٥٥
- حين يسود المجتمع التعانف يخسر المجتمع أهم موارده، وهو نوعية
العلاقة بين الأخلاق والفكر، وبين المهارات التنظيمية والتكنولوجية، وبين
الموارد الطبيعية..... ٢٥٦
- ثبتت التجارب أن التحضر ليس أكثر من قشرة رقيقة، وأن عودة الهمجية
إلى سابق عهدها واردة في أي وقت، ولكن بأسلحة أشد فتكا..... ٢٥٧
- نحن بحاجة ماسة إلى أن نتعثر على صيغ ثقافية ذات مضامين إسلامية
ووظائف عصرية..... ٢٦٠
- الإدارة أسلوب استثمار ما هو متاح من موارد من أجل تحقيق أفضل ما
يمكن من نتائج..... ٢٦١
- مهمة الإدارة الجيدة أن تحول ما لدى الناس من أفكار ومعارف وقيم
وإمكانات إلى عناصر إنتاجية، تسهم في تقدمهم الشخصي..... ٢٦٢
- مرت علينا حقب كان الذي يتحدث فيها عن التخطيط وعن المستقبل، يشير
الشك في صدق إيمانه، وفي ثقته بالله - تعالى - وتوكله عليه..... ٢٦٣
- يعد الشهيد التمودج الأرقى لما يمكن أن يفعله الإيمان بالهدف من بعث
على التضحية..... ٢٦٤
- يظل نسيان الهدف أمراً وارداً ما لم يجعله في بؤرة الوعي..... ٢٦٥

فهرس المُوَضُّعَات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	حول شؤون الوعي :
٩	تعريف الوعي علاقة الوعي بالعقل والثقافة
٩	الصورة الذهنية أداة في يد الوعي
١١	تحريك الوعي الوجود غير الوعي (اللاوعي)
١٣	انقسام الوعي
١٨	الثقة بالوعي
١٨	داعي تجديد الوعي
٢٥	تجليات الوعي :
٢٨	في الفكر
٢٨	العقل الإسلامي عقل أخلاقي
٢٩	رؤى الكلية :
٣٠	تشتت الوعي بين الثنائيات
٣١	نماذج من دمج الإسلام بين الثنائيات
٣٥	رؤى الأشياء من منظورات مختلفة
٣٨	تحسس الفرق بين المطلق والنسيبي
٤٠	الروح النقدية :
٤٠	أهمية النقد
٤٢	نماذج للمراجعة
٤٣	ضعف الروح العملية

الصفحة	الموضوع
٤٤	الحماسة من غير أهلية
٤٤	تجاوز المعتقد للبرهان
٤٥	إهمال الكشف عن السنن
٤٨	بنية الطرح الفكري:
٤٨	١ - الفلسفة والعلم
٥١	٢ - الخيال الخصيـب
٥٢	٣ - ما بين الذكاء والعقل
٥٣	٤ - المنطق والعاطفة
٥٥	حول العلم والمعرفة:
٥٥	أهمية المعرفة
٥٩	جوهر المعرفة
٥٩	التحليل لا السرد
٦٠	الإطار العلمي
٦١	نسبة تأثير المعرفة
٦٢	المعرفة المعاصرة
٦٦	حول الأخلاق والقيم:
٦٨	١ - الإيمان اكتشاف للذات
٦٩	٢ - الهوية فيض متجدد
٧٢	أزمة الهوية
٧٥	٣ - الأخلاق والبيئة:
٧٥	أ - ليس تأثير البيئة واحداً
٧٦	ب - معالجة الشريعة لمسألة البيئة
٧٨	ج - الوعي يدرك القيم على أنها نسبية
٨٠	د - تجاوز تأثيرات البيئة جزئي
٨٢	ه - التسامي الشخصي
٨٣	٤ - أصداء الانحطاط:
٨٦	أوهام حول القيم
٨٨	نماذج من أصداء الانحطاط:
٨٨	١ - الهروب من أداء الواجب

الصفحة	الموضوع
٨٩	٢ - الوسيلة عوضاً عن المبدأ
٩١	٣ - القوة عوضاً عن الرحمة
٩٢	٤ - الاهتمام بالإجماع دون مضمونه
٩٣	٥ - الشعور بالهزيمة
٩٥	أخلاق لكل الأزمان:
٩٩	- إثمار الدائم على الزائل
١٠٠	- الكراهة فوق القوة
١٠٠	- الشعور بالمسؤولية
١٠١	- الاستقلالية في الحكم
١٠١	- السلوك الحكيم
١٠١	- الانفتاح وتقبل الجديد
١٠٢	الريادة والسبق
١٠٣	طرف من الأخلاق الاجتماعية
١٠٥	التقدم والتخلف:
١٠٧	أسباب التخلف وظاهره
١٠٨	نظريات في تفسير التخلف
١٠٩	تشخيص التخلف
١١١	رؤى متكاملة للتقدم والتخلف
١١١	١ - جوهر التخلف
١١٢	٢ - نسبة مفهوم التقدم
١١٢	٣ - تقويم وضعية التقدم
١١٤	٤ - استيعاب الوعي للتقدم
١١٥	أ - بناء الوعي الرزين
١١٥	ب - العاقبة للتقوى
١١٦	ج - التدهور ليس ضرورة لازب
١١٧	د - الاستعلاء على الشدائد
١١٨	ه - التقاط الوعي لفكرة التقدم
١٢٠	و - القناعة بامكانية التقدم المستمر

الصفحة	الموضوع
١٢٣	٥ - متطلبات التقدم:
١٢٣	أ - هل الحياة ممكنة من غير تقدم؟
١٢٤	ب - اتخاذ القوى المعنوية أساساً للتقدم
١٢٥	ج - التنظيم العقلي للواقع
١٢٦	د - الإجابة عن الأسئلة الكبرى
١٢٨	ه - التقدم الحقيقى تقدم إنساني
١٢٩	و - ثمن لا بد منه
١٣٠	ز - الدأب والاستمرار
١٣١	ح - الانفتاح المحسوب
١٣٢	ما بين الحضارة والمدنية:
١٣٢	١ - ما بين الحضارة والبداءة
١٣٥	٢ - ما المدنية؟
١٣٧	سمات الإنسان المتمدن:
١٣٧	أ - العثور على الهدف العظيم
١٣٧	ب - الامتثال للقانون
١٣٨	ج - المطابقة بين الهوية ومتطلبات المعاصرة
١٣٩	د - اكتشاف الإمكانيات الحضارية
١٤٠	ه - نوعية التصرفات
١٤١	و - الاعتراف بالآخرين
١٤٣	ما بين القديم والجديد:
١٤٧	نحن والقديم:
١٤٧	١ - ليس الماضي كياناً ناجزاً
١٥٠	٢ - تجذر الماضي فينا
١٥١	٣ - الماضي يبصرينا بالسنن
١٥٢	٤ - فهم إطار الحدث
١٥٣	٥ - العلاقة بالتراث:
١٥٣	أ - ليس تراثنا مجموعة من النفائس
١٥٤	ب - لا عصمة لإنتاج السابقين
١٥٥	ج - لا تملك الأمم المتقدمة تراثاً أفضل من تراثنا

الموضوع	الصفحة
د - ليس في التراث حلول جاهزة لمشاكلنا ١٥٦	
ه - توظيف التراث ١٥٧	
 التجديد وال موقف من الجديد: ١٦٠	
١ - الجديد خليط من الفرص والأزمات ١٦١	
٢ - من الغريرة إلى العقل ١٦٣	
٣ - من القهر إلى الإقناع ١٦٤	
٤ - التنوع في إطار الوحدة: ١٦٦	
أ - حاجة العقل البشري إلى إطار ١٦٨	
ب - لا اجتهاد في الكليات ١٦٩	
ج - المرونة حيال الجزئيات ١٧٠	
د - ثقافة التنوع والتأطير ١٧١	
وعي التغيير والتغيير: ١٧٧	
مقاومة التغيير: ١٨٣	
١ - القصور الذاتي ١٨٣	
٢ - التعasse والإرهاق ١٨٤	
٣ - الإخفاقات السابقة ١٨٥	
٤ - غموض الآثار التي يتركها الجديد ١٨٥	
٥ - حراسة المجتمع للقديم ١٨٦	
٦ - التعسف في أسلوب التغيير ١٨٧	
توجيه التطور: ١٨٨	
١ - فهم الواقع الذي ستؤثر فيه التغيرات ١٨٨	
٢ - التشيع بروح الدعوة، وتجاوز الأحقاد ١٩٠	
٣ - تحلل الشخصية وتوسيع دوائر الفساد ١٩٠	
٤ - الملمح الإنساني ١٩٢	
٥ - اللوذ بالآخر خوفاً من التهميش ١٩٤	
٦ - تشجيع المبادرة الشخصية ١٩٦	
٧ - تربية المرأة ١٩٧	
٨ - استعادة الحميمية والتلاحم والأهلي ٢٠٢	
٩ - التوجس من العملاقة ٢٠٣	

الصفحة	الموضوع
٢٠٥	في منهج التغيير :
٢٠٦	١ - الرفق في الإصلاح
٢٠٧	٢ - إدراك العلاقات التبادلية
٢٠٨	٣ - الإحساس بالتغييرات البطيئة
٢١٠	٤ - التكيف المتوازن
٢١٢	٥ - نوعية عناصر التغيير
٢١٤	٦ - الشفافية نحو متطلبات التغيير
٢١٦	٧ - التوجه المؤسسي
٢١٩	٨ - تنجحية العقلية المكتبة
٢١٩	٩ - المشروع الحضاري الشخصي
٢٢٣	تجديد الثقافة :
٢٢٧	ملاحظات حول ماهية الثقافة وارتباطاتها
٢٢٧	١ - أهمية الثقافة
٢٢٧	٢ - تفاوت أساق الثقافة
٢٢٩	٣ - تجدد بنية الثقافة
٢٣٠	٤ - التوازن الداخلي للثقافة
٢٣٣	تحديات في وجه الثقافة :
٢٣٣	١ - تخشب الثقافة
٢٣٤	٢ - البعد عن النماذج الأساسية
٢٣٧	٣ - ضعف الثقة بالثقافة
٢٣٩	٤ - انزال الثقافة العليا
٢٤٣	تطوير الثقافة :
٢٤٨	١ - مرجعية المنهج الرباني
٢٤٩	٢ - التفوق نعمة وليس امتيازاً
٢٥١	٣ - الاحتفاء بالعدل
٢٥٥	٤ - التشيع بمعانٍ السلم
٢٥٨	٥ - التداول والتبادل
٢٦٠	٦ - الحسن الإداري :
٢٦١	أ - أهمية الإدارة

الصفحة	الموضوع
٢٦١	ب - وظيفة الإدارة
٢٦٢	ج - التخطيط
٢٦٣	د - تحديد الأهداف
٢٦٥	هـ - التنبؤ
٢٦٧	الفهارس

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق: ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١